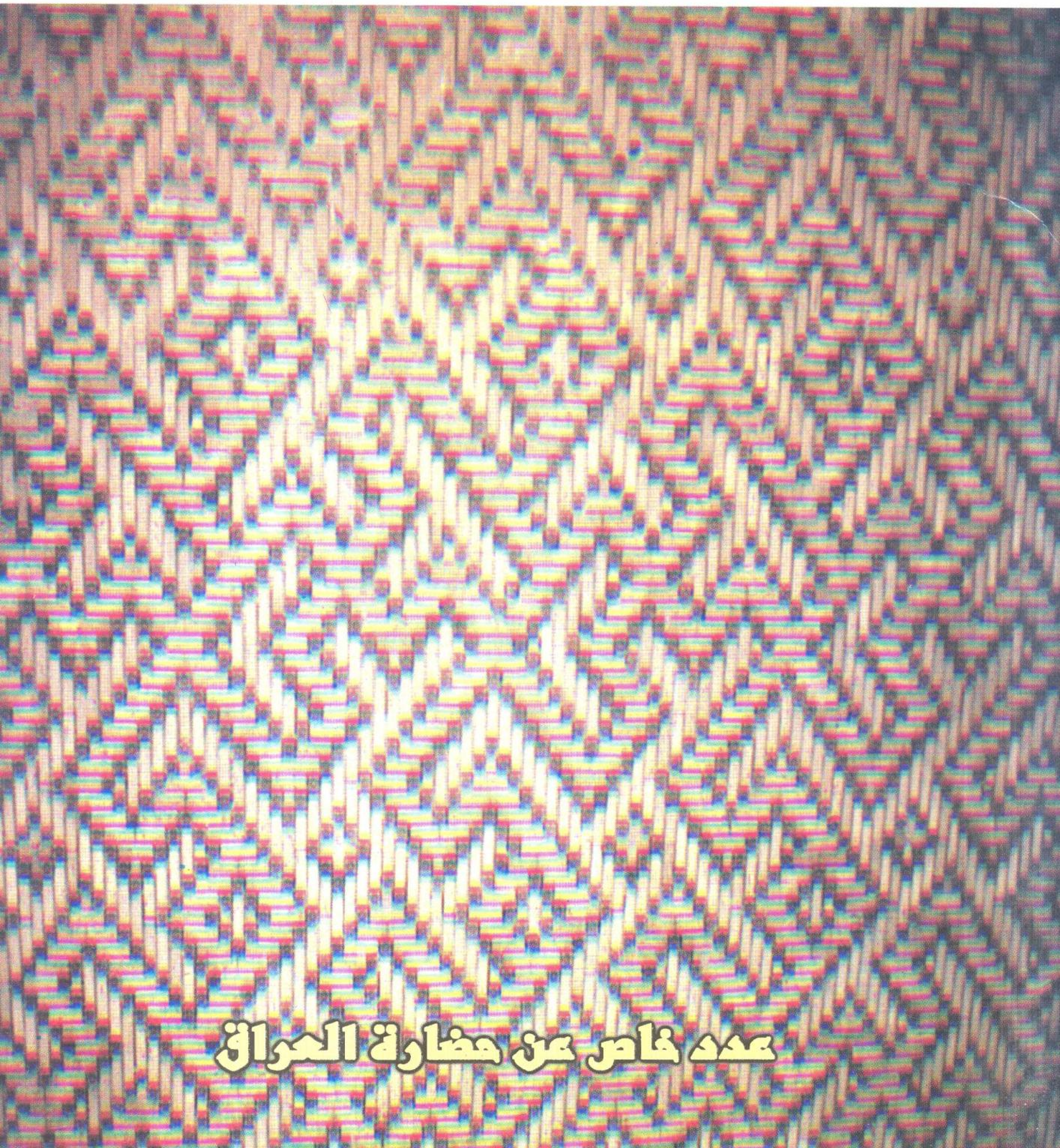
الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب العـــدد 116 خـــريف 2003 الســـنة الثامـــنة و العشـــرون



عدد خاص عن حضارة العراق

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد 116 خريف 2003 السنة الثامنة و العشرون

صورة الغلاف:

« القصر العباسي في بغداد »

تصوير : د.ناديا خوست

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

« الآداب الاجنبية »	الاشتراك السنوي
مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة اشهر تعنى بنشر المواد المترجمة من الادب العالمي في مجالات الشعر والقصة والمسرحية وغيرها من صنوف الادب الابداعي وكذلك في مجالات النقد والبحث الادبي .	داخل القطر ١٠٠ ل.س
❋ توجه جميع المراسلات باسم امانة التحرير .	الاقطار العربية للافراد ٢٠٠ ل.س او ١٠ دولارات اميركة
❋ المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة .	خارج الوطن العربي ٣٠٠ ل.س او ١٥ دولارا اميركيا
❋ المواد التي تتلقاها المجلة لا ترد لاصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .	الدوائر الرسمية داخل القطر ٢٠٠ ليرة سورية
	الدوائر الرسمية في الوطن العربي ٢٥٠ ل.س او ٢٠ دولارا اميركيا
	الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي ٥٠٠ ل.س او ٢٥ دولارا اميركيا
	أعضاء اتحاد الكتاب ٥٠ ل.س

المراسلات :

باسم أمانة التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب

دمشق - المزة أوتستراد - ص.ب : 3230

هاتف : 6117240-6117243-6117242

6117243

البريد الإلكتروني :

Email : unecriv@net.sy

aru@net.sy

الانترنيت :

http://www.awu-dam.org

تنويـــــه

تعـــتذر هيئة تحرير الآداب الأجنبية عن قبول أية مادة غير مـــرفقة بالأصل الأجنبي؛ كما ترجو الهيئة من السادة المترجمين كتابة اســـم المؤلـــف والمترجم وعنوان المادة والمرجع باللغة الإنكليزية أو اللغة الأصلية التي كتب بها النص.

وترجو هيئة التحرير أن تكون المادة المترجمة مطبوعة على وجه واحـــد من الورقة، وأن تثبت المصطلحات الأجنبية في هامش مستقل ملحـــق بالـــنص. علمـــاً بأن المادة المقدمة لا تعاد سواء نشرت أم لم تنشر.

دعوة

إلى السادة المترجمين:

تنوي مجلة الآداب الأجنبية نشر ملفات خاصة عن كل من "الأدب الصيني"، و"الأدب الأرمني"، و"الأدب الأندونيسي"، يرجى من الباحثين والمترجميـن الراغبين بالمساهمة في الملفات المذكورة إرسال موادهم وترجماتهم إلى المجلة مرفقة بالأصول.

□□

الافتتاحية

حضـــارة العراق

بقلم:

▪ د.نـادية خوست ▪

يذكّر احتلال بغداد سنة 2003 بالاجتياح المغولي سنة 1258. فكلاهما لم يقصد احتلال الأرض فقط بل قصد تدمير الحضارة. الفرق بين الغزو البعيد واحتلال الأمس، أن العلماء والباحثين كشفوا للعالم في القرن الماضي مهد الحضارة الإنسانية في بلاد مابين النهرين، وقدموا شواهد عليها بالأبحاث التي نشروها واللقى التي عرضوها في متاحف العالم. وكانت تلك الشواهد منحوتات وحليا وقوانين وأساطير محفورة فـــي الحجـــر والطيـــن. هزّ اكتشاف ملحمة غلغاميش الباحثين. ففيها وجـدوا الطوفـــان وأسـطورة الخلق وتبينوا أن التوراة نقلتها عنها. ويســتطيع مناهضـــو الصهيونية اليوم أن يبحثوا اختلاق أحبار اليهود أســـاطير الـــتوراة فـــي أيام السبي البابلي مفيدين من حضارة مابين النهرين العظيمة.

نُقـــل كثـــير مـــن آثار العراق خلال التنقيب إلى أنحاء العالم. ويفيدنا أن نتذكر أن لورنس بدأ مهماته في البلاد العربية بالتنقيب عن الآثـــار، ومثله غرترولد بيل. من مقتنيات متحف فيلادلفيا اليوم حلي ملكـــة اور التـــي تدهـــش المتفرج بالمهارة التي وصلت إليها الفنون وارتقـــى إلـــيها الـــذوق والبحوث الجمالية في حضارة العراق القديم.

ويعــرض متحف برغامون في برلين بوابة عشتار التي توقف الزائر ذاهلا أمام ضخامتها وألوان آجرّها المزجج وثيرانها المجنحة.

لكــن الخطر الذي يجرف آثار حضارة مابين النهرين تجاوز في نهايــة القــرن الماضي نقل القطع الأثرية إلى متاحف العالم. فالتجارة بالآثــار أصــبحت أعمالا تقوم بها عصابات عالمية مختصة، تسلب الإنســانية ذاكــرتها الحضــارية. وقد سهل الحصار ثم سهل احتلال العــراق لهــذه العصابات أن ترتكب جرائمها فتقتلع شواهد حضارات عمــرها آلاف الســنوات مــن سياقها التاريخي، وتنتزعها من وطن الإنســان الــذي أبدعهــا، وترحلها خارج بيئتها. وليست هذه الجرائم موجهة فقط إلى حق الشعب العراقي في تاريخه الحضاري، بل موجهة ضــد الوعــي الإنساني لأنها تمنعه من استنتاج مسار الفكر الجمالي والفنــي والمعماري في أقدم حضارات الأرض في أول مدن الإنسان، وتجعــل القطعــة المقصوصة من لوحة حجرية تفصيلا فقد مكانه في تصميم اللوحة، وفي مسار التعبير العام. فتحرمه من فضائه كجزء من كنز حضاري إنساني لتجعله زخرفة في مجموعة خاصة.

يعرف من زار متحف بغداد أصول الشواهد الحضارية التي تزين متاحف العالم كمقتطفات. ويقرأ فيه مسار حضارة في سياقها ووطنها. ويســتنتج صــلتها بالحضارات التي تلتها، وتجليها في تفاصيل الحياة اليومــية العراقــية. ويكتسب، كمثقف أو عالم أو فنان، متابعة بدايات المعــارف الإنســانية. فيتبيــن أصول دراسة المثلثات، وحساب قطر الدائــرة، وعلــم الفلك، وأول القوانين الإنسانية، وتأملات الفنانين في علاقة الفنون بالحياة وهواجس الإنسان، وصياغة أعمال النحت الكبرى والمنمــنمات الذهبية والعاجية. ويعجب من قدرة اولئك الفنانين القدماء

علـــى التعبـــير البلـــيغ في الأحجار الضخمة وفي أصغر قطع الذهب والعـــاج والطيـــن. وتشهد المدن القديمة المكتشفة والمرممة مثل بابل ونينوى وسامراء وآشور على عمارة فريدة شيدتها حضارة راقية في ذوقها الفني وفي فهمها المناخ والبيئة، متمايزة بين الجنوب والشمال. وامـــتدت في ذلك المسار عمارة المدن العربية الإسلامية التي تجسدها مدينة المعتصم وبحيرة المتوكل، التي لم يفها أي شعر حقها، والمئذنة الملويـــة التـــي مازال حتى في عصرنا نموذجا للتجديد، والقصور العباسية.

اســـتمرت حضـــارة مابيـــن النهرين القديمة في وريثتها العربية الإسلامية. وقد عرضت ندوات بيت الحكمة العباسي كيف حفظ العرب العلوم التي نقلها اليونان من حضارة مابين النهرين وترجموها فسهلوا لاوروبا أن تفيد منها في نهضتها المعاصرة. ومازال البوابات واسعة للبحث في علاقات الحضارات القديمة، وإشعاع حضارة مابين النهرين علـــى العـــالم القديم كله، وتقصي هواجس الإنسان وتأملاته في الحياة والمـــوت والقدر والحرية في أدب مابين النهرين القديم، وكشف علاقة الفـــن بالتفكير الفلسفي في تلك الطفولة الإنسانية النضرة الممتدة على آلاف السنين قبل الميلاد.

وتســـتوقف المتأمل إشارات إلى ذلك العمق الحضاري في الروح العراقـــية المعاصـــرة. منها حرص العراقيين على جمع المخطوطات والكتب، وتقدير الآثار وترميمها. يعبر عنه أن سوق العراق من أكبر أســـواق الكتـــب العربية، كما يعبر عنه الأسى الذي كان يعلنه العلماء والمختصون خلال الحصار لأنهم محرومون من المواد التي تساعدهم على حماية تلك الثروة الفكرية.

منع الحصار مئات الآلاف من البشر من الاطلاع على تراث الحضارة الإنسانية في العراق، وكان هذا نفسه خرقا لحقوق الإنسان. وكان للعرب أكثر فداحة لأنه قطعهم عن التراث المعماري والفكري العربي وتجسيده الحي في آثار العمارة العربية الإسلامية التي كانت حضارة عالمية في تلك القرون المشرقة بالمعارف الإنسانية!

خلال مايسمى بحروب الخليج نهبت المتاحف العراقية. وقدم العراق لليونيسكو قائمة بالآثار المفقودة واستعاد مئات منها. لكن نتائج تلك الحرب كانت مأساوية على الآثار العراقية. فالمناطق التي سمتها الولايات المتحدة مناطق حظر جوي كانت، عمليا، مناطق خارج السيادة العراقية. جهد الأثريون العراقيون لحماية المواقع الأثرية في الجنوب. واستعجلوا التنقيب فيها ليسبقوا لصوص الآثار. عرفوا أن العصابات العالمية تسجل رغباتها في قوائم فيجتاح اللصوص المواقع الأثرية وتتدثر خلال التنقيب الهمجي، آثار لاتقع في القائمة المطلوبة. ألا نستطيع في خيالنا أن نقارن الدقة التي يحتاجها المنقب عن الآثار وهو يزيح الغبار والتراب بفرشاة، بالعجلة التي يجرف بها اللص طبقات يراها علماء الآثار أدلة بليغة على عصور إنسانية؟!

أما في الشمال فكان تجار الآثار يعملون في حرية. وكانت آثار حضارة مابين النهرين ترحل في أمان إلى المجموعات الفردية والصالات العالمية.

لكن استباحة المتاحف العراقية في أول ايام الاحتلال الأمريكي سيبقى في ذاكرة الإنسانية عدوانا مخجلا. وهو مادفعنا إلى التحضير لهذا العدد الخاص عن حضارة مابين النهرين ونهب آثارها، ومن ينكر صلة جوانب الثقافة أحدها بالآخر! وسيطلع القارئ على جهد الأثريين

العراقيين لإنقاذ كنوز وطنهم قبيل الحرب، وعلى وجعهم من الكارثة، وعلى جهدهم الآن لاستعادة المنهوب والمسروق! وسيقرأ شهادة فيسك وشهادتهم على موقف المحتلين المتفرج أو المتواطئ.

قدم العلماء والمثقفون الفرنسيون في التسعينيات من القرن الماضي دراسة عن أثر القصف الأمريكي على الآثار العراقية. وبينت الصور تشقق الأبنية التاريخية. ونبه المختصون وكبار المثقفين والكتاب في العالم، قبيل غزو العراق، إلى خطر الحرب على التراث العراقي الذي يعني الإنسانية كلها. وكان ذلك الصوت العلمي من أصوات ملايين البشر الذين رأوا في العراق شعبا حيا صابرا وحضارة عريقة. وحاولوا أن يمنعوا خرق القانون الدولي، وأن يحموا العالم من سيادة قوة عسكرية ضارية. لكن الغزو الذي لم ير غير أكبر احتياطي للنفط في العالم في العراق، فاستهان بالتصويت العالمي واجتاح العراق. لم يرم المخطوطات في دجلة لكنه رعى حرائقها. فشاهدنا اجتياح المؤسسات العلمية الجامعية، وحرق مكتبة الأوقاف التي تخزن مخطوطات نادرة، وحرق دار الحكمة العباسي الذي أصدر كتبا عن تاريخ العراق وحضارة مابين النهرين واستضاف مؤتمرات عربية، ونهب المكتبة الوطنية الثمينة. وسيطلع القارئ في هذا العدد من الآداب الأجنبية على تقارير عن نهب المتاحف العراقية.

يؤكد هذا أن الهوية الوطنية تقع وسط الصراع العالمي بين حقوق الشعوب في الهوية الثقافية، واجتياح العولمة. ولنا، تقع وسط الصراع العربي الصهيوني. فالصهيونية التي غرست دولة حملت لها مستوطنين غرباء من أنحاء العالم، جهدت بالتنقيب عن الآثار كي تسندهم بعمق تاريخي. واخترعت أساطير تبرر احتلال فلسطين

التاريخـــية لتدعي عمقا تاريخيا. مع أن يهود الخزر غرباء، على كل حال، عن المنطقة كلها.

الـــتقى مشـــروع المحافظيـــن الجدد الصهيونيين، الذين يحكمون الإدارة الأمريكـــية، للسيادة على العالم باحتلال نفط الخليج، بالمشروع الصهيوني للسيادة على المنطقة. فقفز المشروع الصهيوني للسيادة على الأرض العربـــية مـــن النيل إلى الفرات، إلى مرحلة خطرة باحتلال العـــراق. في هذه الخريطة الجديدة التي تصاغ للعالم ولمنطقتنا، نقرأ نهـــب المـــتاحف والمواقـــع الأثرية العراقية، واكتشاف القطع الأثرية المهـــربة إلـــى إســـرائيل. وسنلاحظ في تقرير كتبه الدكتور فاروق اســـماعيل لهذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية، غياب الباحثين العرب عـــن مؤتمر لندن للدراسات الآشورية، وحضور الإسرائيليين. ويجب أن نـــتوقع، إذا اســـتمر استســـلام العرب للغزو الأمريكي، أن تؤول حضارات المنطقة تأويلا تلموديا، وأن تزوّر الحقائق التاريخية. وينبهنا هـــذا إلى ضرورة مشروع واسع مؤسس على رؤية استراتيجية، يعد خبراء في لغات حضاراتنا القديمة ومؤسسات تنشر تراثها، وبرنامجا يربـــي تلامـــيذنا على فهم الاستمرار الحضاري وعلى معرفة الآثار وزيارتهـــا. وســـيؤهل ذلـــك، في السياق، لتربية فنية وفكرية تستلهم الـــتراث الوطنـــي العريق وتفهم من شواهد الحضارة أن التجديد كان دائمـــا موجودا كضرورة روحية وواقعية، فردية وجماعية، لكنه كان مستمدا من الصلة الحية بالإرث الحضاري الوطني لامن غزو طارئ يفرض رؤيته. كما سيساهم ذلك، لو تحقق، في فهم مدى من العلاقات بين الحضارات القديمة.

كـــنا نتمـــنى أن يكون هذا العدد عن حضارة مابين النهرين أكثر غـــنى. وأن يساهم فيه أثريون عراقيون. كما تمنينا أن تكون فيه أكثر من مادة عن العمارة العباسية. لكن مثل هذا المشروع يستلزم مختصين وتحضـــيرا طويلا، وذلك لم يتوفر لدينا. إلى هذا أردنا أن يظهر عدد الآداب الأجنبـــية المكـــرس لحضــــارة مابين النهرين في وقته. لكننا نفـــترض أن ترجمة التراث القديم تقع في مشروع ترجمة الآداب إلى اللغـــة العربـــية. ونتمـــنى أن ننشر تلك الآثار الحضارية في أعدادنا المقبلة.

□□□

إلى القراء الكرام

على من يجد في نفسه الكفاءة والقدرة على ترجمة مختارات من الأدب العربي إلى اللغة الفرنسية أو اللغة الإنكليزية مراجعة هيئة تحرير مجلة الآداب العربية/ الآنسة ميرنا أوغلانيان/ لتكليفه بترجمة المواد المعدة للنشر في المجلة بإصدارها الفرنسي أو الإنكليزي.

تعميم:

يبدأ محاسب صندوق التقاعد بتسليم شيكات المتقاعدين عن عام 2004 بدءاً من صباح يوم السبت 2003/12/20 وفق الآتي:

أيام السبت من الثامنة صباحاً حتى الثانية ظهراً

أيام الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء من الواحدة ظهراً حتى الرابعة من بعد الظهر.

يرجى من السادة المتقاعدين التقيد بالضوابط الآتية التي لا يتم تسليم الشيكات دون الأخذ بها:

1- يتم تسليم الشيكات حصراً للعضو المستفيد أو وكيله القانوني.

2- تقديم إخراج قيد حديث للعضو المستفيد مع البطاقة الشخصية.

3- تقديم إيصال تسديد رسوم وغيات عن عام 2003 تسدد أصولاً لأمين صندوق الاتحاد السيد سلام مراد.

رئيس مجلس إدارة

صندوق تقاعد الكتاب العرب

د. علي عقلة عرسان

نـداء

من الأمين العام للأدباء والكتاب العرب
حول
نـهب التراث الحضاري في العراق وتدميره

نتوجه بندائنا هذا باسم الأدباء والكتاب العرب في الوطن العربي وباسم من يعنيهم التراث الثقافي والحضاري للعرب والعالم، إلى المدير العام لليونيسكو، والمدير العام لمنظمة التربية والثقافة والعلوم في منظمة دول العالم الإسلامي "أسيسكو"، والمدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" ألكسو"، بحكم مواقعهم ومسؤولياتهم للقيام بواجب مؤسساتهم في حماية آثار العراق وما تبقى في المتاحف منها بالسرعة الكلية، والعمل على استعادة ما تمت سرقته من تلك الآثار، وإدانة هذه الجريمة النكراء بشدة، وتحميل المحتلين الأميركيين والبريطانيين المسؤولية عن إباحة آثار العراق وسرقتها وتدميرها بوصفهم مسؤولين عن حمايتها حسب القوانين والاتفاقيات الدولية وعلى رأسها اتفاقيات جنيف. ورفع الدعوى لمحاكمة المسؤولين منهم أمام المحاكم الدولية عن جرائم تدمير الإرث الحضاري العظيم في العراق لاسيما في متحفي بغداد والموصل.

كما نطالبهم برصد ومتابعة انتقال الآثار العراقية وتهريبها وبيعها في أي مكان في العالم للعمل على إعادتها للعراق.

وندين القوة الغازية (الأميركية والبريطانية) المحتلة لعدوانها على العـراق ومـا تسـبب ويتسبب به ذلك العدوان من كوارث ودمار وجرائم وفوضـى عارمـة عمـت العـراق كله وألحقت الكوارث بشعبه، ونطالبها بالانسحاب الفوري، ونحملها المسؤولية التامة عن تدمير المؤسسات العراقية والجامعات والمشافي والمتاحف والمكتبات العامة والمراكز الثقافية.

ونؤكـد على مسؤولية كل من يعنيه التراث الحضاري أو يملكه، وعلـى حـق كل من يعنيه الشأن الإنساني ويؤلمه، في محاكمة المسؤولين الأميركييـن والبريطانيين أمام المحاكم الدولية المعنية عن الجرائم المرتكبة بحق العراق وشعبه وحضارته. ونناشد المثقفين والمعنيين والمهتمين بالشأن الإنسـاني والحضاري والثقافي في جميع أنحاء العالم بالعمل على إدانة هذه الجـريمة وإيقافهـا، والوقـوف إلـى جانب العراق في محنته، والمطالبة بانسحاب القوة الغازية من أراضيه فوراً.

دمشق في 2003/4/13

الأمين العام

للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

د. علي عقلة عرسان

□□□

دلالات العدوان
على
الجذور الحضارية للعراق

■ بقلم: د.خالد الناشف *■

العدوان، الذي وقع على المؤسسات الحضارية في العراق بعيد سقوط بغداد في التاسع من نيسان، عدوان ليس له مثيل في التاريخ الحديث. ويبدو الأمر وكأنه محاولة لإلغاء الهوية القومية، التي عمل العراق على تعميقها في العقود الأخيرة كجزء من عملية بناء الدولة الحديثة. فقد أجمع الكثيرون على أن هذا العدوان كان مقصوداً مما يطرح تساؤلات حول دوافعه، التي ربما كانت تكمن في المخزون الحضاري لكل من المعتدي والمعتدى عليه. فهل في حضارة العراق ما يشكل عناصر قوة استدعت مجابهتها اليوم على هذا النحو من التدمير المنظم. وكيف يمكن أن يؤثر الماضي على سياسة انتهت بعدوان واحتلال. وكيف يمكن ربط ماضي العراق بحاضره في محاولة لتفهم ما حصل.

قديماً، كان عراق وادي الرافدين يشكل وحدة حضارية بين شماله بمركزه في نينوى، الموصل حالياً، وأقصى جنوبه بمدنه الكبرى، كاريدو (تل أبو شهرين)، وأوروك (تلول الورك'ء)، وأور (تل المقير). لم تخل العلاقة بين الشمال والجنوب من الصراع، وإن تغلب عليها بشكل عام الانسجام الحضاري المعتمد على المصالح المتبادلة. بدأت مسيرة الحضارة العراقية من الشمال، الذي انطلقت منه

---

* مختص في المسماريات وحضارة ما بين النهرين.

أولى المجتمعات الزراعية. فبين أطراف البادية وسفوح جبال الشمال العراقي ظهرت في الألف السادس قرى زراعية متطورة عرفت أولى البيوت البشرية المنظمة وفائض الإنتاج والملكية الخاصة، كما في تل حسونة، إلى الغرب من الموصل.

واللافت للنظر أن هذه القرى تركزت في محيط نينوى نفسها، وكانت المسافات بين القرية والأخرى قصيرة، لا تتعدى أحياناً بضعة كيلومترات، مما يشير إلى وجود روابط بين هذه القرى، ويدفع إلى الاعتقاد بأن نينوى كانت تمثل المركز الإداري لهذا التجمع.

امتدت هذه الإنجازات، الحضارية باتجاه الجنوب، وفي بيئة أقل ملاءمة للزراعة الموسمية، كما في تل الصوان الواقع في محيط مدينة سامراء العباسية، وهو ما شكل حافزاً لمد الأقنية من نهر دجلة. ويمكن تسجيله كبدايات الزراعة المروية، التي ستصبح فيما بعد السمة المميزة للمدن السومرية. وفي نهاية الألف الخامس انبثق عن مجتمعي حسونة وسامراء حضارة جديدة طورت أساليب صهر النحاس، وقد وصل إنجازا الري وصهر النحاس إلى جنوب العراق، أي إلى ما أصبح يعرف فيما بعد باسم سومر، عبر مناطق إلى الجنوب الشرقي كمندلي والأهواز.

يمكن القول، إذن، إن التطور الحضاري للعراق القديم، الذي انطلق من الشمال قد استقر في أقصى الجنوب في الألف الرابع في فترة سبقت مباشرة ظهور المراكز المدنية في الجنوب. أما في الفترة الحاسمة لتطور المدن في نهاية الألف الرابع، فقد بدأت تتبلور ملامح هيمنة اقتصادية حضارية للجنوب على مناطق شاسعة ضمت الشمال وتخطت حوض وادي الرافدين. هذه الهيمنة عكست أيضاً حاجة سومر إلى المعادن، كالنحاس، الذي كان يوجد في شمال سوريا أو عُمان، والقصدير، الذي كان يوجد في أفغانستان. ومن خليط هذين المعدنين يتكون البرونز، الذي تصنع منه الأسلحة والأدوات، وبعض البضائع الاستهلاكية، كالرأس البرونزي الشهير لملك أكدة، وهي قطعة ذكر أنها تعرضت للنهب من المتحف العراقي.

ورغم عدم وجود أدلة على استيراد القصدير في وثائق أوروك، وهي أقدم

الوثـائق الكتابية فإن الكثير من النصوص الآشورية من حوالي الألف الثاني، التي عثر عليها في الأناضول، تؤكد أن طريق القصدير كان يمر عبر أشور في الشمال ليصدر إلى الدويلات الأناضولية، التي كانت هي أيضاً بحاجة إلى هذا المعدن لعدم توفره في مناطقها.

تشـير وثائق أوروك إلى استيراد النحاس من دلمون، وهو الاسم الذي كان سـكان وادي الرافدين يطلقونه على منطقة الخليج العربي ككل، والإشارة هنا هي لمناجم النحاس في عُمان.

أمـا الحاجة إلى الأحجار الكريمة، كاللازورد، فتعكسها بشكل واضح ملحمة "إنمـيركار وسـيد أراتـا" السـومرية، التي تصف الجهود الحثيثة لمدينة أوروك للحصول على هذه المواد من مملكة أراتا، التي تقع إلى الشرق، في إيران أو ربما أبعد في أفغانستان. كانت العلاقات الاقتصادية وراء التأثيرات الحضارية الرافدية، التي نشهدها بشكل واضح في بلاد الشام، إيران، وشرق الجزيرة العربية. والأمثلة على التأثيرات الحضارية السومرية كثيرة، أحدها قريب من مكان اجتماعنا اليوم، فـي إيـبلا، التي استخدمت أيضاً الخط المسماري في الكتابة، كما استخدمت في التعبير السومرية والأكدية، كلغتي الحضارة المهيمنة.

فـي إشارة إلى بداية التاريخ والمؤسسات الاجتماعية بعد انحسار الطوفان، كمـا جـاء في المرويات السومرية، أصبحت أوروك في الأيديولوجية السومرية، المديـنة الأولــى، التي أنزلت الآلهة فيها المُلك، وذلك مع نهاية الألف الرابع. إن القول بأن الآلهة هي التي أنزلت الملك كتبرير لظهور الملكية كنظام سياسي، إلى جانـب المعـبد كقوة اقتصادية، يعبر عن وعي خاص بالقوة الاقتصادية الخارقة، التي كانت تتمتع بها أوروك، المركز الرئيسي لبلاد سومر.

ويعكـس ظهـور الكتابة لأول مرة في التاريخ البشري الحاجة إلى تسجيل الأنشـطة الاقتصـادية المتنامـية فـي تلك المدينة وخاصة بداية إنتاج البضائع الاسـتهلاكية على مستوى واسع. ويبقى السؤال كيف تمكنت الحضارة السومرية، وفيما بعد الأكدية، من إثبات نفسها وقيمها في مناطق نفوذها، بالرغم من اعتمادها على المواد الخام من تلك المناطق.

لقـد تحققت الهيمنة السياسية المباشرة في الفترة الأكدية اللاحقة انطلاقاً من

أكدة، العاصمة التي تقع في وسط العراق. وهنا يبرز جانب جيوسياسي يعكس قوة العراق القديم في الألف الثالث تمثل بتحقيق الوحدة بين الجنوب والوسط، وهو ما جاء نتيجة جهد سياسي مقصود قام به شاروكين، مؤسس الدولة الأكدية. ففي خطوة ثورية، هي الأولى من نوعها في تاريخ الوعي السياسي، عمل شاروكين على توحيد الجنوب والوسط حالماً حقق سيطرته على أوروك. ولم يأت هذا التوحيد على حساب الإرث السومري، وهو ما يستشف من تعيين ابنته إنخيدو أنا ككاهنة في معبد ننا في أور، والكاهنة نفسها كانت تؤلف الأناشيد لإعلاء مقام الإلهة إنانا، إلهة أوروك، ولمساواتها بعشتار، الإلهة الأكدية، والإلهة الشخصية لشاروكين.. وعلى هذا النحو وفي خطوة سياسية فريدة من نوعها استطاع شاروكين استيعاب الحضارة السومرية. والرأس البرونزي، الذي ذكرته سابقاً، يُعتقد أنه يمثل نارام سين، حفيد شاروكين، وهو الملك، الذي ألّه نفسه في أول خطوة تأليه لملك تحصل في المنطقة.

سأناقش الآن موضوع تدمير المؤسسات الحضارية، الذي شمل المتاحف، المكتبات، والمراكز الثقافية، لا يوجد تفسير واحد للإحاطة بما حصل، خاصة وأن طبيعة هذا التدمير لم تقتصر على النهب والسرقة، ولم تكن مجرد رد فعل عفوي كما أراد الرئيس الأمريكي جورج بوش يوحي لنا. فقد رافق عملية النهب تخريب متعمد انتهى بالحرق، كما حصل في المكتبة الوطنية ومكتبة الأوقاف، أو تهشيم القطع الأثرية التي لم يتمكن اللصوص من حملها في المتحف العراقي. وحصل هذا كله تحت أعين الجنود الأمريكيين الذين لم يحركوا ساكناً لإيقاف المعتدين. ولهذا يسود الاعتقاد بأن عملية التدمير كانت مدبرة وأنها نفذت بعد تخطيط مسبق ومقصود.

يمكن النظر إلى التدمير، الذي حصل في العراق كخطوة تسبق ما سمي "بإعادة الإعمار"، أي أن هذه العملية لا بد أن يسبقها تخريب منظم، حتى يصبح للعملية جدوى اقتصادية أكبر، وخاصة بالنسبة للشركات التي ستتولى مشاريع إعادة البناء، وبالفعل حصلت شركات أمريكية على عقود للقيام بهذه المهمة. وهذا الأمر تمثل باستهداف مرفقات محددة كمؤسسات الاتصالات والكهرباء وشبكات المياه وبعض المنشآت النفطية وغيرها. وثمة حالات شبيهة معروفة حصلت في الماضي، كالتدمير الذي طال ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية. غير أن هذا

التفسير لا يوضح العدوان على المؤسسات الثقافية، كالمتاحف والمكتبات، ونهبها، ثـم تدميرها وإحراقها، وهي خسارة لا يمكن تعويضها على الإطلاق. لهذا ينبغي البحث عن تفسيرات أخرى بعيداً عن الدوافع الاقتصادية.

ينبغـي هـنا التذكير بجانبين، الأول، جيوسياسي، والثاني، حضاري. وأبدأ بالجانـب الجيوسياسي. أشرت من قبل إلى الهيمنة السياسية المباشرة، التي تحققت فـي الفـترة الأكدية انطلاقاً من أكدة في الوسط، واستمرت هذه الهيمنة في الدول اللاحقة لينتقل المركز شمالاً إلى بابل في الألفين الثاني والأول. وقد استمرت هذه الحركة حتى في فترات متأخرة، أي الانتقال إلى مركز جديد تمثل بالمدائن (اليوم سـلمان باك)، وهي تجمع لعواصم السلوقيين، الفرثيين، والساسانيين، وأخيراً في بغـداد، عاصـمة الدولـة العباسية. وهكذا، يلاحظ نمط للحركة باتجاه الوسط في تأسـيس عواصـم السلالات المتعاقبة، ابتداء بالمدن الكبرى في أقصى الجنوب، ومـروراً بـأكدة، بابل، والمدائن، وانتهاءً ببغداد. واليوم، تشمل الخارطة الحديثة للعـراق، التـي جاءت نتيجة لتقسيمات سايكس بيكو، الجنوب، الشمال، والوسط بمركـز ثقله بغداد، وبشكل مطابق للوضعية الجيوسياسية في العالم القديم، وبشكل خاص في فترة الهيمنة الأكدية في الألف الثالث.

أما بالنسبة للجانب الحضاري، فقد كان الوضع في وادي الرافدين في الألف الثالـث يشـبه فـي بنيته واقع الغرب اليوم، فقد كان يعتمد على المواد الخام من الخـارج ويقـوم بتصـدير مـا يصنعه منها، وهو ما يشابه الوضع اليوم بالنسبة لتصـدير البضـائع الاستهلاكية الغربية إلى دول العالم الثالث بكل ما تحمله من رمـزية الهيمـنة، كالكوكا كولا وغيرها. إن علماء الآثار ما زالوا يعثرون على زبـادي أوروك الفخارية الشهيرة في مواقع تبعد آلاف الكيلو مترات عن المدينة الأم، والتي ربما كانت تستخدم لتعبئة بضاعة مميزة من إنتاج أوروك أو مقلدة لها، تماماً كزجاجات الكوكا كولا، الفارغة، التي تملأ مكبات النفايات في جميع أصقاع العالم.

المفارقـة فـي الموضـوع أن حضارة وادي الرافدين لم تكن معروفة قبل منتصـف القـرن التاسـع عشر، باستثناء ما ذكر في التوراة من أسماء وأحداث كالسـبي البابلـي، والإشارات إلى بابل في رؤيا يوحنا اللاهوتي، وغير ذلك من

معلومات مقتضبة في المؤلفات اليونانية القديمة. فحتى ذلك التاريخ، كان يعتقد أن بـرج بابل من ابتكار الخيال. غير أن التنقيبات الأثرية والمعلومات من المصادر الكتابية أوضحت أن هذا البرج موجود فعلاً، لا بل يمكن معاينة المكان الذي بنيت أساساته فيه، أما حجارته فلم تختف كلية، بل أعيد استخدامها في المدرج اليوناني، لـيس بعـيداً عن موقع البرج، والذي قام ببنائه الإسكندر المقدوني، هذا المدرج، الـذي بقـي محفوظاً أكثر من ألفي عام، ليتعرض للتخريب قبل أقل من شهرين نتيجة العدوان الأخير من بين عدد من المنشآت في موقع بابل الأثري.

جـاءت معلوماتـنا عن حضارة وادي الرافدين نتيجة استكشافات علمية، إن كان من خلال التنقيبات أو من تقييم الألواح أو الرقم الطينية، التي عثر على مئات الآلاف مـنها، وأسفرت دراستها عن معرفتنا بمجتمع وادي الرافدين. غير أن هذه المعرفة كانت نتاج الدراسات الغربية، ولم يكن للعراقيين أو العرب إلا دور ضئيل فـي الضـلوع بها. ربطت حضارة وادي الرافدين في هذه الدراسات بالحضارة الغربية، ولا شك أن جزءاً من هذا الربط جاء بتأثير الأيديولوجية المسيحية، التي اسـتوعبت أيضـاً تـراث العهد القديم، أي عملياً التوراة، وبالتالي كثيراً ما تقيم حضارة وادي الرافدين من هذا المنظور، وبالأخص فيما يخص الجوانب الفكرية، مـن بـاب المقارنـة وأحـياناً التفضيل، كالتوحيد أمام تعدد الآلهة، ومن خلال التفسيرات اللغوية باستخدام العبرية القديمة في الدرجة الأولى، وإلى حد أقل بكثير العربية الفصحى. وكثيراً ما يخرج المرء بانطباع أن الصورة المركبة الناتجة هي مـا يريده الغرب لحضارة وادي الرافدين أن تكون، في حين أنه لا تجري قط أي مقارنات مع التراث الشعبي العراقي أو اللهجة المحكية في العراق.

ولكـن يبقى السؤال الكبير هو كيف يمكن للحضارة الغربية أن تقوم بتدمير أحـد مناهلها، كما تدعي هي؟ ومن باب التبسيط يمكن القول إن الحضارة الغربية تحمـل فـي ثناياها قوة مدمرة لا تتوانى عن تدمير الذات. غير أنه لا يمكن لهذه المقولة من أن تخفي الحقيقة البسيطة، وهي أن حضارة وادي الرافدين قد ظهرت فـي العراق. وكذلك الأمر بالنسبة للحضارة، التي تمثلها التوراة، التي ظهرت في فلسـطين. وفـي الحالتين، لا يمكن للجذور الحضارية، من حيث المبدأ، أن تتمثل الـيوم في شعوب أو جماعات غريبة عن المنطقة. وفي هذا السياق تجدر المقارنة بيـن مـا فعله غزاة العراق وغزاة فلسطين. فلعل التدمير، الذي طال المؤسسات

الحضارية في العراق، ينطوي على نزعة أمريكية تتمثل بإلغاء التاريخ، أو "تخفيفه"، كما عبر عن ذلك الشاعر اللبناني شوقي بزيع. وبالمقابل، يعمل الغزو الصهيوني على استعادة التاريخ، وربطه بالغزاة الغرباء من جهة، ومن جهة أخرى على إلغاء الشعب الفلسطيني، الذي يمتلك حضارياً الحق الفعلي بهذا التاريخ.

إن المقابلة بين سومر وأكادة، أو العراق قديماً، وأمريكا اليوم، يدفع إلى التساؤل فيما إذا كان العدوان على الجذور الحضارية للعراق هو مجابهة لما كان يمثله العراق، جيوسياسياً، من قوة حضارية في الماضي، أو، إن عكس ذلك على المستقبل، ما يمكن أن يصبح عليه العراق من قوة إقليمية تهدد مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، وخاصة أمن حليفتها إسرائيل. وهناك ما يشير إلى أنه كان للعراق بالذات تطلعات قومية وحدوية لمناهضة الكيان الصهيوني، حتى قبل تأسيسه عام 1948، كما أقر بذلك بن غوريون نفسه. فقد فسر الأخير مبادرة لنوري السعيد لإنهاء الإضراب العام سنة 1936 بأنها محاولة لاستغلال الأوضاع و"لخلق أفق أوسع في المستقبل للتدخل العراقي في الشؤون الفلسطينية ولدعم أفكاره نحو الوحدة العربية".

إذن، يبدو أن القوة الحضارية، التي كان العراق يمثلها في الماضي، وما يمكن أن يمثله في المستقبل، هي ما ينبغي القضاء عليه اليوم، وخاصة أي توجه نحو سيطرة إقليمية قد تشكل تهديداً للكيان الصهيوني. ولا شك أن وعي الشعب العراقي بتاريخه الحضاري يزداد عمقاً مع وجود مخلفات هذا التاريخ الحضاري في متاحفه وبالقرب منه. غير أنه لا يمكن لتخريب القطع، التي تمثل الإنجازات الحضارية القديمة أو محاولة إخفاءها بسرقتها، أن يقضي على الإنسان العراقي، الذي تجسدت فيه هو الجذور الحضارية للعراق قبل تجسدها في مقتنيات المتاحف. والمهمة، التي تقع على عاتق العراقي اليوم، هي في العودة إلى نفسه.. والبداية تتمثل بدحر الاحتلال.

□□

الحاكم
وفقير نيبور

حكاية بابلية من الألف الثاني ق.م

■ بقلم: د.فاروق اسماعيل* ■

استقر الاستيطان البشري في مناطق الشرق القديم منذ نحو خمسة آلاف سنة، ونشأت فيها حضارات مزهرة اتصفت بتكاملها وتنوعها وتواصلها؛ فقدمت للبشرية إبداعات خلاقة ما زالت موضع اهتمام الأجيال وفخرهم، بعد أن كشف عنها الأثريون ودرسوها وقوموها وزينوا بها المتاحف.

وكان الأدب من أبرز إبداعات الإنسان في الشرق القديم، سجل من خلاله مشاعره وقيمه، وصوّر واقعه وتطلعاته، ومجدّ المآثر البطولية وغيرها. وقد تنوعت موضوعاته وأشكاله الفنية إلى حد كبير، وبدرجة لا تقل عن أدب العصور اللاحقة.

ولقي الكتّاب آنذاك أهمية بارزة في المجتمع، وكان معظمهم من الكهان المتميزين المولعين بالتراث الشعبي الشفهي وبصياغة الأفكار الفلسفية كمسائل الخلق وأسرار الحياة والموت وطبائع البشر؛ كما اهتموا بنظم مقطوعات غنائية ترتل في المعابد. ولذلك نجد أن السومريين عدوا فن الكتابة واحداً من المميزات والمقومات الحضارية؛ كما يتبين من جدول صاغوه لهذا الغرض، وضمنوه فن

---

* جامعة حلب ، مختص في اللغات والآداب السورية القديمة

الكتابة مع مئة مهنة ووظيفة حضارية.

يمتد تاريخ الأدب في عصور ما قبل الميلاد طويلاً، وقد مر بمراحل متعددة متمايزة في بعض المظاهر الفكرية والفنية. وأبدعت الأعمال الأدبية في معظم مناطق الشرق القديم، وتميزت من بينها بلاد الرافدين. وشملت الأساطير التي تناولت مسائل خلق الكون والكائنات الحية وعالم الدنيا الآخرة وأسرار ظواهر الطبيعة وعلاقات الآلهة المتعددة التي كانوا يعبدونها، وكذلك الملاحم التي ركزت على البطولات الفردية والصراع الإنساني من أجل الخير والبقاء. ومنها أيضاً قصائد في المديح الإلهي، وفي الندب والرثاء، ومناظرات وحواريات، وقصائد غنائية في العشق والغرام، وأدعية وصلوات، ورسائل أدبية، وأعمال نقدية ساخرة.

لقد شارك في العملية الإبداعية معظم شعوب المنطقة، وطرقوا الموضوعات نفسها أحياناً، وتبادلوا التأثير في الأفكار والأسلوب الفني، وأضافوا وعدّلوا. ويلاحظ أن شعوباً ركزت على موضوعات معينة أكثر من غيرها، وتميزت فيها، مثل رثاء المدن لدى السومريين، وأدب الدعاوة السياسية لدى الأكديين، وعمق التحليل الفكري الرمزي لدى الحوريين، وتشخيص الطبيعة ومظاهرها والتعلق الزائد بها لدى الأوغاريتيين(1).

ويشكل النص الذي نعرضه واحداً من تلك النصوص الإبداعية المثيرة، وفي تصوري أنه يمتلك مقومات عمل درامي ممتع.

إنه يمثل حكاية بابلية ساخرة تعود صياغتها الكتابية إلى أواخر الألف الثاني ق. م، ويبدو أنها تعتمد على حكاية كانت شائعة في الموروث الشعبي على نطاق واسع في بلاد الرافدين قبل ذلك بقرون. وصلتنا الحكاية مدونة على رقم طينية، بالكتابة المسمارية واللغة الأكدية (الآشورية، البابلية)، وفي نسخ متعددة من ثلاثة مواقع، هي: خوزيرينا (حالياً سلطان تبه في منطقة ماردين بتركيا)، نينوى (جوار الموصل)، نيبور (حالياً نفّر، شرقي الحلة). ولعل تباعد هذه المواقع دليل على سعة انتشارها(2).

تعبر الحكاية عن أحلام المنتمين إلى الطبقات الفقيرة من سكان بلاد الرافدين، وأملهم في معاقبة حكامهم غير المبالين بفقرهم وأوضاعهم السيئة؛ ولا سيما حكام المقاطعات والمدن. وهي غنية بصور مستقاة من الواقع، وبإسقاطات

ترك تقديرها وتحديدها للمستمع أو القارئ، ولعلها كانت مفهومة في أذهان الشعب آنذاك.

لقد صيغت الحكاية صياغة فنية سلسة، وبناها كاتبها المجهول على مدخل وأربعة مقاطع رئيسية، على النحو الآتي:

1-مدخل تم فيه تحديد المكان والزمان، والتعريف بالفقير المدعو جيميل نينورتا وأحواله البائسة (السطور 1-10).

2-محاولة التقرب من حاكم المدينة أملاً في عطفه عليه ونجاته من الفقر المدقع، وذلك بتقديم هدية له، ولكن الحاكم عدّها تجاوزاً وطرده. فقرر الفقير الانتقام ورد الإهانة بثلاث (السطور 11-69).

3-الانتقام الأول (السطور 70-114)

4-الانتقام الثاني (السطور 115-140).

5-الانتقام الثالث (السطور 141-161).

وجدير بالذكر أنه لوحظ وجود مشابهات لهذه الحكاية في الأعمال الفولكلورية لكثير من الشعوب، وقد ذكر باحثون مشابهات لها -بشكل أو بآخر- في الموروث الشعبي الأوربي (الهنغاري، الروماني، الكريتي، الصقلي، الفرنسي، الألماني...)(3) ولا يخفى أنها تشبه في أسلوبها حكايات من "ألف ليلة وليلة".

نشرها أول مرة الباحث جورني O. R. Gurney في حولية الدراسات الأناضولية، المجلد السادس (1956). وفيما يأتي نعرض ترجمة كاملة لها عن لغتها الأم (الأكدية) مع الاستعانة بترجمة جورني وفوستر B. Foster الإنكليزيتين(4). وقد حافظنا على ترتيبها وفق الأصل، وأضفنا بين قوسين كلمات تفيد في التوضيح وربط السياق.

كان هناك -في زمن مضى، في مدينة نيبور- رجل فقير ومحتاج.

كان يدعى جيميل نينورتا، رجل بائس.

كان يسكن في مدينته نيبور، ويعيش في فقر مدقع.

لم تكن لديه فضة كما يليق بقومه،

لم يكن لديه ذهب كما يليق بالبشر،

مخزنه يحتاج إلى حبوب نقية،
بطنه يحترق، يتشوق إلى الخبز،
وجهه بائس، يتشوق إلى لحم، وشراب لذيذ،
يشتهي كل يوم وجبة طعام، ولكنه يخلد إلى النوم جائعاً،
يرتدي ثوباً واحداً لا يمتلك غيره.

••

(ذات يوم) تشاور مع قلبه البائس، (وقرر:)
"سأخلع ثوبي الذي لا أمتلك غيره، (وأبيعه)
سأشتري خروفاً في سوق مدينتي نيبور"
(وفعلاً) خلع ثوبه الذي لا يمتلك غيره،
واشترى عنزة عمرها ثلاث سنوات من سوق مدينته نيبور.
تشاور مع قلبه البائس، (وحدثته نفسه:)
ماذا لو ذبحت العنزة في فناء داري؟
لا لن تكون وجبة طعام كاملة؛ حيث لا توجد الجعة (البيرة)،
وأصدقائي في محيط جواري سيسمعون بذلك وينزعجون،
أهلي وأقاربي سيغضبون،
لذا دعني أمسك بالعنزة، وأخذها إلى بيت حاكم المدينة،
سأصنع بذلك عملاً جيداً ولطيفاً لمعدته ومزاجه.
سحب جيميل نينورتا عنزته من الرقبة،
انطلق نحو بوابة قصر حاكم مدينة نيبور.
قال لحارس البوابة توكولتي إنليل الكلمات الآتية:
قل للحاكم إني أريد الدخول لأراه.
قال الحارس لسيده:

سيدي! مواطن من نيبور ينتظر أمام بوابة قصرك،
قد أحضر لك عنزة هدية.
غضب الحاكم على توكولتي إنليل، وقال:
لماذا يظل مواطن من نيبور ينتظر أمام البوابة؟!
الحارس.......... إلى..........،
دخل جيميل نينورتا إلى الحاكم مبتهجاً.
عندما صار جيميل نينورتا أمام الحاكم،
حمل عنزته من الرقبة بيده اليسرى،
وبيده اليمنى صافح الحاكم، وقال:
عسى الإله إنليل ومدينة نيبور أن يباركا الحاكم.
عسى الإلهان نينورتا ونوسكو أن يوفقاه توفيقاً عظيماً.
قال الحاكم كلمات للمواطن:
ما هي مشكلتك حتى تحضر لي هدية؟
روى جيميل نينورتا حكاية زيارته (وهدفها) لحاكم نيبور:
كل يوم أشتهي وجبة طعام، ولكني أخلد إلى النوم جائعاً،
خلعت ثوبي الذي لا أمتلك غيره،
واشتريت عنزة عمرها ثلاث سنوات من سوق مدينتي نيبور.
قلت لنفسي معبراً عن قلبي البائس:
ماذا لو ذبحت العنزة في فناء داري؟
لا لن تكون وجبة طعام كاملة، حيث لا توجد الجعة،
وأصدقائي في محيط جواري سيسمعون بذلك وينزعجون،
أهلي وأقاربي سيغضبون،
لذا دعني آخذ العنزة إلى بيت الحاكم.
هذا ما قلته من شدة بؤس قلبي

[ســتة ســطور مخرومة وغير واضحة القراءة. يبدو أنها تضمنت ما يدل على أن الحاكم أمر بذبح العنزة وإعداد وجبة طعام].

أعط مواطن نيبور عظماً وغضروفاً

أعطه جعة رديئة للشرب؛ من قارورتك.

اطرده، ارمه خارج البوابة.

أعطى مواطن نيبور عظماً وغضروفاً،

أعطاه جعة رديئة للشرب؛ من قارورته،

طرده، رماه خارج البوابة.

عندما صار جيميل نينورتا خارج البوابة،

قال للحارس حامي البوابة كلمات:

بهجة الآلهة لسيدك! قل له:

ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،

ولكني سأجعلك تدفع ثمنها ثلاث مرات!

وعندما سمع الحاكم ذلك، ظل يضحك طوال النهار.

***

جلس جيميل نينورتا خارج قصر الملك،

رأى الأمير والوزراء يصدرون بأمر الملك قرارات عادلة،

استطاع جيميل نينورتا أن يمثل بين يدي الملك،

سجد أمامه وقدم فروض الطاعة، وقال:

أيها النبيل! يا أمير الشعب!

أيها الملك الذي تمنحه الروحُ المقدسة المجدَ!

دعهم يعطوني بأمرك عربة

أفعل بها ما أشاء يوماً واحداً،

سأدفع عن هذا اليوم الوحيد ماناً واحداً من الذهب الأحمر.

لم يسأله الملك: ما رغبتك
في أن تجري عَرَضاً طوال النهار في عربة؟
لقد أعطوه عربة جديدة لائقة بالرجل النبيل،
ودثروه بوشاح.............
ركب العربة الجديدة اللائقة بالرجل النبيل
بدأ جولة في...... دورانكي،
صاد جيميل نينورتا طائرين،
حبسهما في صندوق ختمه بختم،
وانطلق إلى بوابة حاكم نيبور
رآه الحاكم، خرج لاستقباله، وقال:
من أنت يا سيدي؟ لم جئت مسافراً في وقت متأخر من النهار؟
(أجاب) الملك، سيدك أرسلني لـ........
لقد جلبت الذهب لمعبد إكور، معبد الإله إنليل.
أمر الحاكم بذبح شاة طيبة لإعداد وجبة سخية له،
ولكنه في قرارة نفسه تمتم: يا إلهي! أنا متعب!
أما جيميل نينورتا فقد ظل طوال الليل مع الحاكم يقظاً.
من شدة التعب؛ غلب النوم الحاكم،
نهض جيميل نينورتا في أعماق الليل بهدوء،
فتح غطاء الصندوق، طار الطائران إلى السماء، (وصرخ:)
قم يا أيها الحاكم! لقد سُرق الذهب، لقد فُتح الصندوق!!
غطاء الصندوق مفتوح! لقد سرق الذهب!
مزق جيميل نينورتا ثيابه بألم مبرح،
هاجم الحاكمَ بعنف، جعله يتوسل الرحمة،
ثم أشبعه ضرباً من الرأس حتى أصابع القدمين،

حتى جعله يتوجع وينن.
(ركع) الحاكمُ أمام قدميه وهو يصرخ، ويتوسل (إلى جيميل نينورتا):
سيدي! لا تهلك مواطناً من نيبور،
لا تلطخ يديك بدم شخص مصون ومقدس لدى الإله إنليل.
(ثـم بعـد أن سـاد الهدوء) أعطوه مقابل هديته(2) مانا من الذهب الأحمر،
وأعطاه مقابل الثياب التي مزقها ثياباً أخرى.
عندما غادر جيميل نينورتا البوابة،
قال لتوكولتي إنليل حارس البوابة:
بهجة الآلهة لسيدك! قل له:
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
وها قد أهنتك مرة أيضاً، ولكن بقيت مرتان بعد.
عندما سمع الحاكم ذلك؛....... طوال النهار
•••

سار جيميل نينورتا إلى الحلاق،
جعله يقص كل شعره من الجانب الأيسر.
وملأ إناءً فخارياً بـ.....
وانطلق نحو بوابة حاكم نيبور.
قال للبواب، حارس البوابة:
أعلم سيدك أني أود الدخول لرؤيته.
من أنت حتى تراه؟
أنا طبيب من مدينة إيسين، يفحص.....
حيثما يكون مرض واعتلال.... في الجسم.......
وعندما مثل جيميل نينورتا أمام الحاكم،

كشف الحاكم له عن كدماته التي حدثت عندما أشبع جسمه ضرباً.
قال الحاكم لخدمه: هذا الطبيب ماهر!
(قال جيميل نينورتا:) سيدي! إن أدواتي تؤثر في الظلمة،
في مكان خاص، بعيداً عن الطريق.
قاده الحاكم إلى غرفة منعزلة،
حيث لا صديق أو رفيق يمكن أن ينجده.
ألقى (جيميل نينورتا) بالإناء على النار،
دق خمسة أوتاد في الأرض القاسية،
ربط رأس الحاكم ويديه وقدميه بها،
ثم أشبعه ضرباً من الرأس حتى أصابع القدمين،
حتى جعله يتوجع وينن.
وعندما غادر جيميل نينورتا البوابة
قال لتوكولتي إنليل حارس البوابة:
بهجة الآلهة لسيدك! قل له:
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
وها قد أهنتك مرتين، ولكن بقيت واحدة بعد.

***

كان جيميل نينورتا قلقاً ومتلهفاً، يرفع أذنيه ككلب،
ينظر إلى الناس حوله بحذر، يتفحص بدقة كل الناس.
وجد رجلاً يأمل في أن يعوض خسائره
أعطاه عنزة هدية، (وقال له:)
اذهب إلى بوابة حاكم نيبور، وابدأ بالصياح
حتى يجتمع كل الناس بأعداد ضخمة على صياحك،
(وناد:)أنا الطارق على بوابة الحاكم، أنا الرجل ذو العنزة!

أما جيميل نينورتا فقد اختبأ تحت جسر قريب ككلب.
خرج الحاكم على أثر صياح الرجل،
ونادى خارجاً كل ساكني داره؛ ذكوراً وإناثاً.
اندفعوا بقوة كلهم لمطاردة الرجل.
وبينما كانوا يطاردون الرجل كلهم.
تركوا الحاكم وحيداً في الخارج.
ظهر جيميل نينورتا فجأة من تحت الجسر، وقبض على الحاكم،
هاجم الحاكمَ بعنف، وجعله يتوسل الرحمة،
أشبعه ضرباً من الرأس حتى أصابع القدمين،
حتى جعله يتوجع ويئن. (وقال له:)
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
وها قد أهنتك ثلاث مرات.
ثم تركه، واختفى في ريف البلاد.
أما الحاكم فقد عاد إلى داره مترنحاً.

•••

توضيحات:

1) تعرف أطلال مدينة نيبور القديمة حالياً باسم قريب لفظاً هو نُفَّر (شرقي الحلة في جنوبي العراق). برزت أهمية المدينة في الألف الثالث ق. م كأهم مركز ديني للسومريين، وفيها المعبد الرئيسي لإلههم إنليل. وكانت فيها مدرسة كبرى لتعليم الكتابة آنذاك، وقد عثر في موقعها على بضعة آلاف من الرقم الطينية المسمارية.

2) جيميل نينورتا هو بطل الحكاية، واسمه بابلي يعني "جميل الإله نينورتا". ونينورتا هو ابن إنليل وإله الحرب، ومركز عبادته نيبور.

25) توكولتـــي إنليل حارس بوابة الحاكم، واسمه بابلي يعني "اتكالي هـــو علـــى الإله إنليل". وإنليل هو إله الهواء والعواصف وسيد ألواح القدر وزعيم مجمع الآلهة.

28) نوسكو هو إله النار لدى السومريين، وابن إنليل أيضاً.

59) حرفياً: أعطه جعة (بيرة) من الدرجة الثالثة.

78) مانـــا وحدة وزن قديمة، كانت تعادل نحو 480 غراماً، والاسم سومري الأصل.

84) دورانكي منطقة في ضواحي مدينة نيبور.

91) إكور هو -كما جاء في النص- اسم معبد الإله إنليل في نيبور. ومعنى الاسم هو "البيت الجبلي".

105-106) يشيران إلى قدسية نيبور. ومعلوم أن سكانها كانوا يعاملون معاملـــة خاصـــة فلا يكلفون بدفع الضرائب ولا بالمشاركة في الحروب.

116) يـــبدو أن حلاقـــة شـــعر جانب من الرأس كانت علامة مميزة للمشتغلين في المداواة.

122) تعرف أطلال مدينة إيسين حالياً باسم إيشان بحريات، وتقع على بعـــد نحو 30 كم جنوبي نفر. كانت إيسين مركزاً لعبادة الإلهة نيـــن إيســـينا "ســـيدة إيسين" أو الإلهة جولا، وهي إلهة الطب والشفاء.

❑

الهوامش:

1.للاســـتزادة؛ راجع كتابنا: إرا وملك كل الديار، ملحمة بابلية. دار جدل، حلب 1998. ص 13-45.

2.من الأعمال التي تعرضت للحكاية بإيجاز نذكر:

Roellig (Hrsg): Altorientalische Literaturen. Wiesbaden: (1978) akkadische literature. Rla/7 (1987) 64.

W. von Soden: Einfuehrung in die Altorientalistik. Darmstadt, WB (1985) 214 f.

H. Klengel (Hrsg): Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Akademie- Verlag Berlin (1989) 201f.

O.R. Gurney: the Tale of the Poor Man of Nippur and its Folktale Parallels An St. 22 (1972) 149 ff.

.O.R. Gurney: An St. 6 (1956) 145-162 An St 7 (1957) 135-136.

B. Foster: Befor the Muses. An Anthology of Akkadian Literature.

CDL Press, Bethesda-Maryland (1993) 829-834.

□□

البنية الاجتماعية والثقافية للمرأة

في ملحمة جلجامش

■ بقلم: د.وداد الجوراني ■

لمحة تاريخية

إنانـــا الســـومرية، عشتار البابلية والآشورية -وما ورد من أسماء بعض النساء، إن هي إلا أسماء آلهات يضطلعن ببعض المهام والحرف الموكلة إليهن. ولكـــن هـــذه الأســماء، مثل (شاله، نيسابا، كشتون أنا) تعطينا فكرة عن طبيعة الأعمال والحرف التي كانت المرأة تمتهنها آنذاك.

أمـــا المصــــدر الأكـــثر أهمية، فهو الشرائع العراقية القديمة، وبعض المواد القانونية (1)، التي اكتشفها المنقبون الآثاريون في أكثر من مدينة من مدن العراق القديـــم، بعضها يعود إلى العصر السومري، وبعضها للعصر البابلي، والآشوري أيضـــاً، ومـــن خلال هذه التشريعات يمكن تلمس بعض المعايير الاجتماعية التي تحدد هوية المرأة ومكانتها ودورها الحضاري، ونظرة المجتمع إليها ومن الأمور المســـلم بهـــا، أن الحاجـــة إلى القوانين وإلى الحرية والعدالة الاجتماعية لا تبرز ضـــرورتها إلا فـــي مجـــتمعات بلغـــت مرحلة لا بأس بها من نموها الاجتماعي والسياسي.

يقـــول د. بهنام أبو الصوف: "بعد انقضاء الألف الرابع ق. م، لما نمت قرى العـــراق الأولـــى، وصـــارت مدنـــاً، تعقدت فيها الحياة وتشابكت مصالح السكان والمعـــبد والكهنة، كان لا بد من تشريعات لحماية الفرد في المجتمع، وتنظيم أمور

الحـــياة فـــي دولـــة المديـــنة، فوضعت الإصلاحات الاجتماعية، وأعقبتها قوانين وشرائع، وفي جميعها كان للمرأة نصيب كبير (2).

والملفـــت فـــي هذه الشرائع والمواد القانونية، أنها أفرزت جزءاً كبيراً منها لمعالجة مشاكل المرأة في مجال الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث وتَبَنٍّ ومشـــاكل أســـرية خاصة إضافة إلى مواد قانونية أخرى تتناول مشاكل المرأة في مجـــالات مخـــتلفة كالتجارة، وممارسة الأعمال الحرة والشهادة وعلاقاتها العامة (وهـــناك العديـــد من النصوص التي تشير إلى أن النساء السومريات كن يمتلكن العبـــيد والإماء ومساحات من الأراضي، وعدداً من الماشية، وكميات من النقود، وكـــان للمـــرأة حـــق رفع الدعاوى، والظهور كشاهدة في المحاكم، والزوجة هي المسؤولة الوحيدة عن أطفالها القاصرين عند وفاة زوجها) (3) وقد شاركت نساء سومريات معروفات، أزواجهن الأمراء والحكام في الإشراف على شؤون الدولة، وتصريف الأمور، وجمع الضرائب، وشراء العبيد، وترؤس الاحتفالات الدينية.

وقد أخذت المرأة حيزاً في أقدم شريعتين عراقيتين اكتشفنا لحد الآن. الأولى "قانون لبت عشتار"، والثانية "قانون مملكة أشنونا"، أو ما يسمى "قوانين تل حرمل" وقد كتبتا قبل قرن أو قرنين من "شريعة حمورابي". وجدت في الأولى مواد تتعلق بالأحوال الشخصية (في الحقل الرابع من قانون لبت عشتار) (4).

أمـــا قـــانون مملكة أشنونا (*)، فقد تناولت محتوياته الأحوال الشخصية في المـــواد القانونـــية: السابعة عشرة والثامنة عشرة، ثم المواد القانونية من الرابعة والعشـــرين حتى المادة الخامسة والثلاثين، ثم المادتان الثامنة والثلاثون والتاسعة والخمسون علماً أن القانونين المذكورين يعودان إلى العصر السومري.

أما قانون "أورنمو" (2111 –2003 ق. م) (5)، فيحتوي بالأصل على أكثر مـــن (31) مادة قانونية، ولكن لم يصلنا منها سوى تسعٍ وعشرين مادة منها ثماني مواد تتعلق بموضوع الأحوال الشخصية، وهي المواد الحادية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة، والثانية والعشرون والثالثة والعشرون.

ولا يفوتنا ذكر أقدم إصلاحات اجتماعية وهي إصلاحات أوروكاجينا (أورو –أنبحينا) 2378 –2371 ق. م.

وقد اهتم المشرع حمورابي في شريعته الشهيرة بتنظيم الأحوال الاجتماعية،

إضافة إلى تنظيمات أخرى: إدارية وسياسية وعسكرية... الخ حيث استأثرت الأحوال المدنية بقسط وافر منها. وتحوي شريعة حمورابي (1792 – 1750 ق. م) الشهيرة على أكثر من ثلاثين مادة قانونية (المواد 127 –194) تعالج فيها شؤون الأسرة من زواج وطلاق وإرث وتَبَنٍّ الخ.

ولدينا نص مسماري من القرن الثامن عشر ق. م يشير إلى أن المرأة قد ساهمت في هيئة المحلفين أمام مجلس للقضاء في مدينة نفر.

ويجب أن نشير إلى مواد قانونية أخرى نسبت إلى العصر الآشوري حيث أصدر عدد من الملوك الآشوريين الذين حكموا ما بين (1362 –1074 ق. م) مراسيم. وهذه المراسيم تنظم العلاقة بين نساء القصر وبين الملك والأفراد المخصصين لخدمة هؤلاء النساء اللائى يتألفن ممن يلي: 1– أم الملك 2– زوجة الملك 3– نساء القصر.

وهناك العديد من رقم الطين لقوانين آشورية تتطرق في عدد من موادها إلى حياة المرأة الآشورية، وأخرى تعود للعصر البابلي الحديث "عصر نبوخذ نصر الثاني 605 –562 ق. م.

الشيء المهم في هذه الشرائع –وبخاصة في شرائع حمورابي –مما له صلة ببحثنا هو أن هذه الشرائع تعكس صورة المجتمع، وتطلعنا على حقيقة المركز الاجتماعي للمرأة –في غياب وثائق شافية عن موضوع المرأة –والذي له علاقة وثيقة بمركزها الاقتصادي والسياسي والديني. تشير شريعة حمورابي إلى وجود أصناف من النساء ينتمين إلى فئة معينة تفرض عليهن حقوقاً وواجبات لا يجوز الخروج عليها أو المساس بها، وإلا فإنهن يقعن تحت طائلة القانون وتسري عليهن أقسى العقوبات، وتتراوح بين دفع الغرامة، وبين الموت، وفيما يلي أصناف النساء التي ذكرت في شريعة حمورابي وهي:

1–إنتو (6) Entu

2–ناديتو (7) Naditu

3–قادشتو (8) Qadistu

4–كلماشيتو (9) Kulmasitu

5-شوكيتو Sugeitu (10)

6-سال زكروم sal-zikrum (11)

كانت المرأة باستقراء بعض الباحثين -مهمة إلى حد ما، بالقياس إلى الرجل، لكن الوثائق، رغم ذلك، أشارت إلى أهليتها الكاملة في الحقوق والممارسات التجارية في العصر البابلي القديم. فقد كانت تشتري وتبيع.. كما قدمت القروض، واستأجرت، وأجرت، وأهدت وكانت سمعتها محمية بموجب المادة 127 من شريعة حمورابي، من شطط الكلام والإهانات، أو هذا ما كانت تهدف إليه الشريعة: "إذا أشار رجل بإصبعه إلى كاهنة رفيعة أو زوجة رجل، ولم يثبت إدانتها، فيجب أن يقدم الرجل إلى المحكمة، وأن تقص ناصيتاه -كعلامة للعار.

وتوضح المواد التالية المضمون السابق أيضاً:

المادة 45

إذا.. قد ضرب ابنة رجل حر، وسبب لها الإجهاض، عليه أن يدفع نصف المنا (*) من الذهب.

المادة 50

وإذا توفيت (البنت) فسوف يقتل ذلك الرجل.

المادة 65

إذا.. قد ضرب أمة رجل، وسبب لها الإجهاض، عليه أن تدفع خمسة شيقلات من الفضة (12).

1-ننسون: الأم في حياة البطل

مصدرنا الأساس في التعرف على شخصية "ننسون" هو نص ملحمة جلجامش التي تذكر أن أمه هي الربة ننسون التي كان لها مزار داخل القصر الملكي لإضفاء صفة القدسية على شخصها.. والواقع، لا نعرف من تكون أم جلجامش التي قرنت بالإلاهة ننسون، مما يدل على رفعة مكانتها وشعبيتها، وكونها ذات شخصية غير اعتيادية، واختفت كل الأدلة عن هويتها وراء ادعاء

الكهنة -الذين دونوا الملاحم والقصص الخاصة بجلجامش -بأنها في الواقع نفسها الإلاهة ننسون.

وربما يكون إلصاق الألوهية بـ "ننسون" هو وراء وصف الملحمة جلجامش بأنـــه في ثلثيه إله وفي ثلثه الآخر بشر. وقد ورث عن أمه "ننسون" الجمال الفائق والقـــوة وانعدام الاستقرار وهو الرأي الذي نجد صداه الآن في مثل عراقي دارج فحواه، إن الإنسان يكتسب ثلثي صفاته من جهة أمه.

وكمـــا ورث الجمـــال عـــنها فقد حباه شمش بالحسن والجمال، وخصه أدد بالبطولة.

ولكن ما علاقة ننسون "الأم" بجلجامش "البطل"، وما هي الأصرة التي تجمع بيـــنهما، وهل وفق نص الملحمة في شرح هذه الأصرة من حيث كونها أثرت في توجـــيه مسار البطولة عند جلجامش؟ من هذه الزاوية سنحاول أن نرصد العلاقة الإنســـانية بين البطل وأمه، في مرحل من مراحل تطور شخصيته، ورصيدنا في ذلـــك هو الإشارات التي وردت في نص الملحمة، مدعمة ببعض المواد القانونية التي وردت في شرائع العراق القديم، أو من بعض شذرات حكمية..

أول إشارة في الملحمة تذكر لنا أن جلجامش:

نسل "لوجال -بندا" أنه جلجامش المكتمل القوة

ابن البقرة الجليلة" رمات -ننسون (13)

ثـــم -بعد ذلك -في الوقت الذي تكون البغي تحاور أنكيدو ومحدثة إياه عن جلجامش "المبتهج بالحياة" قائلة (14)

"سيراك جلجامش في الرؤى وهو في الوركاء"

استيقظ جلجامش فعلاً في تلك اللحظة وأخذ يقص رؤياه على أمه:

يا أمي لقد رأيت الليلة الماضية حلما

رأيت أني أسير مختالاً بين الأبطال

فظهرت كواكب السماء

وقد سقط أحدها إلي وكأنه شهاب السماء "أكو"

أردت أن أرفعه فلم أستطع أن أحركه
تجمع حوله أهل بلاد "الوركاء"
ازدحم الناس حوله وتدافعوا عليه
واجتمع عليه الأبطال
وقبل أصحابي قدميه
أحببته وانحنيت كما أنحني على امرأة
ورفعته ووضعته عند قدميك
فجعلته نداً لي"
فأجابت جلجامش أمه البصيرة العارفة وقالت له:
قالت "ننسون" العارفة بكل شيء لجلجامش:
إن رؤيتك نظيرك كوكب السماء
والذي سقط إليك وكأنه شهاب السماء
والذي أردت أن ترفعه فثقل عليك
وأحببته وانحنيت عليه كما تنحني على امرأة
والذي وضعته عند قدمي
فجعلته أنا نظيراً لك
إنه صاحب قوي يعين الصديق (عند الضيق) سيأتي إليك
إنه أقوى من في البلاد وذو عزم شديد
وأما أنك أحببته فانحنيت عليه كما تنحني على امرأة
فمعناه إنه سيلازمك ولن يتخلى عنك
وهذا هو تفسير رؤياك (15)

لقد فسرت "ننسون" الرؤيا الأولى (16) لجلجامش، ثم أن أم جلجامش

لقــد فســرت "ننســون" الرؤيا الأولى (16) لجلجامش، ثم أن أم جلجامش الحكيمة المحبوبة فسرت لابنها الرؤيا الثانية والتي تشبه الأولى في خلاصتها.

ثم بعد هذا اللقاء، تنقطع علاقة جلجامش بأمه، حتى يقرر جلجامش أن يشرك معه أنكيدو لمقابلة الوحش "خمبابا"، ولم تمنعه تحذيرات أنكيدو وشيب الوركاء ولم تفــل عزمه عن قراره، ولكنهم زودوه بالأسلحة وقلدوه بالسيوف العظيمة، وأسدوا لــه النصــائح بــأن يدع أنكيدو يسير أمامه، وطلبوا من "شمش" أن يفتح الطريق لمسراه"، ويمهد مسالك الجبال لقدميه. لقد قالوا له:

عسى أن يقف لوجال-بندا بجانبك

ويجعلك تحقق رغبتك

ومثل (الطفل) عساك أن تحقق أمنيتك (17)

لكــن جلجامش لم يكتف بهذه الدعوات والرعاية التي أبداها له أهل الوركاء، فقال لأنكيدو:

هلم بنا يا صاحبي إلى معبد "إي-كال-ماخ"

إلى حضرة "ننسون" الحكيمة البصيرة بكل معرفة

فإن ننسون الحكيمة البصيرة بكل معرفة

ستمنحنا النصح وتسدد خطانا (18)

رغــم الصفات الخارقة التي وصف بها جلجامش، إلا أنه في النهاية إنسان، تتكشــف إنســانيته حيــن يزمع على أمر كبير محفوف بالمخاطر، فيتملكه شعور بــالخوف، هو الشعور الطبيعي للإنسان في حاجته إلى الأمان والحنان، لذلك يلجأ جلجــامش "الإنســان" إلــى أقرب الناس إلى نفسه، فيذهب إلى "ننسون" الحكيمة البصيرة والناصحة ليطلعها على قراره ويطلب منها أن تتشفع له عند "شمش" وأن تصلي من أجله.

وبعــد أن ينتهــي الحوار فيما بين البطل "الابن" وأمه، تبدأ ننسون بممارسة دور الســيدة التي يليق بها أن تكون أما للبطل، حيث يعمد كاتب الملحمة إلى رسم صورة جميلة وتفصيلية لما فعلته وقالته ننسون -كأسلوب أمومي -لا يخلو من قلق وخوف ظاهرين على ولدها جلجامش:

وإذ ذاك دخلت ننسون حجرتها
وارتدت حلة تليق بجسدها
ووضعت على رأسها تاجها
ثم ارتقت إلى السطح وتقدمت إلى شمش
وأحرقت البخور
قدمت قربان البخور ورفعت يديها إلى "شمش" وقالت:
"علام أعطيت ولدي جلجامش قلباً مضطرباً لا يستقر
والآن حثثته فاعتزم سفراً بعيداً إلى موطن "خمبابا"
سيلاقي نزالاً لا يعرف عاقبته
وسيسير في طرق لا يعرف مسالكها
فحتى اليوم الذي يذهب فيه ويعود
وحتى يبلغ غابة الأرز
ويقتل خمبابا المارد.
ويمحو من على الأرض كل شر تمقته
عسى عروسك "أي" (*) أن تذكرك به
ولتوكل بك حراس الليل (*) والكواكب وأباك وسين
حينما تحتجب أنت في المساء.

ولم تكتف "ننسون" بدعواتها الهادئة المفعمة بالحنان واللهفة على جلجامش "الابن" وحده دون "أنكيدو"، ولكنها استدعت أيضاً كاهنات المعبد ليكنّ شهوداً على دعوتها لأنكيدو وأخذ موثق منه بأنه سوف يحمي ولدها في سفرتهما تلك بأسلوب أقرب إلى التوسل والالتماس منه إلى الأمر والطلب:

ثم أطفأت البخور، وعوذت وأحضرت الكاهنات
والبغايا المقدسات والمتبتلات

ودعت إليها أنكيدو وأوصته قائلة:

يا أنكيدو القوي الذي ليس من رحمي

قد اتخذتك منذ الآن ولدا

ثم قلدت عنقه بقلادة جواهر لتكون موثقاً منه، وقالت له:

"ها أنني إئتمنتك على ولدي، فأرجعه إلي سالماً"

لقد انتهى دور الأم عند هذه المرحلة من مراحل البطولة، وانتهت حاجة البطل إليها، بعد أن أشعرته بالأمان والحب. وبذلك تكون "مراهقة" جلجامش قد أتت على نهايتها ولا بد للبطل أن يجرب مرحلة "الرجولة" ويخوض "الامتحان" بنفسه بعيداً عن معونة أقرب الناس إليه.

إن علاقة "ننسون" بالبطل "ولدها" علاقة طبيعية، فهي ليست بالعلاقة التي توصف بالعلاقة السلبية القائمة على تحجيم ولدها أو ردعه أو معاقبته، بمعنى أن علاقة الأم بالبطل ليست علاقة مركبة أو منحرفة تصل إلى حد العقدة النفسية كما نجد ذلك عند البطل الإغريقي أوديب.

وهذه العلاقة المسحوبة، هي التي دفعت البطل إلى اجتياز الامتحان التالي ومقاتلة الوحش "خمبابا" وذبحه.

إن العلاقة بين جلجامش وأمه تعكس صورة الأمومة في المجتمع العراقي القديم التي حظيت بالاهتمام والرعاية من خلال ما وصلنا من وثائق تشريعية وحكمية (تمثل جهداً رائعاً لحماية النساء والأطفال من المعاملة التحكمية والبؤس والإهمال) (19).

3-سيدوري: المرأة التي نطقت بالحكمة [إلى أين تسعى يا جلجامش؟]

سيدوري أو ما يسمى في البابلية (سابيتم) كما وردت في الملحمة أو كما يسميها الدكتور فاضل عبد الواحد (السباءة سيدوري) صاحبة الحانة الساكنة عند ساحل البحر، كانت تسكن هناك في منزل منعزل (من الذهب) صنعوا لها برميلاً، عملوا لها دنا، كانت متحجبة بحجاب، جلجامش بعد أن تاه طويلاً، وصل قرب منزلها.

وتلفظ بائعة الخمرة باللغة السومرية ME –KASH. TIN NA ويعود أصل

الاسم سابيتم إلى الأصل العربي، فهي كما يقول الأستاذ طه باقر، مشتقة من نفس المادة العربية سبا، ومنها استبا. "والسباء" بياع الخمر ولكن لكونها غريبة فإنها لا تستعمل.

وورد ذكر السابيتم في قانون حمورابي ففي المادة 108 مثلاً:

"إذا استلمت بائعة الخمر نقوداً بالوزن الثقيل، ثمناً للبيرة، بدلاً من استلامها حبوباً، أو أنها جعلت قيمة البيرة (المباعة مقابل حبوب) أقل من قيمة الحبوب (المستلمة) فعليهم أن يثبتوا هذا التحايل على بائعة الخمرة ويقذفوها في الماء (النهر).

وقد مارست المرأة مهنة الكتابة وتزيين الشعر وطحن الحبوب وغزل ونسج الصوف وإلى غير ذلك من الأعمال الحرة، ولكن يبدو أن مهنة بيع الخمرة كانت دون المهن الأخرى وإن سمعة بائعة الخمرة ليست أهلاً للاحترام وهي برأي الدكتور فوزي رشيد -في الواقع لا تختلف عن راقصات الملاهي في الوقت الحاضر، وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن بائعة الخمرة، كانت تتعاطى الجنس كذلك.

ولا نستبعد أن تكون بائعة الخمرة بهذا المستوى الاجتماعي المتدني، فالقوانين تؤكد أن بيتها -بيت بائعة الخمرة -كان وكراً لتجمع بعض العناصر المحتالة أو ما يشبهها، ولذلك فإن شريعة حمورابي أوقعت عليها عقوبات صارمة في حال عدم إخبار القصر بهم، وإلا فإنها تعدم.

والذي يؤكد ضعة هذه المهنة هو أن شريعة حمورابي منعت الكاهنة "ناديتوم" أو "أنتوم" والتي لا تعيش في المعبد، من أن تفتح حانة للخمرة، كما منعت دخولها إلى الحانة أيضاً، وإلا فإنها تحرق. بسبب أن بيع الخمرة أو ارتياد حانة بيع الخمرة، يتنافى والعفة والحشمة التي يجب أن تتمتع بها الكاهنة، مما يسيء إلى سمعتها (20)

الظاهرة التي يمكن أن نستنتجها من النصوص القانونية، هي أن بيع الخمرة كان مقصوراً على النساء (*)، دون الرجال، بالاستناد إلى "قانون أشنونا" الذي حرم على "التاجر أو بائعة الخمرة" أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوبا أو صوفا أو زيتا، كرأس مال للمتاجرة (21) فلو أن مهنة بيع الخمرة كانت من

اختصاص الرجال، أو من اختصاص الاثنين (الرجل والمرأة) لما جاء التخصيص في القانون (بائعة الخمرة) بالذات، ومن جانب آخر نستنتج أن بائعة الخمرة - استناداً إلى المادة القانونية السابعة -كانت أيضاً تعمل بالتجارة، إضافة إلى مهنتها.

ومن المحتمل أن تكون محلات بيع الخمرة منتشرة بكثرة، نظراً لاستخدام "الخمرة" في الطقوس والمناسبات وفي تقديم القرابين، مما ألجأ المشرع إلى تنظيم أسس هذه المهنة، مادياً واجتماعياً.

وبالاستناد إلى ما ذكرنا -يمكن أن نفترض أن جلجامش ربما قصد بائعة الخمرة سيدوري، إما لحاجته إلى الشراب، أو لتقديمه (الخمرة) قربانا للإله شمش. ولكن سيدوري -بحكم مهنتها المحكومة بالقوانين الصارمة، حين رأت جلجامش مقبلاً عليها، وهو في تلك الحالة المريبة، توقعت أن يكون من المحتالين، أو من المسلطين عليها، مما دفعها، إلى غلق باب الحانة بوجهه، وأحكمت غلقه بالمزلاج.

نحن نقرأ في بداية اللوح العاشر من الملحمة، إنه بينما كانت سيدوري "السباءة" منهمكة في عملها داخل الحانة، إذ أبصرت بجلجامش على مقربة من حانتها، وجسمه شبه عار لا يغطيه سوى جلد أسود، وقد بدا شاحب الوجه منهوك القوى بسبب سفره الطويل.

ولكن جلجامش -عندما سمع صوت الرتاج -رفع رأسه، ودفع البوابة بقدمه وخاطبها قائلاً: أيتها الشابة، يا صانعة الخمرة، لماذا تغلقين بوابتك... إنني جلجامش الذي أمسك ثور السماء وقتله، لقد قتلت حارس غابة الأرز، صرعت خمبابا الذي كان يعيش في الغابة، وقتلت الأسود في ممرات الجبال.

وبعد أن انتهى جلجامش من كلامه، راحت سيدوري تطرح عليه الأسئلة الواحد تلو الآخر، وهي تقول:

إذا كنت حقاً جلجامش الذي صرع الحارس
وحطم خمبابا الذي كان يعيش في غابة الأرز
والذي قتل الأسود في مسالك الجبال
وأمسك بثور السماء الذي نزل من السماء وقضى عليه
فلم ذبلت وجنتاك واغتم وجهك

وعلام حطم الحزن قلبك وتبدلت هيئتك

ودب الحزن في أعماقك

ولفح البرد وجهك والحر

وجسمك لا يكسوه سوى جلد أسود

ولماذا جئت هاهنا هائماً في المراعي بحثاً عن الريح؟ (22)

أجابها جلجامش بأن كل ما يعانيه من هم وحزن وما يكابده من عناء وتعب إنما بسبب موت صاحبه أنكيدو، وخوفه من أن يكون مصيره هو مثل مصير صاحبه:

فيا صاحبة الحانة وأنا أنظر إلى وجهك

أيكون في وسعي ألا أرى الموت الذي أخشاه وأرهب

فأجابت صاحبة الحانة جلجامش قائلة:

إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة العظام البشر

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة

أما أنت يا جلجامش فليكن كرشك مليئاً على الدوام

وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء

وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك

وارقص والعب نهار مساء

واجعل ثيابك نظيفة زاهية

واغسل رأسك واستحم بالماء

ودلل الصغير الذي يمسك بيدك

وأفرح الزوجة التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشرية (23)

إن هـذه الحكمـة قد سمعها جلجامش من الرجل العقرب الذي فتح له بوابة الجـبل ودله على الطريق، ثم سمعها من الإله شمش بعد ذلك، وهاهو يسمعها من بائعـة الخمـرة سـيدوري. ومن المحتمل أن تكون سيدوري واقفة على مفترق الطـرق، وإن جلجامش بعد أن سمع الحكمة منها طلب منها أن تدله على الطريق إلى جده الأكبر أوتو –نبشتم.

كان جلجامش مصمماً على عبور نهر الموت وصولاً إلى أوتو –نبشتم، لكن سيدوري وفرت له النصيحة كي تبعده عن الخطر قائلة:

ولكن يا جلجامش هناك أورشنابي ملاح أوتو –نبشتم

وعنده صور الحجر وهاهو الآن في الغابة يقتطف النبات

فعسى أن تراه عيناك

وإذا أمكنك فاعبر بصحبته

وإلا فعد إلى وطنك.

بعد هذا الحوار، غادر جلجامش بائعة الخمر سيدوري، وترى الباحثة إنه لم تكـن سـيدوري إلا محطـة مـن المحطات التي توقف عندها في سفره الطويل المضني، وتبسط معها في الحديث لكي يبلغ مراده وهدفه في عبور البحر. وكانت مشـفقة عليه من عبور بحر الموت، لذلك قادته إلى من يسهل له المهمة فهي في هـذا المكـان وبحكـم مهنـتها، على معرفة بالبحر وبالغابة، وبالأشخاص الذين يرتادون المكان.

سؤال نوجهه قبل أن نأتي على ما يشابه هذا النسق من العبور: هل تقصّد كاتب النص أن يكون للبطل في كل عبور امرأة؟ ولم المرأة بالذات؟ وهل المرأة هي محطة الرجل التي ينهي بها مرحلة، ليستقل منها أيضاً إلى محطة أخرى، فيها امرأة أخرى؟ لعلنا سنجد الجواب، وإن لم نجد الإجابة، فسيبقى السؤال مشروعاً ووارداً.

شمخة: حاملة عناصر الحضارة

شـمخة (الحسـناء التـي أغـرت أنكيدو) (24) نطلق الملحمة عليها ثلاث تسميات:

1- Harimtu ، وتعني "بغي" في البابلية، ويقابلها في السومرية (Kar -kid) ويـرجح د. فاضـل عبد الواحد، أن تكون هذه الكلمة مشتقة من الفعل البابلـي "Haramu " بمعنى عزل، فصل، في إشارة إلى أنها كانت من طبقة معزولة وواطئة اجتماعياً.

2-"Shamhtu " (مـن الفعـل البابلـي Shamahu)، أي يفع وشب وامتلأ وتعني الكلمة "مومس" لذلك فهي قريبة من المعنى من Harimtu .

3-Shamhatu ، كانـت واحـدة من بين أصناف أخرى من النسوة اللواتي كرسن للبغاء في معبد الآلهة عشتار في الوركاء.

اعتـبر مجمـع وادي الرافديـن في الأدوار الحضارية الأولى، البغاء مهنة مشـروعة لكسب العيش بالنسبة للأرامل Alamattu والمطلقات، وهن في أغلب الأحـيان من طبقة الأحرار، من اللواتي لم يكن لهن واسطة أخرى لكسب العيش لكنها كانت أهلاً للزواج والشهادة في المحكمة.

ولكـن مع مرور الزمن، تغيرت نظرة المجتمع إلى البغي، وأصبحت كلمة "بغـي" فـي الفترة الآشورية مرادفة للخزي والعار. وتهمة "البغاء" الموجهة إلى سـيدة، إن لـم تثبت بالأدلة، فإن الذي اتهمها يعاقب بالضرب والعمل الشاق في خدمـة الملـك لمـدة شـهر، ويعـزل عن المجتمع ويدفع "تالنتا" (*) واحداً من الرصاص (25).

وعليـنا أن نمـيز نوعين من البغاء أولهما "البغاء المقدس" الذي تمارسه "بغايا المعـبد" فـي طقوس الخصوبة والكثرة. وثانيهما، البغاء بمعناه العام المعروف عبر الـتاريخ، ولذلك اختلف الباحثون في شمخة فيما إذا كانت واحدة من بغايا المعبد، أم أنهـا من النوع الثاني الذي لا علاقة له بطقوس الزواج المقدس، ولكن الدلائل تشير إلى كونها من النوع الثاني، لأن طقوس الزواج المقدس تقتصر على فترات معينة من السنة، وفي الأحوال الاعتيادية يكرسن بالبقاء في المعبد لخدمة الإله الذي ينتمين له.

لقد أوكل الصياد إلى شمخة أن تمارس البغاء بمعناه العام، بغض النظر عن الهدف الذي من أجله ستمارس هذا العمل، أما من حيث الفعل والهدف مجتمعين،

فإن شمخة أدت فعلاً مزدوجاً تجاه أنكيدو، لا يمكن الفصل بينهما (ولأول مرة في مجمـل الأدب العالمي، نلتقي بفكرة نشوء الإنسان من عالم الحيوان (*) مع فكرة حضارة الجنس البشري.. حيث بعد ذلك تلعب البغي دور حاملة البداية الحضارية كمـا أوردتها الملحمة، فعلمته الحرف الحضارية واستهلاك الخبز وشرب الخمرة وارتـداء الملابس.. وغيرها) (26) وبذلك فهي تذكير بالعصور البشرية الأولى، حيـنما كان الإنسان وهو قريب جداً من الطبيعة، يحيا بثقة مع الحيوانات. وتنشئته علـى الحياة المتحضرة تشير إلى المراحل التي قادت الجماعات البشرية من حياة "الرجل" إلى حياة "الجماعات المدنية".

فـي هـذا الـتطور نلاحظ باهتمام، المكانة التي توليها الملحمة لدور المرأة المنشئة للزراعة.. ونجد فيها أيضاً عناصر الطبيعة المختلفة، وما تشكله للإنسان، الغابة والبرية والسهب والعالم المتحضر.

وقـد اسـتطاعت شـمخة أن توقع بانكيدو حتى صار صريع حبها، متمتعاً بجمالها، يتقرب من الناس الآخرين، تاركاً الوحوش والضواري التي نشأ معها في الـبرية. أنكيدو يصبح بمعاشرته لشمخة المرأة، أكثر ذكاء وفطنة فيحاول أن يأخذ مظهراً إنسانياً.

لقد أيقظت المرأة فيه الإحساس بالجمال، وهذا الإحساس بالجمال، الذي أكدته الملحمة، دخل –ولأول مرة –بصورة حيوية في عملية تطور الإدراك كقوة جبارة لتحويل الكائن شبه الحيواني إلى إنسان متحضر.

تحسس جسده المشعر

مسحه بالزيت، وبالبشر اقتدى

وملابس ارتدى، فصار يشبه البشر

ومـن ثم أمسكت به من يده، واقتادته –كما تفعل الأم بطفلها –ذاهبة به إلى الوركـاء لينازل جلجامش. وبذلك تفترق المرأة "البغي" عن البطل أنكيدو، بعد أن أتمـت دورها بإتقان، فاستطاعت أن توصل أنكيدو إلى الدور الذي رسمته الآلهة له(*).

أما البطل أنكيدو، فقد غابت عن ذاكرته شخصية البغي، ولكنه عاد فتذكرها

في لحظة شديدة التوتر في حياته، حين حكم الآلهة أن يقتل أحد البطلين اللذين قتلا الثور السماوي:

قال آنو مخاطباً أنليل

لقد قتلا الثور السماوي

كما قتلا خمبابا الذي كان يحرس غابة الأرز

ثم أضاف آنو قائلاً:

يجب أن يموت أحدهما

فأجابه أنليل

أنكيدو هو الذي يموت

أما جلجامش فسوف لا يموت (27)

وتحولت شمخة إلى مجرد ذكرى إذ بينما كان أنكيدو على فراش الموت، أخذت تتوارد عليه الخواطر والذكريات، فود لو أنه لم ينتقل إلى الحياة المتحضرة وظل في باديته سعيداً خالي البال يرعى مع الظباء وحيوانات السهول، فأخذ يكيل اللعنات للبغي التي زينت له المجيء إلى الوركاء:

تعالي يا شمخة أقرر لك المصير

لعنات لا تبطل إلى أبد الآبدين

سألعنك لعنة كبرى

وتحل بك لعناتي في الحال

فلن يستهوي بيتك أحداً بعد الآن

وتملأ القذارة حضنك النظيف

ويبلل السكارى أبهى ثيابك بالقيء

ويكون تقاطع الطرقات مجلسك

والمزابل مضجعك

وظل حيطان المدينة مكانك

ويدمي الحسك والشوك قدميك

ويلطم وجهك السكران والعطشان

ويعشعش البوم في سقف دارك

وأن لا تشهدي عيداً في بيتك (28)

ومــن المعروف أن البغي التي تتصف حياتها بالبؤس والشقاء، قد تنال مودة واستحسان الملوك والأمراء والرجال الأقوياء، فبعد أن صب أنكيدو اللعنات على البغي، نراه يتراجع ويندم على ما بدا منه حين سمع الإله شمش يناديه من السماء: مذكراً إياه بأفضالها:

علام تلعن البغي يا أنكيدو

تلك التي علمتك كيف يؤكل الخبز اللائق بسمة الألوهية

واسقتك خمراً يليق بسمة الألوهية

وألبستك الحلل الفاخرة

وأعطتك جلجامش الوسيم خلاً وصاحباً (29)

ويــبدو أن أنكيدو ندم على كيل اللعنات للبغي فبدلها بركات إذ يعاود خطابه للبغي:

وسيقدمون لك اللازورد والذهب والعقيق

وسيدعك الكاهن تدخلين إلى حضرة الآلهة

ومن أجلك ستهجر الزوجة، ولو كانت أم سبعة (3).

هنا تنتهي قصة البغي شمخة مع البطل أنكيدو، وتتكرر هذه القصة مع أبطال آخريــن رغــم أنها تتخذ صوراً وأساليب مختلفة، فالملحمة تعرض صورة البغي ومكانها في المجتمع بأسلوب بليغ، فهي مرغوبة من الملوك والعظماء ومن الشباب والشــيوخ، ومــن الأزواج وغير الأزواج، ولكن الأخطر هو أنها مرغوبة أيضاً بالنســبة للكاهــن الذي (يدعها تدخل إلى حضرة الآلهة). ولكنها في نفس الوقت

ممقوتة ملعونة، لأنها تتسبب في كوارث اجتماعية لا تعد ولا تحصى. فما موقع شمخة من البطل أنكيدو؟

لقد تم التصميم من قبل الآلهة أن يخلق أنكيدو، والآلهة نفسها صممت أن يموت.

واختيرت البغي شمخة لتصطاد البطل في "فخاخ فن المرأة" لأن الصياد "الرجل" في الملحمة لم يكن ليستطيع الإمساك بأنكيدو، وإن فعل ذلك، فسوف يكون الفريسة التي سيفترسها أنكيدو ذو القوة الهائلة التي يمتلكها ككائن "بري". كما لا يمكن أن توكل المهمة إلى امرأة أخرى من صنف الكاهنات أو أي صنف نسائي على جانب من العفة والكرامة في المجتمع، لأن القوانين كما أسلفنا –لا تسمح بهذا العمل لهن أصلاً.

إذن، شمخة "البغي" هي المرشحة الأقوى للقيام بهذا الدور، فسلوكها مؤثر في البطل أنكيدو، فكان بالتالي –على يدها –هو الضحية المرسومة رسماً دقيقاً للوصول به إلى آخر حلقة من حلقات المأساة الإنسانية، مسلمة الدور إلى عشتار، آخر ضلع من أضلاع المثلث النسائي الذي بدأ بننسون (أم البطل جلجامش). ولكن المؤلف –مؤلف الملحمة –أراد أن يؤكد ضمناً أن موت أنكيدو كان بسبب المرأة التي قادته إلى مصيره، بسبب إغرائها واستدراجها له.

عشتار: سقطة البطل

بعد أن حقق جلجامش انتصاره على خمبابا –بمشاركة أنكيدو –وكسب المعركة في القضاء على الشر الذي يكرهه شمش، عاد إلى الوركاء: غسل جلجامش خصلات شعره الطويلة، ونظف أسلحته، رفع شعره من على كتفيه، خلع ثيابه الملوثة، واستبدلها بثياب جديدة. ارتدى أثوابه الملكية وحزمها. عندما لبس جلجامش التاج، رفعت عشتار العظيمة عينيها، وقالت إذ رأت جمال جلجامش: هلم إلي يا جلجامش وكن عريسي أعطني بذرة جسدك، دعني أصبح عروسك، وتكون زوجاً لي.

وبدأت عشتار تعدد للبطل جلجامش المكاسب التي سوف يكسبها، إن هو قبل الزواج بها، وكيف سينحني له الملوك والحكام والأمراء أمامه، ويقدمون له

الجـــزية، كذلـــك فهي تذكره بخصوبتها كإلهة للخصب والوفرة، فهو حين يصبح زوجـــا لهـــا، ســـوف تلد نعاجه توائم وعنزاته تلد ثلاثا، ولن يكون لثيرانه نظير، إضافة إلى ما ستقدمه له من الذهب واللازورد.

فتح جلجامش فمه وأجاب عشتار العظيمة: "إذا اتخذتك زوجة. ترى ماذا أقدم لـــك مـــن الهدايا مقابل ذلك؟ أي ألوان العطور والثياب لجسدك؟ أي خبز تأكلين؟ كيف أقدم طعاماً لإلاهة، وشراباً لملكة؟ (31).

إن نبرة السخرية بادية في كلام جلجامش، لكنه تجاوز السخرية إلى التحدي والإهانـــة فـــأخذ يعـــدد مثالبها تجاه عشاقها وأزواجها، ومسخها إياهم إلى كائنات غريبة، مع كل ما قدموه لها من حب وقرابين وهدايا.

بعـــد أن جـــرح جلجـــامش كبرياء عشتار بغطرسته المعهودة، صعدت إلى السماء، وطلبت من أبيها آنو "إله السماء" أن يخلق لها الثور السماوي لينتقم لها من جلجامش:

يا أبي إن جلجامش سبني وأهانني

"اخلق لي يا أبت ثوراً سماوياً

ليغلب جلجامش ويهلكه (32)

إن الـــتحدي الثانـــي من قبل البطل جلجامش، أكبر من التحدي الأول، لأنه صـــرع الـــثور الســـماوي الذي خلقه كبير الآلهة "آنو" بمساعدة أنكيدو، ثم قذفاها بالفخذ الأيمن، وقال أنكيدو ساخراً ومتحدياً"

لو أمسكتُ بك لفعلت بك مثل ما فعلت به (أي الثور)

ولربطت أحشاءه بجنبيك.

ثم غسلا أيديهما في نهر الفرات

وسارا راكبين في درب السوق

فاجتمع أهل الوركاء ليشاهدوهما

وصار جلجامش يخاطب (مغنيات الوركاء) ويردد متباهياً:

"من الأزهى بين الأبطال؟

ومن الأمجد بين الرجال؟ (33)

تلك هي "سقطة البطل جلجامش وصديقه أنكيدو "السقطة المأساوية التي كان نتيجتها موت أنكيدو بأمر من الآلهة، عقاباً على قتل "الثور السماوي" وردا على تحديهما للآلهة.

يقول لابات مفسراً سلوك جلجامش إزاء عشتار: "إن النداء الوقح الذي يوجهه جلجامش في النشيد السادس إلى الآلهة عشتار، هو لا شك، انعكاس تهكمي لمفهوم بائد لعبادة الآلهة. وفي هذا المعنى يقول آخرون، إن لتحدي جلجامش تبريراً ملحمياً صرفاً نابعاً من المطامح والقوى غير المحدودة، ومن عدم الرغبة في التراجع حتى أمام الآلهة. ويتخذ تحدي جلجامش (الذي ثلثاه إله وثلثه بشر) معنى أكثر عمقاً، فهو (يحتج ضد حقيقة أن الإنسان رغم أنه يمكن أن يصبح شخصية بطولية، أجدر من الآلهة، إلا أنه رغم ذلك يبقى كائناً فانياً) (34).

كان موقع الإنسان أمام الآلهة، قد تغير كما يبدو، وتوجد رسائل من العصر البابلي القديم تشير إلى أن المرء قد توجه إلى الآلهة راجياً -وبصيغة مطالبة بل وحتى بصيغة تهديد مبطن -فإن لم يتحقق الطلب المقدم إلى الآلهة، فسوف ينتقم الإنسان بالتوقف عن تقديم الهبات (القرابين) بعد ذلك أو بالتقليل منها، أو بعدم الالتزام بمواعيدها المنتظمة..

لقد اصطبغت علاقة الإنسان بآلهته، بصبغات شخصية، بل وإنسانية جداً، فقد تحولت مشكلة المجموعة إلى مشكلة الفرد.

لكن المنهج الأنثروبولوجي يتناول قضية (جلجامش -عشتار) من جانب كونها تمثل علاقة الرجل "الذكر" بالمرأة "الأنثى"، وأن لها جذوراً تعود إلى عصر سابق على الزراعة حين كان نشاط الذكور بالصيد والبستنة المجزيين، مقارنة بنشاط النساء القائم على القطف واللقط.. والنتيجة تصبح تقابلا بين الجنسين، يجعل من النساء كائنات حبيبة في الواقع ومحقرة جهاراً، وتمثل أيضاً النشاط الذكوري الغني بالتجارب والمغامرات بالقياس إلى النشاط النسائي، بما فيه من طمأنينة رتيبة واهنة، كوهن اللقط والقطف المحكوم بالرياح والأمطار والعاصفة (35).

لكن الذي يطرحه كلنغل، يمكن أن يكون قريباً -نوعاً ما -من الواقع النفسي والديني للفرد في المجتمع البابلي آنذاك فهو يعلل تمرد البطل الإنساني وتحديه بأنه

(كـــان للوعي الفردي ذي الطابع البابلي القديم انعكاسه في الأدب، فأدخل نموذجاً جديداً للبطل، يرمز إلى الإنسان الناجع في الحياة، الرجل الذي حقق ذاته، لكن هذا الوعـــي المتنامي للشخصية بالذات، والذي أراد الوصول إلى مستوى الآلهة، وجد مـــن الظلـــم والتعاسة، أن يكون الإنسان في الدنيا -على العكس من الآلهة -غير خـــالد) (36) وأيامـــه معدودات، بينما استأثرت الآلهة بالحياة الخالدة، وهي عين المأساة القائمة في التناقض بين الإنسان والإله.

□

هوامش البحث:

(1) "بعـــض" هذه المواد القانونية مجهولة النسبة لا يعرف لها مشروع، أشار لها الدكتور فوزي رشيد في (الشرائع العراقية القديمة) دار الرشيد للنشر (بغداد 1979). ص 11.

(2) ظـــلال الـــوادي الكبـــيرة، سلسلة الموسوعة الصغيرة -دار الشؤون الثقافية (بغداد 1992). ص 132.

(3) عقـــراوي. ثلماســـتيان، المـــرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين (بغداد 1978)، ص 34.

(4) إن الملك لبت -عشتار كان من أوائل المشرعين وقد سبقت تشريعاته المسماة باسمه، تشريعات حمورابي بأكثر من قرن واحد، ويمثل قانون لبت -عشتار على ما يرجح -حضارة السومريين -تمثيلاً كبيراً ويرى الأستاذ طه باقر أن كلا من لبت -عشتار وحمورابـــي كـــان من ملوك السلالات السامية الغربية التي تأسست بعد أن قضى العيلامـــيون على سلالة أور الثالثة (السومرية العظيمة) بزمن قصير (ينظر باقر، طه، قانون لبت -عشتار ومملكة أشنونا، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد 1987)، ص 10 -11، 24 -25).

(*) إن قانون مملكة أشنونا المكتشف في تل حرمل (تل محمد حالياً) أقدم القوانين المدونة التـــي جاءتنا من العراق القديم، ويعتبر أقدم شريعة كشف عنها البحث حتى الآن. يقول طه باقر (إذا كان لبت -عشتار قد أصدر قوانينه قبل حمورابي بنحو 164 - 175 ســـنة فـــيكون زمـــن قوانين حرمل أي قوانين مملكة أشنونا نحو قرنين من الـــزمان قـــبل إصدار شريعة حمورابي ويصادف زمن إصدار قوانين أشنونا العهد الذي استقل فيه ملوكها بعد سلالة أور الثالثة بزمن قليل فكانت الحاجة شديدة لملوك هـــذه المملكـــة إلـــى إصدار شرائع في مملكتهم خاصة بها)، باقر، طه، المصدر

السابق، ص 42، 44.

(5) يعتبر الملك أورنمو مؤسساً لسلالة أور الثالثة 2111 –2003 ق. م وشريعته تعتبر في الوقت الحاضر أقدم شريعة معروفة لدى الإنسان. ولكن هناك شرائع عراقية أخرى أقدم من شريعة أورنمو ولكنها لم تصل إلينا بعد، حسب رأي الدكتور فوزي رشيد، (ينظر رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة، دار الرشيد للنشر (بغداد 1979)، ص 25).

(6) إنتو: تمثل كلمة Entu صيغة التأنيث من الاسم الأكدي Enu أي "الكاهن الأعظم" وفي السومرية En ومعنى إنتو "السيدة الآلهة" وكان لها مركز ديني واجتماعي مرموق وتأخذ مركز الصدارة في قوائم الشخصيات المهمة.. وتكون الكاهنة عادة إما ابنة الملك أو أخته، (ينظر: عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 167).

(7) ناديتو: Naditu صنف من النسوة اللواتي نذرهن آباؤهن إلى المعابد لخدمة أحد الآلهة: ناديتو لشمش، ناديتو لننورتا، لمردوخ، لسن.. الخ ومنع عنهن الزواج والإنجاب، وتعود معظم الكاهنات "ناديتو" إلى الطبقات العليا، وكان من بينهن عدد من الأميرات (ينظر عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 73 –175).

(8) قادشتو Qadistu: مركزهن في المجتمع كان دون الكاهنة ناديتو، وأعلى من المرأة كلماشيتو، باستطاعتها الإنجاب وإرضاع أطفال غيرها من النسوة، وليس هناك دليل أكيد يشير إلى أن الزواج كان مسموحاً لها، وهذا حدا بالباحثين إلى اعتبار هذا الصنف من النساء من بغايا المعبد، (عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 180).

(9) كلماشيتو Kulmasitu:منذورة للإله Votarees وتعود معظم الكاهنات من هذا الصنف إلى العائلات الغنية (عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 181).

(10) شوكيتو Sugeitu: يذكرون من بين اللواتي شاركن في احتفالات الزواج المقدس.. تذكر شريعة حمورابي أن للشوكيتو حق الزواج والإنجاب (عقراوي ثلماستيان المصدر السابق ص 184)

(11) سال زكروم Sal -Zikrum لها علاقة بالمعبد ولكنها ليست منذورة إلى إله معين، ومركزها الاجتماعي دون الكاهنات وبقية المنذورات (عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 185)، (ولمعرفة المزيد عن أصناف النساء يراجع فوزي رشيد، الشرائع، المصدر السابق، ص 152).

(*) المنا والشيقل: من مصطلحات المكاييل التي كانت تستعمل في العراق القديم. كلنغل،

هورسـت، المصـدر السابق، (تنظر المواد حسب تسلسلها في الصفحات 173 – 177)، وينظر:

(12) رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة، المصدر السابق، ص 117.

(13) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 76.

(14) ن. م، ص 86 –87.

(15) باقر، الملحمة، المصدر السابق، ص 86 –87.

(16) يقـول لابات في تفسير هذه العلاقة بأن الأحلام المنذرة التي يقصها جلجامش على أمه وجهوده في الحلم لإزاحة صخرة هبطت من السماء بحضور المدينة كلها، هي مـن المـرجح تذكير برتبة اجتياز قديمة كانت اختباراتها تحيل الشاب إلى محارب (يـنظر: لابات، رينيه، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، المصدر السابق، ص 162).

(17) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 10.

(18) ن. م، نفس الصفحة.

(*) الإلهــة "آي" أو "آيــة" زوج شمش ، وهي تمثل الفجر مثل الآلهة اليونانية "إيوس" "Eos" والرومانية "أرورا" "Aurora".

(*) حراس الليل هم الآلهة الموكلون بحراسة الليل، والإله "سين" الإله القمر الذي اعتقدوا فيه أنه أبو الإله شمش حيث يتولد النهار من الليل.

(19) رو، جـورج، المصدر السابق، ص 279 /لمعرفة المواد القانونية التي تصب في موضـوع احترام الأم ينظر رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة (في صفحات متفرقة).

(20) تنظر المادة 110 من شريعة حمورابي، (رشيد فوزي) ص 136.

(*) ويختفي ذكر بائعات الخمرة من النصوص المسمارية بعد العصر البابلي الوسيط، مما يـدل علـى أن هـذه المهنة أصبحت على الأرجح بعد هذا التاريخ من اختصاص الـرجل فقـط. (يـنظر: عقراوي، ثلماستيان، المرأة دورها ومكانتها.. المصدر السابق، ص 190 "الحاشية").

(21) باقـر، طـه، لبث –عشتار، المصدر السابق، ص 51 (تنظر المادة 15 من قانون أشنونا).

(22) هـذه الإضافة عند ساندرز في السطر الأخير –ليست موجودة عند الدكتور فاضل

عبد الواحد، (ينظر ساندرن المصدر السابق، نفس الصفحة).

(23) باقر، طه، الملحمة، ص 137 –138. ن. م، ص 129.

(24) عبد الواحد، فاضل سومر: أسطورة وملحمة، المصدر السابق، ص 192.

(*) من أسماء المكاييل في العراق القديم.

(25) رشيد، فوزي، الشرائع، المصدر السابق، ص 260. فكرة النشوء من عالم الحيوان، إشارة إلى عملية خلق أنكيدو في البرية من قبل الإلاهة أورورو (الباحثة).

(26) ترافيموف، ب، س، جماليات ملحمة جلجامش، ترجمة عزيز حداد، منشورات دار مكتبة الصياد، (بغداد 1973)، ص 168.

(*) وهي –من جانب آخر –الصورة التي رسمتها الذهنية الجزرية لصورة البطل في مراحل تطوره النفسي والحضاري وإعطائها تبريراً قدسياً.

(27) عبد الواحد، فاضل، سومر: أسطورة وملحمة، المصدر السابق، ص 210

(28) عبد الواحد، فاضل، الملحمة، المصدر السابق، ص 212.

(29) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 121.

(30) ن. م، ص 122.

(31) ساندرز، الملحمة، المصدر السابق ص 70.

(32) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 112.

(33) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 116.

(34) إيسبورغ، يا إي، موسوعة نظرية الأدب، القسم الأول، المصدر السابق، ص 175.

(35) شتراوس، ليفي، الأنثروبولوجيا البنوية، ترجمة مصطفى صالح (دمشق 1977)، ص 143.

(36) كلنغل، هورست، المصدر السابق، ص 84.

□□

الآثار الإسلامية

في العراق

■ دراسة : ماري أوديل روسيه ■

ترجمة : د.نورا أريسيان

المقدمة

عندما نستذكر بلاد الرافدين، تتبادر إلى الأذهان فوراً صور السومريين والآشوريين وأسماء مدن مثل نينوى وبابل. في الحقيقة، كانت هذه المنطقة التي تشكل قسماً كبيراً من العراق أرضية للأبحاث الأثرية التي تتناول الحضارات الكبرى. إلا أن التاريخ لم يتوقف عند سومر، فخلال الفترة الحديثة أضحى هذا البلد مهداً لشعوب أخرى.

ماذا نعرف عن هؤلاء الناس، خاصة عن الذين شهدوا صدر الإسلام؟ ماذا كانت الدراسات المختلفة التي أقيمت بهذا الموضوع تحت بطاقة الآثار؟

تلك هي الأسئلة التي تشكل أساس هذا البحث. ورأينا أنه من الضروري إجراء بحث مماثل حول منطقة كانت لها أهميتها في تطور الحضارة الإسلامية.

تشمل الحدود الجغرافية لهذا البحث العراق الحالي، وتمتد الفترة الزمنية من الفتوحات الإسلامية حتى بداية الغزو العثماني. وللإيضاح، تم التأكيد في بعض الأحيان على مواقع هامة تعود إلى ماقبل الإسلام.

يقدم هذا العمل تقريراً للبحث في الآثار الإسلامية في العراق. وقد رأينا من المناسب أن نقيم بياناً يكون قريباً من الكمال من معلومات ببيليوغرافية متوفرة حالياً.

ومن أجل تحقيق التوثيق المطلوب لهذا البحث، قمنا بالاستعانة بأنواع متعددة مـــن الوثـــائق. إن المؤلفـــات العامة حول الهندسة الإسلامية تقدم وفي كثير من الأحـــوال نصباً تذكارية محافظة. وتزود فهارس المؤلفات حول الفترة الإسلامية، بمعلومات أكثر رغم أن القسم المخصص للآثار مقتضب.

فـــيما يتعلق بالعراق فإن كتاب ر.إيليس(بيبليوغرافيا المواقع الأثرية في بلاد الرافدين) يبين مصادر المواقع.

نشـــرت الإدارة العامـــة للآثار في العراق عام 1970، ثم أعادت النشر عام 1976، (أطلساً للمواقع الأثرية في العراق) حيث يتضمن مصادر المعلومات التي أحصـــتها إدارة الآثـــار القديمة حول مواقع تتوزع خلال 18 فترة زمنية، وكذلك أدرجت خريطة المواقع الأثرية في العراق.

يعتـــبر عمـــل ألبيرت الحايك أحد أهم المؤلفات الهامة لبحثنا هذا الذي يقدم قائمـــة بـــالمواقع المدروســـة منذ 1842 وحتى 1971. وتتضمن القائمة قسمين: التنقيب والمواقع المنقبة. وقد تم تحديد مكان كل موقع عبر خارطة نشرت من قبل الإدارة العامة للآثار في العراق عام 1959.

الجغرافيون العرب:

كـــان الحكماء العرب الكبار الذين كتبوا عن العراق في الفترة الإسلامية هم حـــتماً جغرافييـــن. في الفترة التقليدية، كانت هذه المنطقة مركزاً للامبراطورية، وأضحت مدن الموصل وخاصة بغداد مراكز فكرية هامة، وتم إنشاء أول مدرسة عراقية للجغرافيين في العاصمة.

كان ابن خرداذبة (820 ــ 826/ 885 ــ912) في كتابه "المسالك والممالك" وكذلك اليعقوبي (توفي عام 897) والمسعودي (توفي عام 956)، يعتبرون العراق مركـــزاً للعـــالم، وبغداد "سرة الأرض". وهناك تيار آخر لهذه المدرسة يمثله ابن الفقيه (كتب عام 903) وقدامة (القرن العاشر) حيث يقدم مكة مركزاً للعالم.

إن هـــذه الأعمـــال ومـــا لحقـــتها تتعامل مع الجغرافية الوصفية والرياضية والإنســـانية والتاريخـــية. ويعطـــي ابن الفقيه نظرة واسعة عن بلاد الرافدين مع عناصر متعددة من الفولوكلور ووصف للعمارة.

تتـبع مدرسة البلخي الشكل الذي ابتكره أبو زايد البلخي، من خراسان (كتب عـام920) ويتضـمن وصـف العالم عن طريق المناطق والأقاليم. فقد عاش 8 سـنوات في العراق وتم نقله عبر ابن حوقل وأصله من الجزيرة. سافر كثيراً من عام (943 ــ 973). وهذا السرد يستند إلى المراقبة المباشرة مثل سرد المقدسي (عـام 1000). فبالنسبة له، ينتمي العراق إلى الإقليم الرابع، أقليم بابل المعروف بسماته المعتدلة والأخلاق العالية وثقافة سكانه. وبالمقابل، لم ير بعض الرحالة من العراق سوى منطقة البصرة.

مـن بيـن الجغرافيين، بين القرن الثاني عشر والرابع عشر يمكن أن نذكر الأدريسـي. والجامع المعروف والرحالة الكبير ياقوت الحموي، وكذلك ابن جبير ولد في 1145، وزار الكوفة وبغداد والموصل والجزيرة.

أمـا بالنسـبة لوصـفه للمدن فقد كان ينقل عن ابن بطوطة (ولد في طنجة 1304 ــ وتوفـي عام 1377) الذي عرف بعلاقاته مع الهند وجنوب شرق آسيا وأفريقيا والعواصم العربية.

على الرغم من أن الجغرافيين، في هذه الفترة، كانوا يعتمدون على الوصف المباشر فكانوا يميلون إلى تلخيص أعمال أسلافهم أكثر من نقل تجاربهم الخاصة، وبشكل عام كان للرحالة العرب ذات النظرة تجاه البلد.

فـي القـرون الوسطى، كان العراق ينقسم إلى منطقتين. العراق الذي يشكل أسـاس بـلاد مابين النهرين يحده من الشمال تكريت على نهر دجلة وهيت على الفـرات ومن الغرب حدود حافة السهل، ومن الشرق الحدود الحالية بين العراق وإيـران إضافة إلى خط على طول طريق شط العرب وحتى الجنوب. إن منطقة الجزيرة القديمة في شمال العراق مقسمة اليوم بين العراق وسوريا وتركيا.

يبين وصف الجغرافيين المناخ والمسافات بين المواقع والثقافة والدين وكذلك النشاط الزراعي والحرفي. وهناك اهتمام خاص بالمشكلة المتعلقة بالمياه، وبنهري الفرات ودجلة وكذلك بتفرعاتهما وأقنيتهما، وبنهر الإسحاقي، ونهر الثرثار، ونهر المالك ونهر نيل...

إن الوصـف الإقليمي الأكثر دقة يعود إلى المقدسي، فالعراق مقسم إلى ست دوائـر مركزها الكوفة، والبصرة، ووسط بغداد، وخلوان (إيران حاليا) وسامراء.

وبالمقابل، فإن البلد مقسم إلى وحدات سجلات عقارية تساعد على توزيع الضرائب العقارية.

ولا ينسى الجغرافيون وصف الآثار الهامة والمعابد التي زاروها أو سمعوا عنها، وهي منجم معلومات بالنسبة لعلماء الآثار. يشيرون إجمالاً إلى قوس (إيوان كسرى) وأنقاض بابل ومنحوتات علي (النجف) وحسين (كربلاء) وأنقاض الحيرة وسامراء. ورماد نار إبراهيم (الكوت) ومقابر القديسين في الكوفة والبصرة وبغداد.

إن المصادر الجغرافية المترجمة غالباً في القرن التاسع عشر ضرورية لدراسة الحضارة الإسلامية، وكانت تستخدم بشكل واسع في أبحاث علم أصول أسماء الأمكنة التاريخية.

إن عملية إعادة قراءة المصادر العربية، حيث لم يكتمل نشر بعضها بعد، تحدد جغرافية بلاد الرافدين في عصر القرون الوسطى.

فيما يتعلق بالطوبوغرافية، فقد أقيمت عدة دراسات حول المدن. يروي أ.هوبنغمن في مقالة حول الموصل في (الموسوعة الإسلامية) وتطور المدينة بفضل المعلومات المستقاة من البلاذري وابن الفقيه وابن حوقل والمقدسي والقزويني وياقوت الحموي. وهؤلاء يعطون خاصة دلالات حول بناء الجوامع والمقابر والحصون وتندر المعلومات حول الطرقات والجسور والسكن. إن روايات الجغرافيين تفيد في استخلاص تاريخ النصب التذكارية أكثر من التاريخ المدني.

علم الآثار قبل القرن العشرين:

كان الجغرافيون يترددون على بلاد الرافدين منذ القرن الحادي عشر وكان بعض التجار الأجانب يسجلون رحلاتهم. ومنذ ذلك الوقت، وحتى القرن العشرين وهي تجذب الباحثين. وقد تقلص عدد الرحالة أثناء الفترة الهائجة التي سبقت قدوم العثمانيين إلى الحكم في القرن السابع عشر والثامن عشر، زارها العديد من الرحالة الأجانب. كانت الأنقاض التي زاروها أكثر حماية من الوقت الحالي.

في الحقيقة، يبدو أن هناك إسراعاً في عملية التقيقهر. إن نظرتهم تجاه

النصب التذكارية تختلف عن نظرة الجغرافيين العرب. لكن ليس بالضرورة أن تكون أكثر واقعية، وما تركوا لنا من مخططات تساعدنا على إعادة بناء بعض الصروح المختفية منذ انتقالهم.

ونجد أن بلاد الرافدين تستقطب الباحثين الذين يبدؤون التنقيب أكثر فأكثر، وهمهم قبل كل شيء العثور في الأرض على آثار مدائن الكتاب المقدس.

هناك عدد من الباحثين ممن بحثوا في بابل ونقبوا منذ عام 1681. ووصفوا القرى والمدن والمواقع الأثرية. وبحثوا في طرق الإبحار في دجلة واهتموا بالامبراطورية الآشورية. بعد عام 1840 بدأت الحكومات الأجنبية بوصاية التنقيب في العراق. في البداية أرسل الفرنسيون باحثاً إلى نينوى عام 1842. وأول فريق عمل أمريكي نقب منطقة بابل عام 1885. أما الألمان فعملوا في تل الجنى عام 1887. وفي نهاية الأمر، كان الهدف الأساسي لهؤلاء أن يأتوا بقطع متخفية، فجميع أعمال التنقيب التي نفذت في تلك الفترة الزمنية سمحت بتحديد عدد من المواقع التاريخية.

أعمال العراقيين وتشريع التنقيب

بدأ التنقيب المنهجي في العراق بشكل رسمي في 21 شباط 1884 بعد صدور القانون العثماني حول الآثار القديمة. وبعد تشكيل الحكومة العراقية الوطنية في 23 آب1921 تم تشكيل إدارة للآثار القديمة وتم إصدار قانون جديد لوقف إخراج التحف الفنية.

وبعد هذا التاريخ لم يكن باستطاعة المتاحف الأجنبية الحصول على قطع إلا إذا اعتبرت نسخة مضاعفة، وابتداءً من عام 1934 بقيت الاكتشافات الأثرية تحت ملكية الدولة.

أنشأ متحف العراق في عام 1923 عندما قدمت غرترود بيل بعض القطع في السرايا. وفي عام 1926 نقل المتحف إلى مبنى في شارع المأمون وعام 1926 إلى خان المرجان ثم إلى المكان الذي يحتله في الوقت الحالي، في حي شليخيا عام 1963 وتم تشييده في 9 تشرين الثاني عام 1966.

بدأ العراقيون التنقيب منذ عام 1936، وكانوا يهتمون أكثر بالمواقع

الإســـلامية علـــى عكس ما تفعل الفرق الأجنبية. وبهذا تطمح أعمالهم إلى تركيب خريطة العراق للآثار بفضل جملة من أعمال التنقيب العامة.

فـــي عام 1965، تركز العمل الأساسي على التنقيب أكثر من الحفر، وبدأت تحريات محلية في مناطق مختلفة. وفي نفس الفترة، أعلنت الجريدة الرسمية وضع الآثـــار تقريـــباً في 7000 موقع أثري على الأرض، حيث جمعت إدارة البحوث الأثرية وثائق حولها.

فـــي نهاية الستينات، بقيت بعض المناطق غير معروفة على مستوى الآثار مثل جنوب شرق وجنوب غرب (أور) والمناطق المتاخمة للبصرة.

أظهـــر العراقـــيون اهتماماً متصاعداً بالنصب التذكارية في بلدهم بعد ثورة تموز 1968. بعد المشاريع الكبيرة للسدود التي بدأت منذ 1977 توجب إقامة بنية تحتية أهم من السابقة، وانقسم البلد عام 1980 إلى أربع مناطق أثرية شمال جنوب شـــرق غـــرب تلتزم بالاهتمام بالتوثيق والتنقيب وترميم الأبنية الأثرية والتاريخية والمتاحف والمعارض وكذلك مشاريع إنقاذ كبرى.

التنقيب بمقياس كبير

ابتداء من بداية القرن العشرين، بدأت الفترة الإسلامية تؤخذ بعين الاعتبار في الدراسات الخرائطية العامة. وقد صدر العديد من الدراسات والمؤلفات بعد عام 1900، بعـــد عملـــيات البحث في مناطق بغداد وبابل من قبل الألمان والفرنسيين وغـــيرهم. فهـــذه الأعمـــال أتت بدراسات مرفقة بملاحظات أثنية، كانت وستبقى تستخدم في دراسة أسماء الأماكن التاريخية.

التنقيب الإقليمي

ســـوف نعرض فقط حملات التنقيب الإقليمية التي سمحت باكتشاف المواقع الإســـلامية. في الجدول الآتي شرح للتنقيب الذي يهمنا. هذه المعطيات نسبية لأن بعض التواريخ تقريبية، وفي مجمل الحالات أخذت بعين الاعتبار المواقع الأساسية فقط.

بعـــض اللمحات حول الأعمال التي نفذت: بين عام (1925 ـ 1926)، قام

الباحث ر.دوغرتي من المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية باكتشاف المنطقة الجنوبية من بابل واستخدم بحثه عام 1953 من قبل توركيلد جاكبسون في عمليات التنقيب عن المنطقة القديمة من امبراطورية آكاد، ثم من قبل روبرت ماك أدامز في 1957 في إطار أبحاث التنقيب العامة في العراق في جامعة شيكاغو وقد درسوا تطور السكان في المنطقة نسبة إلى استخدام نظام الري.

قام الباحثان سيتون لويد وجيرار رتلنكر من جامعة ليفربول بالتنقيب في عام 1938 في منطقة سنقر وكان هدفهما ترميم المواقع في تلك المنطقة للتمكن من وصلها بمنطقة الخابور في الشرق. وكان رتلنكر مهتماً بالمواقع الإسلامية وقد جهز قائمة بعشرات المواقع.

المنطقة التي نقبت واسم من قام بالتنقيب	السنوات	المواقع الإسلامية
بابل (وارد)	1885	5
مركز العراق (ماسنيون)	1908-1907	14
العراق (هيرزفلد)	1908-1907	23
العراق (بيل)	1909	15
بابل ـ الجنوب (دوغرتي)	1926-1915	4
سنقر (رتلنكر)	1938	16
أكاد (أدامز)	1957-1953	1
البصرة (رو وسوليكي)	1958 -1953	7
مركز الرافدين (أدامز)	1960-1956	424 -87
كيش (جيبسون)	1973-1970	118
الثرثار	1949	4
القائم	1949	3
دربندي خان	1956	7
حمرين	1980-1977	20
القادسية	1987 -1977	12
ايسكي موصل	1987 -1980	35
شمال الجزيرة	1988 -1987	4

كمـــا نلاحـــظ، فإن أهم أعمال التنقيب قامت بها المدرسة الأمريكية للبحوث الشـــرقية. وتمت دراسة النمو السكاني في عدة مناطق من العراق، وقام جاكبسون بـــتحديد 119 موقعـــاً، أما أدامز فحدد 867 موقعاً غطى فيها 16 فترة زمنية من 4000ق.م. وحتى 1957م. فهذه المعطيات تعتبر أساساً للأبحاث. وقد ترك أدامز سلسلة خرائط تبين توزيع المواقع حسب الفترة الزمنية لخدمة نظام الري وصرف المـــياه. قدمت خريطة وحيدة من أجل فترة الاحتلال مابين 637 و1500م. وهي مقســـمة إلـــى فترات: الإسلام القديم والعباسين والسامراء مع تغييب قائمة بأسماء الأماكن. وبهذه الدراسة استطاع أدامز أن يحيك لوحة السكان وأظهر نظاماً لمنطقة لا حدود لها ومن ثم ألحقها في مجموعة منطقة الرافدين. ولابد من الإشارة إلى أن هذا البحث تعرض لعدة انتقادات ومنها أن الخرائط تبين أنظمة الري التي لا وجود لها على الأرض.

نفـــذ ماك غوايار جيبسون نفس الأسلوب على منطقة (كيش) في 1966 ــ 1967 مـــنطقة شـــط النيل، القناة التي تصل دجلة بالفرات. أقام جيبسون خرائطه تدريجـــياً من المنطقة المكتشفة عبر المدينة الكبرى لكي يصل إلى التغييرات التي حصـــلت جـــراء القنوات وتحديد العمارات القروية. ومن جهة أخرى، كان بأولو كوســـتا مـــن معهد الدراسات الشرقية في نابولي مخولاً بدراسة المقابر الموجودة على القناة في الفترة الإسلامية.

ورشات الإنقاذ ـ أعمال الري:

فـــي نهايـــة الخمســـينات، باشرت الدولة العراقية بتنظيم ضبط مسار الأنهر وإعادة تدبير نظام الري، كان من الضروري العمل على حسر المياه وبناء سدود وأقنـــية. ولهذا فإنه تم تنظيم سياسة إنقاذ المواقع الأثرية المهددة بالهدم شيئاً فشيئاً. وحدث هذا الاهتمام في زمنين تماشياً مع مرحلتين من الأعمال الكبرى.

السدود التي أقيمت بين 1913 ـ 1962

بعـــد إنشـــاء السد الأول (هندية) عام 1913 توقفت أعمال توزيع المياه في العـــراق بعض الوقت. ولم نجد أي إشارة لحفريات للإنقاذ سبقت هذا البناء، وهذا ليس غريباً في هذه الفترة. منذ عام 1948 وحتى 1962 باشرت الحكومة العراقية

بسلسلة من 8 سدود. كانت إدارة الآثار مسؤولة عن متابعة التحريات والدراسات ما عدا مشروع (جرمو) في كردستان عام 1951 ومشروع حوض الزاب الكبير عام 1954 حيث أجريت دراستها في المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية. وقد ظهرت آثار الإسلام عند تنقيب حوض الزاب الكبير لكنها لم تكن دقيقة. إن تنقيب حوض (دكان) الذي نفذ في 1957 -1958 من قبل فريق أمريكي ترك 4 مواقع إسلامية. إن المثال الوحيد على أعمال المشاركة العراقية ـ الأمريكية في هذه السلسلة من الأعمال هو حوض ديالا ـ نهر أوين شرق بغداد الذي اضطر إدارة الآثار إلى سبر قناة عرفت في العهد العباسي باسم نهر أوين حيث، اختفت على أطراف سامراء. وهذا التنقيب سمح بالعثور على مواقع أخرى مثل بني الغنيد. وكما رأينا قام الأمريكيون بسبر منطقة ديالا، وكافة المشاريع الأخرى تابعتها إدارة الآثار. فمشروع وادي الثرثار سمح عام 1948 بالتنقيب عن 4 صروح إسلامية في المنطقة الشمالية لبحيرة الثرثار. أما (القائم)، على الفرات، بجانب الحدود السورية والأقل أهمية فقد ترك 3 مواقع.

أظهرت أعمال الردم الهامة من أجل تحقيق مشروع تنظيم الفرات الأوسط (مسيب الكبير) في المنطقة بين الخيلي والناصرية 63 موقعاً. وأهم المواقع دخلت في السبر بعد التحقيقات بين 1955 ـ 1958 ومن بينها خمسة مواقع إسلامية.

بني خزان عام 1962 (رشدي خان)، جانب الحدود الإيرانية، فاضطر الأمر إلى تنقيب سهل شهرزور بين 1955 ـ 1956. وقد قمنا بفهرسة 11 منشأة إسلامية، حيث تكمن واحدة على (طب بكر أوا)، أهم موقع في المنطقة والذي لم يشمل في القائمة. وقد نشرت هذه الأعمال في كتيب وكذلك في مجلة سومر.

في مجمل الأحوال، نشرت هذه الأعمال بإيجاز، عدا سهل شهرزور وحوض ديالا حيث سنستفيد من بحث أدامز. إن مؤلفات بريدوود التي تعالج فترة ماقبل التاريخ تترك مكانً بسيطاً للإسلام. وفي النهاية، فإن دراسات مشروع (مسيب) أودعت في أرشيف إدارة الآثار، فبات من الصعب تكوين صورة محددة عن الأعمال في الفترة الإسلامية انطلاقاً من أعمال الإنقاذ تلك، فكان مصدرنا الأساسي قائمة البيرت حايك التي تقدم المواقع الأساسية فقط.

السدود الكبرى 1977 ـ 1988

السلسلة الثانية من المشاريع الكبرى التي تتجه لتحسين التحكم بالمياه في بلاد الرافدين تتضمن بشكل أساسي 3 سدود وهي:

(حمرين) على ديالا و(قادسية) على الفرات وسد (اسكي موصل) على دجلة. فقد اختلفت الأعمال في تلك المدن حسب التنظيم. في الحقيقة، تم الإعلان مع هذه الأعمال عن رؤية جديدة للعمل بالآثار في العراق. واتبعت العراق مثال بلاد أخرى في الشرق الأوسط وقامت بدعوة لمشاركة دولية لأول مرة، وتعاونت الفرق الأجنبية في المشاركة مع المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث.

أما الفرق العراقية الأخرى فقد كانت تابعة لجامعة الموصل أو جامعة بغداد. لقد استثمر العراق كثيراً في ورشات الإنقاذ هذه وأخذ على عاتقه قسماً من التكاليف الإدارية للفرق الأجنبية كالإقامة والعمال. وقد اختارت هذه الفرق أماكن عملها بنفسها وقد نشرت نتائج التنقيب المختلفة في مجلات العراق.

جرت أعمال الإنقاذ في حوض حمرين بين 1977 ـ 1982 وعين مدير المنطقة مشرفاً على المشروع. وكانت الدول الممثلة: النمسا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإيطاليا واليابان. كانت دراسة حوض حمرين تشكل اهتماماً خاصاً لأسباب عدة. فموقعه في مركز المساند الجبلية الأولى لزاغاروس يشكل وحدة جغرافية مثيرة للاهتمام. إن التفرعات المتعددة التي تروي ديالى تشكل منطقة جذابة في بلد صحراوي. وفي النهاية، كانت طريقاً هاماً للعبور إلى إيران. في القرون الوسطى، كانت طريق القافلة باتجاه الحسين تقتبس من الوادي. وعلى سطح الحوض أي 450 كم مربع أحصي 75 موقعاً وقد تم احتلال 20 موقعاً في الفترة الإسلامية، وأظهرت حفريات مختلفة حركة تطور تواجد الإنسان في المنطقة.

سمح مشروع حوض حديثة لتدخل علماء الآثار بين 1978 ـ 1984. وقد تم تغيير تسمية المشروع إلى القادسية عام 1983. كانت الفرق تأتي من ألمانيا وكندا وبريطانيا وإيطاليا واليابان وبولونيا. وقد تم تنقيب ضفاف نهر الفرات وثلاث جزر كانت قد خبأت الفترة الإسلامية. كما وأجريت أعمال ترميم في هذا المشروع. فقد أعيد بناء مئذنة جامع في قرية جديدة وحفر 12 موقعاً إسلامياً.

بــدأ مشــروع حــوض (اسكي موصل) عام 1981 واستمرت الأعمال من 1985 ـ 1986. وقــد احتوى هذا المشروع على أكبر عدد من حفر الإنقاذ في الفــترة الإسلامية. وقد شملت نتائج الحفريات على أبنية مختلفة كالسكن والمقابر والأبنــية الدينية وغير الدينية. وعند تحليل ذلك نتبين أنه في حوض حمرين أكثر مــن نصــف المكتشــفات كانت مقابر ومن بينها المقابر القديمة الإسلامية. وفي ورشات القادسية لم يسجل أي نموذج على المستوى الإسلامي.

وعلــى العكــس، نرى اهتماماً بالأبنية الدينية السكنية. أما فيما يتعلق باسكي موصــل فقد تم التركيز على الأبنية الكبرى مثل الخانات أو القصور ولم يتم حفر أي بــناء ديني. هذه المنطقة التي عرفت السيطرة البيزنطية فترة أطول أبقت على ســكان مسيحيين، وقد عثر على كنائس. وفي جميع الأحوال، كل هذا يدل على الاهتمام بالآثار الإسلامية. فهي مهملة في ورشات حمرين وحاضرة في القادسية وبلغت الحد القياسي في اسكي موصل. نفذ في 1987 ـ 1988 مشروع الري في شمال وشرق الجزيرة. وقد أنجزت دراسة حوله مما سيسمح بتحديد نتائج الأعمال في حوض اسكي موصل.

أعمال الإنقاذ الأخرى

كان من الضروري إتمام دراسات أخرى من أجل تطور الاتصال والمراكز المدنــية. وبذلــك، نفــذت حفريات الإنقاذ في الفلوجة أثناء إنشاء سكة الحديد في بغــداد. ومــن جهة أخرى فإن إنشاء الطريق الدولي الذي يصل شفوان والبصرة بــبغداد وسوريا اضطر إلى تدخل علماء الآثار الإسلامية عبر 4 ورشات. فقد تم التنقيب عن مواقع قيشان درويش وغور الحميد التي تبعد عن بغداد بــ35 كم عام 1980 ـ 1982. وتابعــت الأعمال في منطقة البصرة في 1988 على موقعين، وقد تركت هذه الأراضي أبنية للسكن.

إن امــتداد المــدن فتح المجال أمام أعمال الإنقاذ غير المنتظمة. ففي بغداد سمح بناء مركز الكهرباء بحفر تل أبو شحيير. أما مد المدينة نحو الشرق بعد تبني مشــروع (مديــنة بغداد الحديثة) عام1946 فقد أدى إلى إجراء عدة دراسات لكن ليســت مــن الفــترة الإسلامية. وفي الجنوب تطور مدينة البصرة أعطى المجال لأعمال إنقاذ هامة من قبل أ.العزاوي.

الدراسات المبرمجة . تنظيم المدن

إن الأبحــاث المــتعلقة بتنظيم المدن مبينة على 3 أقسام: في البداية أعمال الترميم العراقية ثم دراسات التطور المدني، عواصم موجودة منذ وصول الإسلام أو أنشأت من قبلهم وأخيراً أعمال المدن الأخرى.

أعمــال الترميم: تتعلق أعمال تنظيم المدن في القرون الوسطى التي نفذها العراقيون غالباً بترميمات حسب التطور السياحي. أظهرت الحفريات أو بالأحرى أعمال التنظيف التي سبقت الترميم دراسة تاريخية وجغرافية حول عناصر مختلفة لذات المدينة يمكن أن تستخدم في دراسة تطورها.

فــي بغداد، سمح ترمي (خان مرجان) في أيار 1973 بالعثور على مستوى الأرض الأصــلية. اقتضت الأعمال الضخمة لإعادة (المدرسة المستنصرية) التي دمجــت على مر السنين مع السوق ورممت عام 1945 و1960 إلى تحليل كامل للمبــني حيــث نفــذه هــ.شميت. وقد اتخذ بيانات مصورة بين 1962 ــ 1963 أساســاً لدراسته الأثرية. ثم درست سليمة عبد الرسول قصر العباسيين الذي رمم الآن. وقــام طــارق الجنابــي بدراسة وتحليل الباب الوسطاني، الأثر الوحيد عن تحصين المدينة الشرقية. واهتم هؤلاء بالديكور ولم يحللوا هذه الصروح في إطار تطور المدينة.

إن أعمــال الترمــيم التــي سبقت الحفريات خارج بغداد لم تكن كثيرة: ففي البصرة أعطى خالد خليل حمودي العزامي بيانات أثرية في ترميم مسجد (القواز) وقام عبد السّتار العزاوي بحفر (ذو الكفل) قبل ترميم المسجد.

العواصم:

نقــدم فــي هذا القسم الدراسات التي أنجزت حول مدينتي سيسفون والحيرة، على الرغم من أنهما لم تلعبا دور العواصم في الفترة التي تهمنا، حيث أن دراسة المدن الكبرى المكتشفة عبر المسلمين عند وصولهم إلى العراق تبدو مهمة لتحليل الحضارة الإسلامية.

سيسفون

سميت منطقة سيسفون في العصر الإسلامي من قبل الجغرافيين العرب بالمدائن. وحسب التقاليد فهي مؤلفة من 7 مدن وحسب اليعقوبي كانت خمسة. من الطرف الشرقي (المدينة العتيقة) سميت سيسفون أيضاً بالقصر الأبيض الشهير الذي اختفى في القرن العاشر. و(اسبنبور) على بعد كم ونصف جنوباً و(إيوان كسرى) و(رومية) حيث أقام الخليفة المنصور فترة من الزمن. ومن الطرف الآخر للنهر يقع (بيه أرداشير) أو(بهوراشور) مدينة أرداشير التي سميت فيما بعد (كوخا) أو (كوشا) ثم (تل بارودا) وأخيراً سبط (بلس اباد) وقد أقام الفرس والساسانيون مدينتهم مكان العاصمة اليونانية القديمة (سيلوسي) التي أنشأت عام 300 ق.م.

إن التحدي الذي يواجهه الباحثون هو محاولة معرفة المدن المختلفة مع العلم أن مسار دجلة اختلف خلال الأزمنة. خلال عام 1968 ـ 1969 أظهر الفريق الألماني وجود الإسلام في (شوش) على تل بارودة ثم على (تل المعرض) عام 1931 ـ 1932. عمل الأمريكيون هناك فترة ستة أشهر ولكنهم نشروا القليل. بدأت الحفريات من جديد عام1967 مع الفريق الإيطالي، فقام الباحثون الألمان والأمريكان بتحليل تطور المدن من العهد السيليوسيدي حتى العهد الإسلامي عبر إعادة تفسير ودراسة المادة. وكانوا يعملون في مناطق قريبة من طق كسرى وتل عمر.

وفي الأعوام 1981 ـ 1983 عملت في المنطقة فرق من المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث.

الحيرة

تم فتح عاصمة اللخميين، الحيرة، في 633 من قبل الفاتحين المسلمين. وقد اشتهرت بأديرتها، وجاء ذكرها من قبل الجغرافيين العرب مثل ياقوت في معجم البلدان. وبقيت حتى القرن العاشر رمزاً للعظمة المسلوبة. وعرفت المدينة بقصورها كقصر الصدر والخورنق.

جرت الحفريات الأولى في 1931 ـ 1932 من قبل باحثين من جامعة

أوكسفورد. قاموا بسبر المدينة واستخلصوا مبنى كبيراً بطابقين لم تعرف هويته وكنيستين. وأقيمت عمليات على مواقع مجاورة.

في عام 1959، كان فريق من إدارة الآثار يعمل في الكوفة فقام بسبر (أم عرفة). وفي عام 1972 قام فريق إيطالي ـ عراقي بحفر مقبرة قديمة ساسانية تحمل معالم إسلامية. وفي النهاية، عمل فريق فرنسي برئاسة أوليفيه لوكونت على هذا الموقع ولكن بوقت محدد بسبب قرب التجهيزات ذات الأهداف الاستراتيجية للحكومة العراقية. ومع ذلك، استطاع الفريق جمع بعض قطع الخزف من فرن خزفي لدراستها لاحقاً.

إن إشعاع الحيرة في فترة ما قبل الإسلام واختيار موقع الكوفة أول عاصمة للمسلمين إلى جانبها والملاحظات التي سجلناها على أرض الواقع تسمح لنا بالتفكير أن هذا الموقع لعب دوراً هاماً في تكوين الهندسة الإسلامية.

الكوفة:

أنشأت مدينة الكوفة منذ عام 638 من قبل سعد بن أبي وقاص وأصبحت مقراً للخليفة الراشدي علي بن أبي طالب (656 ـ 661). من أوائل المهتمين بالكوفة لويس ماسينيون الذي قام (1935 ـ 1940) بشرح المخطط حسب المعطيات الواردة في بناء المدينة. ثم قام هشام جعيت بمتابعة العمل واستخدام نتائج الحفريات وقام بدراسة بروز المدينة الإسلامية. ثم حصر الحفريات لدار العمارة ما عدا بعض الأسبار في المدينة. وقد نشر محمد علي مصطفى نتائج الأبحاث في مقالات بين 1954 ـ 1964.

في عام 1067 أعاد كاظم الجنابي دراسة ماسنيون وقدم نتائج الحفريات لدار العمارة والجوار. انحنى الكثيرون أمام مخطط دار العمارة، أقدم قصر مدني تم التنقيب عنه حتى اليوم، محاولين تفسير بدايات الهندسة الإسلامية أو فك المخطط البدائي لتطور المدن، ولكن من المؤسف أن لا يتوفر سوى هذا المخطط لأول مدينة إسلامية في العراق.

بغداد

إن الدراسات العامة حول مدينة بغداد متوفرة. حاول غاي لوسترانغ عام

1900 إعـادة تركيـب طوبوغرافـيا بغداد في العهد العباسي انطلاقاً من كتابات الجغرافييـن. وإن كتابات اليعقوبي وياقوت هي الأكثر استخداماً وكذلك ابن جبير وابـن بطوطـة، حيث تشمل ملاحظات عديدة حول طوبوغرافيا المدينة والأبنية الرئيسة.

يعتـبر (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي دراسة أساسية لكنها لا تتعدى القرن الحادي عشر. قام المقدسي بتحليل تطوير المدينة في تلك الفترة وأول دراسة حول المديـنة كانت لنيبور حيث يظل تاريخه صحيحاً. أما ما كتب في رحلات باكنهام ولسـتد التـي نشـرت عـام 1827 و1840 فهي قيمة أيضاً ولكنها تفتقد إلى المصادر التاريخية.

يعـود أول تنقيـب فـي بغـداد إلى فيليكس جونز الذي زار الآثار وكتب ملاحظاته حول أسمائها وأماكن توضعها حتى الأقل أهمية. وتجدر الإشارة إلى أن أعمال العراقيين أنفسهم عن بغداد تعد هامة مثل أ.سوسى وم.جواد وم.ألوسي.

كانـت مديـنة بغـداد في القرون الوسطى تتشكل من قسمين كبيرين: على انعطاف دجلة على الضفة الغربية، المدينة الدائرية المنصور، ومن الشرق المدينة المحصـنة مـن قبل المستظهر عام 1095. وتم المحافظة على باب المدينة وهو الـباب الوسـطاني. وهدم باب الطلسم أثناء الأعمال عام 1917 وأعيد بناؤه في الثمانينات. وعلى جانب النهر تقع المستبشرية وقصر الخلفاء العباسيين. يضم إلى قسـمي المديـنة عدد من الأحياء مثل رصافة وشماسية ومحرم ومحول والكرخ وبعض الجسور.

قـام ج.لاسنر عام 1970 وأ.لابيدوس عام 1973 بدراسة تنظيم مدينة بغداد فـي بداية القرون الوسطى من العهد العباسي. وقد تطرق لابيدوس إلى المدينة ما قـبل الإسـلام وبـروز نوع جديد من المدن بعد الفتوحات. فبرأيه كانت مدارس القـانون تلعـب دوراً هاماً في إعداد مخطط المدينة. فهناك دراسات حول بغداد حسـب الأحـياء أو أنواع الأبنية. وقد اهتم الحديثي عام 1973 بتغذية المياه من الضفة اليمنى، أما لويد والنقشبندي فقد قاما بدراسة المدرسة المرجانية.

أجريـت دراسـات على المساجد من قبل س.ألوسي في 1968. وقام معهد الآثار العراقي ـ الإيطالي وإدارة الآثار بدراسة كاملة عام 1971، فقاموا بفهرسة

الآثار الإسلامية التي تم الحفاظ عليها في بغداد، ولم يكن أي كتيب أو فهرس كامل يضم الآثار المختلفة. كانوا ينظمون أبحاثهم حسب الأحياء ويعيرون اهتماماً خاصاً بالحمامات. ويبدأ وصفهم لحي الكرخ ثم الرصافة، وقاموا بتسجيل وصف وتأريخ البناء إضافة إلى الصور.

قــام البولونـــي أ.باســيتا بدراســة حـــي الكاظمية، وبالأخص اهتم بالأبنية المتواضــعة المتجمعة حول المسجد الشيعي الذي دمج مع مقبرة قديمة من القرن التاسع، وعلى الأغلب يعود تاريخ هذا المسجد إلى بداية القرن السادس عشر.

درس باســيتا هــذا الــنمط من المدينة الذي عمم بالمسجد وقارنها مع أمثلة مختارة من المغرب حتى إيران، وتبين دراسته الحالة الأثنية أكثر من الأثرية.

نرى أنه لم يكن من السهل دراسة المدنية في بغداد في القرون الوسطى. فإن الأعــداد الضــئيلة من الآثار المحفوظة من هذه الفترة وغياب الحفريات يحد من إمكانية تجديد المعلومات.

سامراء

أنشأت مدينة سامراء في عام 834 من قبل المعتصم ابن هارون الرشيد الذي خلــف أخيه المأمون. وقد أعطى اليعقوبي تفاصيل عن تنظيم المدينة الجديدة. من بيــن الخلفاء الثمانية الذين تعاقبوا كان المعتصم أكثرهم بناءً وكذلك ابنه المتوكل الذي قام بتوسيع المدينة نحو الشمال.

كمــا أشــرنا سابقاً فإن رواد الآثار هم فرنسيون، حيث كان لويس دو بيليه ولويس ماسينيون أول من زارا سامراء. لقد نفذ السبر الأساسي من قبل فيولي في قصــر الخلفــاء عام 1907 ثم استكمل إيرنست هيرزفلت الحفريات حتى الحرب العالمية الأولى. عمل أيضاً على المسجد الكبير في بالكوارا وقصر العاشق في تل علــيقق وعلــى عشــرة بيوت قرب المدينة الحالية. وترك لنا المخططات الأولية للمديــنة. وبقيت أعماله لفترة طويلة المصدر الوحيد لفترة العباسيين. إن حفريات العراقييــن في سامراء جرت في 1936 و1939 في مدق الطابول وشارع العظم فــي كرايــنا وكذلك في حويصلة في الطرف الآخر من دجلة الذي اختفى. بدأت أعمال الترميم عام 1936 في أبو دلف ثم استؤنفت عام 1944 في المسجد الكبير

في الملوية وفي قصر العاشق وفي قبة الشليبية على الضفة الشرقية من دجلة.

في عام 1963 حفريات أ.حميد أظهرت حياً للسكان في غرب المسجد الكبير. في عام 1978 استؤنفت عمليات الحفر والترميم وظهرت منطقة سكنية من عام 1979 ـ 1982 وكذلك قبر أبي دلف بجانب المسجد الذي يحمل نفس الاسم وأجريت له ترميمات جديدة.

يعمل الفريق البريطاني ألاستر نورتج منذ عام 1981 في سامراء. وقد وضعت إدارة الآثار مشروعاً (لتطوير المدينتين التوأم سامراء والمتوكلية). ووضع الفريق مخططه حسب معطيات الصور الملتقطة من الجو في العشرينات وحتى الخمسينات. وأجرت حملات تنقيب على الأرض عام 1983 ـ 1989 مما سمح بتحديد عدد من مخططات أبنية وتأريخ أحياء مختلفة. حيث استطاع أن يبرهن أن الاحتلال امتد من عصر ماقبل الإسلام وحتى القرن الثالث عشر. وبرأيه أنه من الواضح تواجد معسكرات حول القرى الموجودة سابقاً وليس بشكل عبثي. لقد حاول تحديد خطة تطور المدينة في سامراء وترك دراسات بحسب الأحياء أو تركيبها.

ونجد أن الأبحاث المدنية الوحيدة التي استخدمت الآثار بشكل حقيقي هي دراسة سيسفون التي تقدم رؤية تأريخية لتطور المدينة، وكذلك دراسة سامراء التي تعرض تقديماً أفقياً للموقع وهذه الدراسات تحدد شيئاً فشيئاً تطور المدينة على مر الزمن.

المدن الكبرى الأخرى

عند قدوم الإسلام، لم يكن هناك أمام نينوى سوى دير أنشئ عام 570م. وفي القرن العاشر كانت مدينة الموصل تملك سوراً نصف دائري ومسجداً تم ترميمه عدة مرات، وقد عرفت تطوراً هاماً في زمن سيطرة السلاجقة في 1127.

وقد نشرت أغلب الدراسات عن المدينة في مجلة سومر من قبل سعيد الديواغي عام 1947 ـ 1964. وكانت تشتمل على جدار وأحياء ومدارس وقلاع. وتم تخصيص العديد من الدراسات حول المساجد أو مقابر القديسين. وحسب معلوماتنا، هناك دراسة واحدة حول المدينة في النجف وهي عبارة عن

تحليل لجدران التحصين.

أنشـأت مديـنة واسـط في 702 ـ 705 من قبل الحجاج، على منتصف الطريق بين البصرة، الكوفة والحلوان. جاء ذكرها عند الجغرافيين العرب جراء موقعها مـن دجلـة ولكن بسبب تغيير مجرى النهر أضحى وصف المدينة غير صـحيح. وقـد جرت أعمال الحفريات بعد تحديد الموقع. وقام فؤاد سفر بأبحاث حـول المسـاجد مـثل جـامع الحجاج الذي ضم إلى دار العمارة، ويضم البحث مخططـات لأبنـية تعطـي لمحـة عن الخزف هناك. درس المقديدي حَسَبَ تلك المعطيات مخطط المدينة في الفترة العباسية، وتأتي أعمال التنظيف والترميم لتهيئة المدينة من أجل استثمارها سياحياً.

أنشأت البصرة في القرون الوسطى عام 635 وكانت ميناء هاماً للتجارة على الخلـيج العربـي ومدينة لعبور المسافرين. قام لويس ماسينيون، كما سبق بتفسير مخطـط المدينة معتمداً على النصوص. وبدأ رالف سوليكي بالحفريات في الزبير في نيسان عام 1953، وحدد مرحلتين أساسيتين للاحتلال في تحليله لمسجد الإمام علي والعديد من المنشآت السكانية. درس أ.ناجي ود.علي نمو الاقتصاد في المدينة عبر أسواقه وحللوا توضعات الأسواق وتكوينها.

تعتبر الأعمال التي أنجزت على المدن الكبرى في بلاد الرافدين في القرون الوسطي أقل مما أنجز على العواصم وتعتمد بالأخص على النصوص. والحفريات التـي تنفذ تتعلق بالآثار الرئيسة كالمساجد أو القصور وتقل على المنشآت السكنية أو المناطق الحرفية عدا حالة البصرة. ولهذه الأسباب كان الباحثون يميلون لتحديد مـناهج أخـرى لتحلـيل المدنـية، فمثلاً أوليك كرابار يعرض المدينة بناء على المساجد.

الهندسة

سـوف نـورد ثلاثـة أنمـاط من البناء: الأبنية المحصنة كالقصر والخان والأماكـن المحصـنة. والأبنـية ذات الطابع الديني، المساجد والمدارس القرآنية والمقابر والأضرحة، وأخيراً هندسة البيوت.

الأبنية المحصنة.

تجـتمع تحـت هـذه التسمية كافة الأبنية التي يتسم شكلها الخارجي بطابع التحصين. وكان لفظ القصر يستعمل من أجل الدلالة على ذلك ويمكن لتلك الأبنية أن تستخدم لأغراض السكن أو التجارة أو الدفاع.

هندسة القصور

لقـد تمـت دراستها في منطقة المدينة مع دار العمارة في الكوفة. الدراسة عبارة عن مثال وحيد لقصر مدني في العصر الأموي أطلق بأكمله في العراق مما أثـار التعليقات. بالنسبة لروسن أيالون هذا النوع من المخططات، سور مضاعف على مسند نصف دائري وتوزع محوري للأقسام الهامة كالباحة (الإيوان) وصالة الاستقبال، سوف تؤثر على الهندسة الأموية.

لـم يـتم حفر دار العمارة في واسط بالكامل لكنها تعرضت للسبر مما سمح بتحديد أنها، كما في الكوفة والبصرة، وصلة من القصر إلى المسجد منضدة على حائط القبلة.

لقـد اختفـت قصـور بغـداد كلها ولم تعرف مخططاتها، لكن وصلنا مقال ج.سـورديل حـول الفن في بغداد في الفترة العباسية حيث يعدد القصور المختلفة التي وجدت في بغداد.

يعـود الفضـل فـي معرفة قصور العباسيين في العراق إلى أعمال التنقيب والحفـريات لموقـع سامراء. تعد قصور الخلفاء على الأرض سبعة. على النهر، للمعتصـم (الجوسق الخاقاني) وللمتوكل (قصر الجعفري) وبالكوارا بناه المتوكل لابـنه والقادسية. وعلى الضفة الغربية الحواصلية عرفت كقصر المعتصم وقصر العاشـق بني عام 878 من قبل آخر خليفة في سامراء المعتمد والاستبلاط. يمكن لمقر سكن آخر أقل أهمية أن يعتبر قصراً، ويقع على سور أشناش وسور غبيرية والمشـرحة في شمال شرق القادسية، وقد كانت بقايا من أهل المقامات العليا في الدولة.

قام فيولي ثم هيرزفلت بالحفريات في الجوسق الخاقاني. وقام الأخير بأبحاث فـي بـالكوارا وقصـر العاشق. عمل العراقيون عام 1930 في الحواصلية في

المنطقة المركزية فقط. وقد تمت الحفريات في القصور الأخرى من قبل نورترج. إن أكـبر مسافة لتلك القصور تصل إلى 500 متر على وجه التقريب، تطل على دجلـة حيث الضفة مفروشة بالحدائق والأحواض. وتظهر عدة أشكال لكن يغلب علـيها الشكل المربع مع ترتيب محوري في الداخل. لم يهيأ قصر العاشق، الأكثر تواضـعاً، كالآخرين بسور ضخم كي يحمي الحدائق والتوابع. إن لاثنين من هذه القصـــور مخططـــات خاصـــة وهي الاستبلاط المطولة مع ترتيبات داخلية بشكل متناظر، والقادسية الذي لم ينته وهو مسور بشكل مثمن. بنيت هذه القصور خلاف فـترة 56 سـنة عندما كانت سامراء عاصمة، مما يبين عزم كل خليفة على محو سـلفه وإضـافة أشـياء معينة على أبهة الفترة الأولى للعباسيين. لم تكن القصور المنعكس الإيجابي لهندسة القصور، إنها تمجيد لعبقرية المهندسين في سامراء.

كـان قصـر الأخيضر يعتبر القصر الوحيد في صحراء العراق لمدة طويلة ويشـك فـي تأريخه. فحسب دراسة ورنر كاسكل أقيم القصر عام 762 من قبل عيسـى بـن علي وكان يسمى قصر المقاتل. ويبدو أنه يخلط مابين الحصن الذي اكتشـفه ب.فينسـتر وشميت عام 1973 في تل الأخيضر. فبالنسبة لكروسل أقيم القصـر عـام 775 بعـد تقـاعد عيسى بن علي وقبل أن يعتبر الخلفاء سامراء كعاصمة عام 836.

يمكـن ذكـر دراسـة لويس ماسينيون حول الأخيضر ثم جاء كروسل عام 1930 ـ 1936 ليضـع مخطـط القصر. فتح أول سور من أربعة مداخل ويقع السـور الثانـي على الجهة المعاكسة. وفي الداخل فقد شيد البناء بشكل محوري. ويقـود المدخـل إلـى القسم المركزي المؤلف من سطحين ومحاط بممر ثم باحة ومنطقة المسجد، وقد بنيت أربع شقق حول الباحات الثانوية.

أخلت المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث عام 1975 منشآت ملحقة في شـمال الحصـن. في عام 1980 ـ 1982 تم حفر حصن ذي سطح قائم الزوايا على بعد 300 متر شمال غرب. وكانت أساسات السور ذات المساند الدائرية من الحجـر. وقد ظهر بالقرب مبنى آخر بقاعات حول الباحة من الفترة العباسية. إن الاكتشـافات في السنوات الأخيرة تجعلنا نفكر بأن هذه الأبنية المؤرخة من العهد العباسـي ليسـت كمـا نظن (قصور في الصحراء) معزولة حيث بنيت إرضاء

لرغبة وذوق أحد الحكام. ويجب أخذ الأمور بشمولية كي نعبر بشكل صحيح. فمن الممكن أن يكون قصر المقاتل في الشمال على الطرف الآخر من وادي عبيد أهمل بعد بناء هذا القصر.

لقد تمت حفريات على بيوت أقل أهمية في نيليا وخربة البستان وعنبة، حيث وجدوا قطعاً متجمعة اعتبرت كقصر في الصحراء من العهد الأموي. ويعود مبنى سومقا إلى نفس الفترة الزمنية وكذلك الأمر بالنسبة إلى أم عارف الموجود في منطقة الحيرة. وأخيراً، تعود العناصر الجديدة والمفيدة في دراسات القصور العراقية إلى أعمال نورتج في سامراء.

الخانات:

يقدم كارل مولر في عمله حول خانات الشرق الأوسط نشر عام 1920 نوعين من الأبنية: خانات الطرق وخانات المدن. والمثال الوحيد لخانات المدن هو خان مرجان ويوجد في بغداد وقد بني في القرن الرابع عشر. وهو عبارة عن غرف متفرقة تتوزع على طابقين وتفتح على باحة واسعة. تمت دراسته من قبل المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث قبل ترميمه عام 1972.

يبنى الخان أمام جدار سور بشكل مربع مع مساند نصف دائرية ويسند غرفاً تطل على باحة مفتوحة السماء ومسجداً صغيراً يشارك في المبنى. هذا هو نموذج الخان الذي رآه مولر في خان حرنينا.

درست جامعة البصرة في تل الشويبة بناء يتضمن عند المدخل إيواناً وعدداً من الغرف المرتبة.

لقد تم اكتشاف العديد من الخانات في حوض اسكي موصل: في حربوك وبكاك وخربة مشرفة ومشفينة.

وجد ج.رتلنغر عدداً من الأمثلة في منطقة سنغر في اسكي موصل وكوتشوك كوبرو وحرية الخان حيث يعود تاريخ بناؤه إلى بين 1234 ـ 1258 حسب تقرير من أبو ماريا يشار فيه إلى ياقوت. فكل هذه المنشآت بنيت من الحجر وتعود إلى القرن الثالث عشر.

لقد درس كل من باربرا فينستر وجورجن شميدي المنطقة بين الفرات

والصـــحراء السورية. وكان هدفهما عام 1973 تحديداً على أرض الواقع للأبنية المخـتلفة المحصـنة والمذكـورة من قبل الجغرافيين العرب. فقد زار العديد من باحثـي الآثار والرحالة في بداية القرن عدداً من المناطق التي ذكرها ياقوت مثل ماسـينيون وميسل وبيل حيث وضعت العديد من الفرضيات في إطار تاريخي ــ جغرافــي. في الحقيقة شكلت هذه المنطقة في الفترة ما قبل الإسلام طريقاً دفاعية ضد قبائل الصحراء العرب السوريين، ولكن بعد ذلك، أضحت من الطرق الرئيسة لمرور القوافل التي تضم الخليج العربي مع البحر المتوسط. إن اختيار الطرق لا يعتمد فقط على الشروط الجغرافية بل على التجهيزات الأولية.

وفـي هذا المنظور تمت دراسة المواقع المختلفة: بحر الملح وتل ضبة وأبو غير وتل الحرايب ونقرة السلمان وتل أب صخر وقصر شمعون وتل الأخيضر. أمـا عطشـان ومجـيدة وبير النص وأم قرن وطالحة وحمان فهي محطات على طريق مكة.

كـل هذه الأبنية لها شكل مربع مع أبراج ووسطها نصف دائري. ويتوضع المدخـل فـي مركز أحد الجوانب. والقاعات حول الباحة أحياناً على صفين ولا تحـتل بالضـرورة الأوجه الأربعة. ويمكن أن يكون المدخل محصناً. ترافق هذه الأبنية تجهيزات مائية وأحواض وآبار وخزانات وأقنية.

بالنسبة لفينستر فإن هذه الأبنية حتى ولو كانت تذكرنا بخانات إيران إلا أنها ليسـت للعامة بل شخصية. وتقريباً في كل الحالات، فإن هذه القصور التي تعود إلـى فـترة الأمويين أو بداية فترة العباسيين فقد أعيد بناؤها فوق أو إلى جانب المنشأة الأولية من ذات الطراز ولكن بمواد مختلفة.

تقـدم هذه الأعمال مخططات لمواقع مختلفة وتثير الاهتمام بمعطياتها ويبقى النقاش مفتوحاً حول استخدامها. لقد كانت دراسة الخانات معمقة أكثر من أشكال الأبنية الأخرى.

الساحات المحصنة:

إن هذه المنشآت المحصنة تحمل طابعاً دفاعياً بحتاً. لقد ذكرت قلعة الموصل عـدة مرات من قبل الجغرافيين العرب. وبحسب المقدسي (985 ــ 986) كانت

تسمى المربعة. وبحسب ابن جبير (1148) القصر ـ القلعة وتقع على مرتفع من المدينة وتسمى ناش طبية، وقد ذكر ياقوت عن دمارها في عام 904.

لقد أضحت ثلاث مناطق محصنة موضوع بحث لعلماء الآثار. وقد كشفت الحفريات في ياسين تبة عن حصن من صفين من الغرف على طرفي الباحة. في أربيل عام 1984 تم تشكيل (لجنة تطوير قصر أربيل) ولكنها اهتمت أكثر بعمليات الترميم وحددت أعمال الآثار بالتنظيف. من المرجح أن تكون قلعة مدينة القنيطرة والتي قدمها هارون الرشيد إلى زبيدة كهدية، من العهد ماقبل الإسلام، وأقيم السور من الطرف المقابل لدجلة وله مساند بزوايا قائمة، ولم يدرس هذا النوع من الأبنية حيث غالباً ما يعيد الأشكال القديمة.

الهندسة الدينية والجنائزية

المساجد

أقام كروسل مخططاً لمسجد المنصور حسب النصوص، حيث يقع في مركز المدينة الدائري في بغداد. وقد دلت الترتيبات المتواصلة على وجود ثلاث مراحل للبناء في عام 766 أو للتوسيع (808 ـ 809). ويتألف المسجد من سطح مربع مع باحة أروقة مضاعفة.

إن مساجد الكوفة وواسط هي أيضاً مساجد أموية. فجدار القبلة مسند إلى قصر الخليفة أو الحاكم. كانت المساجد في المدينة القديمة في واسط تكتشف بشكل منهجي. إن الحالتين المختلفتين لمسجد الحجاج يقدمان اتجاهين مختلفين تماماً. والمسجد الثالث أفرغ خلافاً للاثنين الأولين.

حافظ المسجد الكبير في الزبير عام 1972 ـ 1973 على إحدى المئذنات على ارتفاعها، ويقدم حائط القبلة أشكالاً تزينية من القرميد.

إن المساجد الكبرى العباسية في سامراء هي مسجد الجمعة بمئذنته المشهورة، الملوية، التي بناها المعتصم، ومسجد أبو دلف شيده المتوكل في 860. وقد قام كروسل وهيرزفلت بدراستها وقد رممتا عام 1940 ـ 1944. هناك سور يحيط بهما وطولهما مهيب ولكل منهما مئذنة تقابل حائط القبلة.

والمـــثال الآخر والوحيد في العالم الإسلامي للمئذنة على الشكل اللولبي هو مسجد أبن طولون في القاهرة. في أبو دلف، ضم منزل خليفة إلى القبلة، وقد كانت قد اكتشفت من قبل المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث في 1978 ــ 1980 . وهناك باب يسمح بالدخول مباشرة إلى المسجد وقد اتبع هذا الشكل تحسباً للقتلة.

بقيت مساجد سامراء على شكلها الأصلي وأعطت صورة أمينة للهندسة في تلك الفترة.

وتعتبر المساجد الأخرى من النوع المتواضع. نزع الردم عن مسجد متوسط الأهمــية فـــي خـــربة، تطـــل قاعة الصلاة على باحة مبلطة بالقرميد فيها أروقة والمحراب بجانب المنبر مزين بكتابات. وقد شهدت ثلاث مراحل من الاحتلال من القرن الثالث عشر وحتى الرابع عشر.

أطلـــق العديد من المساجد أثناء أعمال مشروع القادسية. وقد نشرت دراسة حـــول مقـــام علـــي مـــن قبل ف.سار عام 1908. فقد وجدت مقبرة عثمانية في المنشآت القديمة. كان مسجد ذو أعمدة رمم عام 1193 يملك ملحقاً لغرفتين مثمن الشـــكل يوحي بالمأتم، وبقربه مسجد آخر أكثر تواضعاً من الفترة الأموية أو بداية الفترة العباسية. لقد أعيد استخدام أول بناء عباسي في قانا، مسجد مع ملاحقه، في الفترة العثمانية. وكانت المئذنة قد تغير مكانها وأعيد بناؤها في قرية حديثة. ونجد هـــذا التاريخ في الخليلية حيث تملك المساجد قاعة بسيطة قائمة الزوايا من الحجر وباحة.

وهناك العديد من المساجد الخاصة ذكرت في مواقع مختلفة. وكانت متداخلة فـــي المـــنازل ومخططها بسيط: وجهة مكة لم تكن بالضرورة مبنية بحجرة. وفي عنبة فإن المحراب مغطى بقبة. هناك مثال آخر للمسجد الخاص في تل الأخيضر نقـــب مـــن قبل ب.فنستر. ومخططه بسيط مؤلف من قاعة للصلاة قائمة الزوايا وباحة مربعة الشكل، وحجرة المحراب مزخرفة.

هـــناك بعـــض الدراســـات عن المساجد أقيمت قبل الترميم. تلك كانت حالة المظفـــرية فـــي أربيل وقمرية والبصرة. يؤكد علماء الآثار في المنظمة الحكومية للأثـــار القديمـــة والـــتراث على الزينة بشكل عام ويكتفون بدراسة هندسية دون الوصول إلى الحفريات حيث تكون غير ممكنة في أماكن دينية فاعلة.

تم نشر الدراسات عن مساجد بغداد عام 1966 من قبل العزاوي وعام 1968 من قبل ألوسي. من بين المساجد القديمة بقيت مئذنة الحفافين التي بنيت عام 1184 مـــن قبل زمرد خاتون، ومئذنة سوق الغزل والقمرية والجنائز التي تتبع الآن مسجد معروف الكرخي. وقد تم بناؤها في القرن الثالث عشر على وجه التقريب. يمكن أن يعـــود مسجد عمر سهروردي الواقع إلى جانب باب الوسطاني والمبني على مقبرة حـــتى عـــام 1234، وقد رمم في القرن الرابع عشر. إن بعض الأقسام من مسجد العقولي المرمم تعود إلى القرن الرابع عشر كالقبو والمئذنة. وكافة المساجد الأخرى المحافظ عليها في بغداد يمكن أن تكون بنيت أو عدلت في الفترة العثمانية.

الأضرحة والمقابر

تعتـــبر دراســـات المقابـــر القديمة قليلة جداً. وقد وُجِدَ العديد من المقابر في المســـتويات العلـــيا مـــن ورشات الإنقاذ ولكن لم يكتب عنها. فقد وصفت هيلجا تريـــنكولدر المقابر التي عثرت عليها: فالجسم ممدود والرأس باتجاه مكة ويظهر الميـــت مزيناً بالحلي من الطين. ويبين مكان المدفن على مستوى الأرض ببعض الأحجـــار حيث اثنان هما الأهم: عند رأس وعند أقدام المتوفي. وهذا المثال يدلنا علـــى أن هندســـة المقابـــر في الفترة الإسلامية لم تكن متطورة كما في الفترات الأخرى.

حظيـــت أضـــرحة الإسلام بدراسات لا بأس بها. جهز ت. ألين قائمة مقابر الخلفـــاء العباسيين في بغداد. وبرأيه لم يبق أي من تلك الأضرحة. فالرضي توفي عام 940 والمعتصم عام 1258. لا يوجد أي ضريح معروف في العالم الإسلامي قبل 862. وقد قام ستريكا وخليل بإعادة أضرحة إلى بغداد مثل قبر الحلاج (توفي عـــام 922) في مسجد معروف الكرخي وهو مؤلف من قاعتين وقبة مرتفعة. أما قـــبر محمـــد شكراني، فيقع على بعد 30 كم من بغداد ويسبقه إيوان، والمحراب مزيـــن بالمكـــرنش. وفي النهاية، فإن قبر زمرد خاتون الذي بني في نهاية القرن الثاني عشر أو بداية القرن الثالث عشر مغطى بقبة مقرنصة.

نذكـــر مـــثال الموصل من بين الأمثلة المدنية، فهناك ضريحا زين الدين والنبي يونـــس الـــذي بني بجانب موقع نينوى الأثري. وشيد في القرن السادس عشر ضريح جرجس.

تعتبر أضرحة الإمام يحيى أبو القاسم وشيخ الشط وأمثالها ذات ميزة خاصة كونها مدموجة مع منشآت دينية أخرى، وهنا ألحقت بتلك الأضرحة مدرسة.

إن الضـــريح الأكثر ذكراً هو ضريح الإمام در في شمال سامراء الذي يعود إلـــى عام 1085 وتعلوه قبة مقرنصة وهو الأول من نوعه في العراق. وله سطح مـــربع أســـند بمساند دائرية بين الزوايا. وأشهر قبر في سامراء هو قبة الشلبية، فســـطحه مثمن الشكل، وقد رمم من قبل المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث واعتـــبر مقبرة المستنصر الذي توفي عام 862 أو المعتمد الذي توفي عام 892. القـــبر الثاني في سامراء هو قبر أبو دلف بجانب مسجد شاعر في عهد المأمون. وحســـب الجنابـــي فـــإن هذا المبنى مقسم إلى باحتين وحمام ومئذنة وقاعة مثمنة الشكل من الداخل ومربعة من الخارج، مما يوحي بأن المكان كان ضريحاً.

قـــام باولو كوستا بدراسة مقابر شط النيل ووصف مقبرة الإمام النجمي التي تشـــبه مقـــبرة الإمام در. فالقبة فوق ثماني قناطر تغطي قاعة بنوافذها ويحيط بها جدار من القرميد. أما مقابر أم الأولاد وأبو حطب فتملك مساند نصف دائرية. وقد كانـــت هذه المنطقة مسكونة بين القرنين الثامن والثاني عشر. ولم تكن المعلومات حـــول الأضـــرحة مفصـــلة بشـــكل كـــاف لكن قام المؤلف بتاريخ ما سمحت به الخزفيات.

عثر رتلنغر على بعض آثار المقابر خلال الحفريات في وادي سنجر. لقد تم تصنيف المقابر في بلد سنجر من قبل هيرزفلت: ضريح الست زينب أخت الإمام علـــي وضريح الشيخ سويدي سنجري الذي رمم عام 1983، وضريح قنبر علي بسطح مثمن مع قبة مقرنصة.

إن الضـــريح ـ المصلى لعلي بن وهاب منزو تماماً على بعد 25 كم جنوب بلـــد ســـنجر. وفي نهاية الأمر تجد الإشارة إلى أن المصطلحات التي استخدمت للدلالة على المباني المذكورة لم تكن دائماً متطابقة. فتحت تسمية "قبر" تظهر فقط الهيئة الجنائزية وتحت تسمية "ضريح" تظهر الهيئة التذكارية وتحت تسمية "مسجد" تظهـــر الهيئة الروحية. والأبنية التي أسلفنا عنها على وجه العموم تقوم بكافة تلك الوظائف.

يظهـــر نوعـــان مـــن الأبنية: الأبنية المدنية المعزولة أو المدمجة كالمسجد

والمدرســة ومــن النوع الآخر الأبنية المعزولة حيث تأخذ وظيفتها التذكارية بعداً آخر في الصحراء كالحماية أو كعلامات الطريق.

المدارس

لقد ألحقت المدارس في الموصل بالمقابر والأضرحة أو المساجد. وقد حددها الدواجــي بســبع عشرة مدرسة حسب المصادر المكتوبة. في بغداد أيضاً ألحقت المدارس بأبنية أخرى. فتقع المستنصرية خلف مسجد الحفافين. ويعطي ماسينيون وفيولي صورة قبل الترميم. فقد تركت في القرن الحادي عشر، ثم ألحقت بالسوق. ويفســر شــميد أن كونهــا أول مدرسة تجمع أربعة طقوس سنية فتأثر المخطط بوظيفة المبنى الجديدة. فهو يحلل التزيين الهندسي ويحدد قسماً من القصر العباسي مع المدرسة البشيرية التي بنيت عام 1225.

تقع المدارس الأخرى التي تمت دراستها في المرجانية بجانب خان مرجان، وتعتبر النظامية هي الأهم بينها وقد بنيت عام 1037 ولا أثر لها اليوم. وقد تمت المحافظة على الأبنية ذات الأشكال الدينية ودراستها. كانت الأضرحة والأبنية ذات القطعــة الواحــدة وذات الهيـئة التذكارية تقاوم الحت والتلف أكثر. وبعد مجيء العثمانييــن الذيــن جزؤوا الرافدين إلى مناطق مستقلة، لم تستطع المدارس لعب دورهــا فــي نشر مذهب الدولة واختلفت شيئاً فشيئاً أو تغيرت. أما المساجد فقد تابعــت تطور المدينة وكانت ترمم بتواتر عدا في سامراء. فعملياً، من المستحيل دراسة بناء من هذا النوع في حالته الأصلية.

المنشآت السكنية

إن المعطــيات المــتوفرة لا تعــود إلى الفترة الإسلامية والمصادر المكتوبة ضعيفة المستوى. بالنسبة للموصل، نعلم عبر ياقوت أنه هناك بيوت من الحوار أو الرخام بأسقف من القبب، وهذه بيوت هامة للغاية. خلال عمليات الإنقاذ تم العثور بصعوبة على جدران وبعض المواقد. أما في حمرين فقد عثر على تل أبو الجب. ويحتوي المبنى على اثنتي عشرة غرفة حول باحة مركزية. ويمكن لبعض البيوت التي عثر عليها حول مجمع ديني في القادسية ومقام الإمام علي أن تعود إلى الفترة العباسية. أما البيوت في فحيمي فمقسمة على طرفي الباحة ونجد آثاراً لتجهيزات مائية. وفي بيجان هناك الحي السكني العباسي الذي عثر عليه ميشيل كوليكوسكي.

توحي الدراسات حول السكن إلى استخدامات المخططات الموزونة، فالمواد كانت مختلفة. ففي حوض صدام في تل بير حامي تتكون الوحدة السكنية من باحة وخمس غرف. وفي قصر الملالي هناك غرفة واحدة تطل على الباحة. أما في تل عمران فالأرضية مبلطة. وفي خربة البيوت متواضعة مبنية من القرميد وأرضية من التراب.

في البصرة، عثر على جزر سكنية، وكذلك الأمر في واسط. أما في منطقة سيسفون فقد عرفت الأبنية السكنية في الفترة العباسية أعمالاً مختلفة في تل علي الحتي الكبير وفي تل السديرة وتل بارودة. تضم الأبنية العديد من الآبار والأقنية المائية وهي مبنية من القرميد مع أهمية أقل من العصر الساساني. إن حمامات البيوت في أبو سهير هي أحواض طينية. وفي حبيبية عثر على شارع ببيوته وحماماته وآباره وأقنيته.

لقد تم تقديم الحفريات في سامراء بدقة أكبر. فدراسة شارع العظم أظهر سلسلة بيوت مزينة بكثرة ووحدات سكنية مزركشة بمساند دائرية ومداخل محصنة. فهي عبارة عن معسكر جنود منظمة من قبل فصيلة الجيش لا يمكن مقارنتها بالأمثلة السابقة.

في عام 1936 أُظهر العديد من البيوت في مدق الطبول. وكانت عبارة عن خمسمائة غرفة تقريباً متجمعة حول باحات ذات وظائف مختلفة. وفي عام 1979 قام الجنابي بالعثور على بيوت بأشكال مختلفة ذات مخططات بسيطة فالغرف متوضعة على عدة أطراف من الباحة. أما الحمامات فهي من الحجر الطيني ويمكن أن تكون الأرضية مبلطة بالقرميد أو الطين. وكانت إحدى تلك الدور تملك سرداباً. وأخيراً فإن المساجد الخاصة الصغيرة كانت متوفرة بكثرة.

وهناك عدد من المنشآت لم تجر دراستها مثل الجسور في اسكي موصل والخربة أو الحمامات. وقد أشار ستريكا وخليل إلى ذلك في بغداد والتي تعود كلها إلى الفترة العثمانية. لقد عثر على أبنية مماثلة في كيش وسيسفون في الفترة الساسانية. وبحسب خليل وستريكا فإن الحمامات في البيوت الأموية في سوريا تشكل نماذج للأبنية التي بنيت في الفترة الإسلامية. وتظهر الحمامات العامة خلال الفترة العباسية في بلاد الرافدين. أما الحمامات العامة ما قبل الإسلام فقد كانت

تســـتخدم فـــي سوريا وفلسطين، وهناك حمام واحد معروف في سامراء يعود إلى العهد العباسي.

إن الدراسات القليلة المسخرة لهذا الموضوع ليست كافية، مما يفسر الرجوع إلى أمثلة بعيدة الزمن كي نستقي النتائج الصحيحة.

حالة البحوث

الدراسات القديمة

تعطـــي كـــتابات الجغرافيين العرب رؤية مختلفة عما هي الحال عليه اليوم. حـــتى وإن لم تكن تصوراتهم إيجابية دائماً فهي الأقرب من الحدث. فقد تركوا لنا معلومـــات لا نجدهـــا فـــي مكـــان آخـــر. وكانـــت الدراسات المتعلقة بالطرق والطوبوغرافـــيا التاريخـــية قد اكتشفت من قبل الرحالة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومـــع كـــل ذلـــك، فهـــناك عدد من المصادر المكتوبة التي لم تكتشف بعد. فالنصـــوص التاريخية على سبيل المثال غنية بالمعلومات وتتطلب فقط الاستخدام الخرائطي.

لقـــد تمـــت معالجـــة واستخدام كافة المواضيع التي قدمها الرحالة ودرسها ماســـينيون وهيرزفلـــت وسترانج. بالطبع، كان الباحثون الأوائل يهتمون بالجانب الأثـــري من الهندسة لكن أعمالهم تعكس اتجاهاً عاماً للآثار الذي أصبح اجتماعياً أكـــثر فأكـــثر. وهنا تنبغي الإشارة إلى بعض التأخر في هذا التطور في العراق، والذي يعود إلى أن الآثار الإسلامية تطورت بشكل متباطئ.

مشاركة حفريات الإنقاذ

قامت الإدارة العامة للآثار القديمة في العراق بتطوير طريقتها في الوصول إلـــى الدراسات التحضيرية للأعمال الكبرى. يبدو أن الفترة الإسلامية لم تكن من صميم اهتمامات علماء الآثار. إن المشاريع بين 1977ــ 1988 ساعدت للحصول علـــى حظوة هامة بالأبنية الإدارية وبالتعاون الدولي. وبفضل هذا العمل المشترك تم تحديد عدد المواقع دون دراستها وتحليلها.

الأساليب العلمية

هناك بعض الأبحاث التي لم تظهر في تقديم الأعمال. وهي عبارة عن حالتين استخدمت فيها الوسائل العلمية. جرت حفريات مغناطيسية على الموقع المسمى أبو شهير من قبل ت. دين ون. حمو. وقد ترك بيان الحساب الطوبوغرافي معلومات جيدة. أما المثال الثاني فهو التأريخ باللاسلكي على برج زبليات. وفي الحقيقة، كانت الأساليب العلمية تطبق بقلة في دراسة الأبنية الإسلامية.

برامج الأبحاث المدنية

تنحصر الدراسات المدنية في الأغلب بالأبنية الدينية أو الإدارية الهامة. وتستخدم المعطيات القديمة ونادراً ما تستعمل المواد الجديدة في التحقيقات على المدن.

إن دراسات لابيدوس وكرابار لا تعتبر مدينة بغداد كسلسلة من النصب التذكارية، لكنها تنطلق من أن بعض تلك الأبنية تولدت في المدينة. ويستنتج لابيدوس أن مدارس الحقوق تلعب دوراً هاماً في تطور المدينة الإسلامية حيث يتطلب بناؤها أحياء جديدة. وهناك شيء مشترك بين المدن الإسلامية والمدن غير الإسلامية وبفضل تلك الأبنية يختلف بعضها عن بعض.

وبحسب منظمة الآثار فإن المدن الأولى في العراق، عدا الكوفة، كانت مدناً للحماية بنيت على حدود الصحراء لحماية البلد من الغزاة والبدو العرب وهي ذات تقاليد عربية ــ إسلامية.

التأثير الشرقي - الغربي

بفضل العديد من الأمثلة المختارة من سوريا وأفغانستان ومن بينها المدرسة المستنصرية في بغداد، استنتج أندريه كودر بأن قسماً كبيراً من العمارة من الفترة الإسلامية يأتي من بيت الخراسان.

إن النظرية الإيرانية بخصوص أصول المدرسة تتعارض مع فرضية شميد في تحليل المدرسة المستنصرية. وبحسب رأيه، فإن مدارس الحقوق أنشأت

لتدريس المذاهب السنية الأربعة ولذلك، فقد تبنى مخططهم أربعة تقسيمات.

هناك موضوع آخر يظهر عند دراسة تأثير الشرق أو الغرب في الشرق الأوسط هو موضوع القصور. كانت "قصور الصحراء" السورية موضوع أبحاث عديدة. فهي تشكل قسماً كبيراً من الآثار القديمة عند الإسلام والتي تم الحفاظ عليها. وقد اعتبرت لفترة طويلة كنماذج للهندسة الإسلامية.

حاول أوليك كرابار في مقالته حول قصر الأمويين وتطور العباسيين العبور بين السلالتين من الناحية الهندسية. فقد قامت غالبية "قصور الصحراء" على أنقاض ما قبل الإسلام.

ومن هناك تأتي الاستنتاجات: فمن جهة، إن الأبنية الإسلامية تأتي مباشرة من التنظيم الاقتصادي للعالم الإسلامي. ومن جهة أخرى، كانت تقام على حدود الصحراء في العراق حتى ولو كانت الأعمال المائية أهم، وذلك لأنهم أدركوا أهمية الأرض. وفي الجزيرة، في الفترة ما قبل الإسلام، كانت القلاع تعين اتجاه الطرق بين الإمبراطورية البيزنطية وإيران وعدم استقرار المنطقة لم يسمح بالتجهيزات الزراعية.

لقد تم خلق أنظمة جديدة في هذه المنطقة. ففي نهاية العهد العباسي انحطت سوريا وانتقل مركز الإمبراطورية إلى العراق. وقام م. جبار بك وهـ. السامرائي بدراسة تطور الأبنية الزراعية في العراق خلال تلك الفترة.

وتؤكد دراسة كرابار على الاختلاف الهندسي بين القصور في سوريا المزخرفة بكثرة والتي كانت تظهر كقصور ترفيهية، ومثيلاتها في العراق التي كانت تعتبر مقراً للحكم في الكوفة وواسط وغالباً ما كانت مدنية. إن المعلومات حول هذا الموضوع قليلة لأنه لم يتم إحصاء لا المصادر الأثرية ولا المصادر المكتوبة من أجل تحليل ودراسة تفصيلية على طوبوغرافيا العراق في القرن الأول الهجري. وقد تم تنظيم تطور المنطقة حول نواة غير إسلامية.

في تقرير قدمته مريم روسين أيالون إلى المؤتمر الدولي للمستشرقين، تبين أن دار العمارة في الكوفة قد أثرت على الهندسة الأموية. ويبدو أن موقف كرابار هو الأكثر واقعية. فليس من المهم إثبات أن الغرب أو الشرق هو الذي أثر بالآخر لكن المهم هو محاولة فهم التطور العام من خلال أمثلة محددة مدروسة. فالفترة

الإسلامية تبدأ بالتأكيد في 634 ولكن يجب ألا ننسى أن الأبنية التي كانت موجودة عـــند وصـــول المسلمين صدرت من ثقافة أخرى وقد لعبت دورا هاماً في إعداد الحضارة الجديدة.

المرحلة الانتقالية من الساسانيين إلى المسلمين

تظهـــر الدراســـات حول هذا الموضوع نتائج متضاربة. إما أن يكون هناك شـــرخ بالنســـبة للفـــترة السابقة أو أن بدايات الثقافة الإسلامية في العراق تأثرت مباشرة بحضارة ما قبل الإسلام.

لقـــد أعـــيد بـــناء الأبنية المحصنة لكن بمواد مختلفة. إن تبني أسلوب واحد لمخطـــط يـــدل على استمرارية معينة. هذه هي النظرية التي دافع عنها روبيرت أدامـــز في دراسته التي أجراها على السكان حيث تجمع فترة زمنية واحدة، نهاية الساســـانيين وبداية الفترة التي تليها وهي الفترة الاقتصادية الأكثر استقراراً حيث تـــتألق أبنية ما قبل الإسلام. ومن أجل توضيح الاختلاف يقيم سبراً في أبو شريفة ويحاول تحديد تطور الخزف كي يتمكن من تأريخ المواقع التي ينقبها بشكل أدق. وتعتبر تلك من عمليات التنقيب النادرة المتعلقة بهذه الفترة في وسط بلاد الرافدين.

إن الأبحـــاث الجغرافـــية التاريخية لموروني تبين أن وصف الأبنية الإدارية للمـــرحلة الإســـلامية الأولى في العراق التي أجراها المقدسي وابن خرداذبة يتسم بالمفارقـــات. وكان يبدو أن الأبنية الساسانية لم تؤخذ بشكل كامل. وتلتها تغييرات هامة على مستوى السلالة، وأجريت تقسيمات في مناطق إدارية كبيرة بعد دخول الإســـلام على الأراضي الفارسية، وشملت التغييرات مجال الزراعة والمياه. أما الأبنـــية الكنســـية المسيحية فلم تمسها التعديلات خلال فترة الإصلاحات في الفترة الساســـانية الأخيرة ولم تتكيف مع الحقيقة الإسلامية الجديدة إلا بعد مئة وخمسين سنة من الفتوحات.

هـــناك دراســـات قليلة حول مثابرة العبادة ما قبل الإسلام. تم إحصاء سبعة أديرة أو كنائس في عين شايي ودير ستون والحيرة ومشفينة وقصر الماء وقصير وتكريـــت. فالكـــنائس وأبنية الأديرة متجمعة في مربع قائم الزوايا ومزودة غالباً بالأبـــراج والمســـاند. ويتطرق سترانج إلى عدة أديرة أشار إليها ياقوت، مثل دير

حــزقل إلــى جانب النمانية. وكذلك الأمر في جوار سامراء، فهناك ثمانية أديرة وجــدت قــبل بناء المدينة. وبحسب نورتج، هناك أنقاض يمكن أن تكون لكنيسة المــأمون بقــرب قــرية المطيرة يبدو أنها هدمت بين 1984ـ 1986، حيث من الممكــن أن تكــون تلك المدينة قد بناها الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح حــول قصــر أموي قديم بعد انتصاره. ومن الأرجح أن يكون موقع المدينة بين الكوفــة والحيرة. لقد كانت مدينة العنبر التي احتلها أبو العباس منذ 702 المدينة الأهــم بعد سيسفون في 323. لقد كانت عواصم بدايات الإمبراطورية الإسلامية تتوضع في أعلى أو بقرب مواقع هامة في تلك الفترة بعد بناء بغداد. هل كان ذلك من أجل التأكيد على السيطرة الإسلامية على أرباب المدينة القدماء؟ هل وببساطة، لأنــه لم يملكوا الوسائل والوقت لبناء مدينة جديدة؟ في كل الأحوال، هذا يدل على أن المسلمين بقوا طويلاً في مدن ما قبل الإسلام لكي يكونوا مؤثرين.

الخاتمة

إن الرغــبة فــي الــتحقق من النصوص المقدسة، بالعثور على آثار المدن المقدســة، قــد دفعت علماء الآثار للاهتمام بالتاريخ القديم لبلاد الرافدين. فلم تكن الحضارات الكبرى معروفة حتى حينها إلا بنصوص أسطورية.

وبعــد الاكتشــافات ظهر غنى تلك الفترة وبدأ الجميع بالبحث، وكان علماء الآثــار لفــترة طويلة لا يهتمون بالعالم الإسلامي حيث اعتقدوا أن ما وصلهم من نصوص هو كاف.

ثــم تغــيرت الأمور عندما بدأ العراقيون بالاهتمام بتاريخ بلدهم، ولم يهملوا الفــترة الإســلامية. وبعــد إنشاء دولة عراقية مستقلة عن السلطات العثمانية عام 1921 وبعدهــا عن الانتداب الإنكليزي عام 1932، عززت النظرة إلى الماضي الروح الوطنية لديهم.

يتأســف المــرء لقلــة الدراســات حول بلد كان له أهمية عظمى في الفترة الإســلامية الأولــى وخاصــة في العهد العباسي. فيما عدا مواقع سامراء وبغداد والكوفة وواسط فلم تكن أية مؤلفات موجودة فعليا.

فغالــباً، الأبنية الهامة هي التي درست مثل دار العمارة في الكوفة والمسجد

الكبير في واسط وقصر الأخيضر والمقابر القديمة.

وهناك مجالات أخرى لم تدرس، مثل الهندسة الخدمية. ونادراً ما كانت الأبنية المتواضعة أو المقابر البسيطة تستهدف للتنقيب. وكذلك كانت الدراسات على الخزف الذي تعتبر الأهم في أعمال الآثار. وهنا أيضاً كانوا يهتمون بالمزركش أكثر وبالذي تمت المحافظة عليه. وهناك دراسة على الخزف المتعارف عليه حيث يسمح لنا بالتعرف على الحياة اليومية والعلاقات التجارية بين المناطق.

إن صعوبة الوصول إلى الوثائق يشل العمل. وهناك عدد من الأعمال التي لم تنشر بشكل كامل أو لم تنشر بعد. ومن المؤسف أن ندرك قلة الاهتمام بين علماء الآثار الأجانب والعراقيين على السواء. لم تكن الأساليب المتبعة هي ذاتها، والأهداف أيضاً كانت مختلفة. إن علم الآثار الوطنية في العراق يحوم حول ما هو ساطع. قسم كبير من الأعمال يهدف إلى تقييم إرث الآثار، وليست الحفريات إلا تمهيد للترميم. وفي النهاية، فإن المسؤول عن هذه الأعمال هو الرغبة في تطوير السياحة.

إن برامج الأبحاث التي عرفناها طرحت من قبل أجانب. والعمل الملفت للنظر هو عمل أ. نورتج في سامراء، فعبر الحفريات وتفسير عمليات التنقيب القديمة ومعطيات النصوص أظهر رؤية أخرى للمدينة وتطورها. وهو ينشر مقالاته الموثقة بشكل دوري.

في هذه الأعمال المختلفة، ما هي المعطيات التي يمكن الاستفادة منها؟ المادة التي تم اكتشافها خلال الحفريات يمكن أن تعطي فرصة للدراسة. لقد درست ماري مادلينا نيكرو بونزي زجاج السيلوسي. فيما يخص الخزف، نظرية أكسيل روكوي حول الاستيراد الصيني سوف تسمح بالنظر في العلاقات للعالم الإسلامي مع الشرق الأدنى.

كانت الأبنية الجنائزية قد استخدمت بكثرة من قبل كرابار. والمخططات المتوفرة لدراسة السكان كانت من سامراء، وهي تعطي رؤية لنوع من البيوت الرفيعة في الفترة العباسية.

كانت الخانات والقلاع موضوع بحث بيير لو بيكر وأكسيل روكوي، حيث

اقتضى التحقيق لنصوص جغرافية مختلفة وأعمال تنقيب على الأرض. هذا النوع من الأبحاث منع بدءاً من آذار عام 1990. على أي حال، تم توقيف عمل الأجانب في العراق منذ صيف 1990.

تقدم الفترة الإسلامية في العراق تصورات جيدة لعلماء الآثار. فتصبح المعلومات المستقاة من النصوص، والهامة في نوعيتها، غير كافية. وفي الوقت نفسه، يجب المباشرة بدراسات جديدة على أرض الواقع من أجل استكمال المعلومات وتحديث المعطيات.

□□

وصف قصر الخليفة في سامراء

(دار الخلافة أو الجوسق الخاقاني)

■ دراسة : ألاستير نورثيدج ■

ترجمة : خالد حداد

يعتبر القصر الرئيسي الذي بناه المعتصم في سامراء عند تأسيس المدينة عام 836/221 أحد أشهر القصور الإسلامية، رغم أنه لم يعد بحالة جيدة. ومع ذلك، فهو أحد الأمثلة القليلة على القصور القديمة العظيمة (بعد ذلك على الأقل) التي يُعرف مخططها الكامل أيضاً.

يمكن التوصل إلى معرفة الموقع بشكل أفضل من كتاب كريسويل "العمارة الإسلامية المبكرة"، الذي يستند إلى عمل بعثة سامراء الألمانية عام 1911-13. ومع أن مخطط هرتسفيلد للقصر قد تم نشره كثيراً، فإن القارئ يخرج غالباً بانطباع عن وجود مجموعة كبيرة غير معروفة من الغرف، رغم إجراء إعداد ضمني للمخطط أحياناً، ربما لجعل المخطط يلائم الصفحة.

لا بد من وجود عرض شامل جديد للقصر، ونأمل أن يحدث هذا أخيراً في سياق نشر مقترح لمواقع تنقيب بعثة سامراء. تقيدني بعض الأمور وتجعلني أقتصر على نوع من التقرير الأولي حول هذا الهدف. فالموضوع كبير أولا، ويتطلب ترابط الاكتشافات الصغيرة، والجص والزخارف الأخرى، واللوحات الجدارية. كذلك، لم يبدأ حتى الآن التعامل مع الصحف الميدانية، ولا مع جميع الرسوم المعدة للنشر. ومع ذلك اعتبرنا أنه من المفيد نشر التقدم الذي جرى، رغم

أن الأفكار المعروضة ليست نهائية بالضرورة.

فـــي البداية يجب القول إن تسمية القصر بالجوسق الخاقاني، التي استعملها هرتسفيلد، وفيما بعد كريسويل، ثم جرى استعمالها بشكل عام في الأوساط العلمية الغربـــية، لا يمكن أن تكون صحيحة. وسيأتي لاحقاً شرح أسباب هذا، ولكن من الواضـــح أن الاسم الذي استُعمل في العراق (قصر الخليفة) قريب تماماً فعلاً من المصـــطلحات التي استُعملت في القرن الثالث/ التاسع. وقد يبدو الجوسق الخاقاني اســـماً جذاباً وغريباً، مع أنه يوحي على نحو خاطئ بأن القصر كان تركياً بشكل مـــا، ولكـــن مـــن المؤكد أن قصر الجوسق كان جزءاً من المجمع الكلي، وليس المجمع نفسه بالكامل. ويمكن اعتبار اسم قصر الخليفة أو دار الخلافة أكثر ملاءمة للاستعمال في اللغة الإنكليزية.

العمل السابق في القصر

لـــم يكـــن مدهشاً أن الموقع جذب اهتمام الزوار الغربيين في القرن التاسع عشـــر. ففـــي حزيران 1834 قام جراح المقر البريطاني في بغداد، جون روس، بزيارة سامراء، ونشر الوصف الدقيق التالي:

يعتـــبر قصـــر الخليفة كتلة طويلة من الأطلال بشكل حرف (T) على حافة ضـــفة عالية، تقسمها ثلاثة جدران متقاطعة. ويبلغ الطول الأقصى للضلع المواجه لليابســـة حوالـــي 900 خطوة، وعرض الوجه المقابل للنهر 130 خطوة، والوجه المقـــابل لليابســـة 580؛ ويحـــتوي على صفوف من المداخل، والغرف المقوسة، والقناطر تحت الأرض، الخ، مع مساحات فارغة تقسمها جدران متقاطعة. تتكشف إحدى القناطر عن عمق كبير، يسمى (الجب)، ويدل على أنه سجن: فمدخله عبارة عن ممر عمودي ضيق، ولا بد أنه كان يتم إنزال الناس داخله ثم سحبهم بواسطة حـــبل. وثمـــة تجويف مربع عميق آخر قريب منه يدعى بركة السباع، أو عرين الأســـود. وهناك ممر ضيق تحت الأرض محفور من الجب إلى البركة، وقيل إنه كـــان يتم إلقاء المجرمين إلى الوحوش البرية من بابه. ومن الوجه المقابل للنهر، ثمة رصيف مائل، يستند إلى الأقواس، ويؤدي أسفلاً إلى الهاوية؛ وخارج القصر، عند زاويته الشمالية الغربية، تنتصب أطلال رائعة لبناء برجي اسمه الحمام.

وفـــي نيســـان 1846 قام الملازم ج. ف. جونز من البحرية الهندية بزيارة

الموقع أيضاً. لكن ذلك كان في بداية القرن العشرين فحسب، بعد نصف قرن من بـدء أعمـال الآثـار الغربية في المدن الملكية الآشورية، مثلاً، بحيث أصبحت سامراء هدفاً للاهتمام العلمي الأكثر جدية.

كانـت الجهـود الأولى فرنسية. وقد نشر الجنرال ل. دي بيليه عام 1907 نـتائج زيارة إلى سامراء وإلى مواقع أخرى في العراق. وقام المهندس المعماري الفرنسـي هـنري فيوليت بالتنقيب في الموقع ومسحه عام 1908، ثم عاد للتنقيب بالقصـر فـي حزيران 1910، وحفر أربعاً وعشرين فتحة سبر صغيرة في ستة أسابيع. ثم نشر عمله فوراً، وقدم بحثاً قصيراً لكنه موضح على نحو رائع بالرسوم حول كل من الحملتين.

بـدأ الاهتمام الألماني بسامراء مع زيارة قام بها هرتسفيلد عام 1903، لكنه حقق أهدافه بعد ذلك في بعثة سامراء الألمانية، التي قادت حملتين ميدانيتين عامي 1911 و 1913. حـول هرتسفيلد انتباهه للتنقيب في القصر خلال الحملة الثانية. وتم كشف نحو 11000 متر مربع (يساوي الربع تقريباً) من كتلة قاعة الاستقبال، وحوالي 5000 متر مربع في مكان آخر، وبلغ المجموع 18000 متر مربع.

وفـي عـام 1923، بعـد الحرب العالمية الأولى، أبدى هرتسفيلد أسفه لأن الآثـار التـي تم التنقيب عنها قد سُرقت. لم يكن هذا أمراً غير عادي؛ فقد كانت سرقة الآجر الحراري شائعة في العراق قبل انتشار البناء الإسمنتي. وكانت أسوار المدينة كلها مبنية في ثلاثينات القرن التاسع عشر بالآجر العباسي.

فـي عـام 1914 تم نشر تقرير أولي عن التنقيب بالقصر في مقالة بعنوان الإسـلام. جرى في هذه المقالة نشر الإصدار الأول للمخطط الكبير للقصر. كان المخطـط طـبعاً، فـي غالبيته نتيجة اكتشاف سطحي، لكنه يدمج مناطق التنقيب أيضـاً. ويبدو أن قراءة هرتسفيلد للآثار السطحية كانت جيدة، وقد تم رسم الكثير وسـيكون مـن الصعب إعادته اليوم. ويبدو أن الإخفاق الرئيسي كان في الزاوية الشـمالية الشرقية، حيث رسم أجزاء من الوحدات الصغيرة لنموذج القصر فقط. علـى أي حـال، بعد الإصدار الأول للمخطوط المنشور في التقرير عام 1914، جـرى "تصـحيح" الإصـدار النهائي، الذي نشره كريسويل، مع تسوية عدد من الأبنـية، بينما تظهر الصور الجوية أن الإصدار الأصلي كان أكثر دقة. وتبين أن

ميدان لعبة البولو في الطرف الشرقي كان في الحقيقة على شكل متوازي أضلاع، وليس مستطيلاً.

عام 1923، في المجلد (1) من كتاب الحفريات في سامراء، نشر هرتسفيلد الزخارف الجدارية التي اكتشفتها البعثة؛ وفي عام 1927، في المجلد (3)، اللوحات الجدارية؛ وفي عام 1948، في المجلد (6) الذي صدر بعد وفاته، تحليله للطوبوغرافيا التاريخية. على أي حال، وكما هو معروف جيداً، إن المجلدات الموضوعة عن الهندسة المعمارية في سامراء لم تنشر، أو لنكن أكثر دقة، إن التقرير النهائي عن التنقيب نفسه هو الذي لم يُنشر. ويقتبس كريسويل، في كتابه العمارة الإسلامية المبكرة، بشكل مباشر عن هرتسفيلد، مستعملاً التقرير الأولي لعام 1914. وتوجد الرسوم غير المنشورة والصحف الميدانية ضمن أرشيف هرتسفيلد في معرض آرثر م. ساكلير في واشنطن العاصمة. كما توجد الصور السلبية للبعثة، التي التقطها سار، في المتحف الوطني ببرلين.

بعد ذلك استمر العمل الميداني ثانية على المجمع من قبل مديرية الآثار العراقية، ولو أن ذلك قد جرى بعد تأخير طويل. وقد تم كشف باب العامة وإضافته، وحفر الغرف التي في جانبه الشمالي في وقت ما من ستينات القرن العشرين أو سبعيناته. على أي حال، كانت معظم التنقيبات تتم في مكان آخر من سامراء، ومع بداية "مشروع إحياء مدينتي سامراء والمتوكلية الأثريتين" عام 1981 فحسب جرى تنفيذ عمل جديد على القصر. وفي عام 1981 جرى بعض أعمال الكشف في منطقة تنقيب هرتسفيلد داخل كتلة قاعة الاستقبال، ثم تم التخلي عنها باعتبارها غير مفيدة. على أي حال، كان النفق الذي يمر أسفل الفناء الكبير، أو المتنزه الكبير، إذا استعملنا مصطلحات هرتسفيلد، قد تم التنقيب عنه بالإضافة إلى ستة أبنية ثانوية على الجانب الشمالي من الفناء. وفي عام 1983 تحول العمل إلى كشف وترميم للسرداب الصغير (هاويات السباع). انتهى المشروع عام 1986، وتم نشره في العام نفسه. ثم بدأ العمل عام 1986-87 بالتنقيب عن السرداب الكبير؛ ومع بداية عام 1989 كان التنقيب قد اكتمل تقريباً، وانتهى الترميم قبل زيارتي في بداية عام 1990. ولسوء الحظ تأخر النشر في مجلة سومر، التي كانت مخطوطتها كاملة، بسبب حرب الكويت. وقد جرى العمل مؤخراً أيضاً على سلسلة من الغرف في الجانب الجنوبي من باب العامة، وعلى

النافورة ذات الأضلاع الثمانية والمحفوظة بشكل سيئ أو على السرادق في الفناء الكبير.

وصف الموقع:

يوجد مجمع القصر ضمن كتلة الضفة الشرقية لنهر دجلة، الذي حدده حوض نهـري سابق في العصر الجيولوجي الثالث. وقد مكنت الطراوة النسبية لمادته من حفر البنية التحتية على نطاق واسع. على الجانب الغربي من القصر، يوجد هبوط شديد الانحدار يبلغ حوالي عشرة أمتار نحو سهل الغمر لنهر دجلة، وتوجد الحديقة التـي علـى هذا الجانب في سهل الغمر. ومع أن الحركة المتكررة لحوض دجلة ضـمن سـهل الغمر تعجز عن حفر قدر كبير من الكتلة، فقد أزال النهر الجزء الجنوبـي الغربـي مـن الحديقة الغربية منذ القرن الثالث/ التاسع. وفي منتصف خمسينات القرن العشرين تم إنشاء سد في سامراء لتحويل مياه الفيضان من دجلة إلى منخفض الثرثار. وقد فاضت البحيرة التي خلف السد على الأرض المنخفضة لسـهل الغمـر، بمـا في ذلك جميع أجزاء المجمع غربي باب العامة. ومع نهاية ثمانينات القرن العشرين حولت رواسب الغرين التي نقلها دجلة منطقة البحيرة إلى مسـتنقع، وعادت منطقة الحديقة للظهور ثانية على شكل سبخة. وليس من المؤكد إن كـان مـن الممكن استرداد أي مادة من هذه المنطقة، حيث لا يوجد أي شيء مرئي اليوم.

يسـتند المخطـط إلـى وحدتيـن معماريتين للقصر. الأولى، على الجانب الجنوبـي، تـتألف من بناء مربع بقياس180×200 متر يحتوي على باب العامة وقاعـات العرش وقسم الحريم، مع فناء كبير على الجانب الشرقي. يمكن لمخطط البناء والفناء المربع هذا أن يتوازيا عند قصر بلكوارا، والقصر الذي في القادسية. ويوجد على الجانب الشمالي قصر ثان، دعاه هرتسفيلد "الخزينة" مع قاعة استقبال مـربعة أصـغر وشـقق سـكنية، وهو ضمن سور خارجي، كما يُرى في قصر الأخيضر ودار الإمارة في الكوفة.

توجـد في الجانب الغربي للوحدة الجنوبية حديقة كبيرة؛ وربما توجد حديقة أخـرى مـن نـوع مختلف في الجانب الجنوبي. كما يوجد بين وحدتي القصرين حـوض دائـري كبـير غائر، دعاه هرتسفيلد باسم السرداب الكبير، ويدعى في

العــراق باسم البركة الهندسية. وبعد ذلك إلى الشرق يوجد مجمع يتضمن ما دعاه هرتسفيلد باسم (Rotundabau)، وعند الطرف الشرقي، يوجد حوض غائر مربع أصــغر، يدعــى باســم السرداب الصغير، ويدعى في العراق باسم هاوية السباع (عريــن الأســود). وعلــى الجانبين الشمالي والجنوبي للحوض توجد أفنية ذات ســرادقين، وصــفوف مــن القاعــات المــتوازية، التــي دعاها هرتسفيلد باسم "الاسطبلات". وعلى الجانب الشرقي يوجد ميدان فيه مكان للمشاهدين، وخط لبداية مضمار السباق، يمتد بعيداً نحو الشرق. في الجانب الجنوبي للفناء الرئيسي يوجد إيــوان أو سرادق يحيط به سور مجاور لما يجب أن يكون أصلاً المدخل الرئيسي للمجمــع والمــؤدي إلــى المدينة، وبناء مربع آخر، مجاور لكتلة قاعة الاستقبال الرئيسية. ويمكن وصف القصر بأنه مجمع لوحدات معمارية.

مــن الواضح أن البناء بدأ عام 221/ 836، وآخر إشارة إليه على أنه بناء مســكون تعــود إلى عام 884/269. وقد استمر إشغاله المعررف ثمان وأربعين سنة. ومن الواضح أن عملية تغيير كبيرة قد جرت خلال هذه الفترة. فالقصر ليس بــالذي تــم تصــميمه، وبناؤه، ثم تركه في حالته الأصلية، رغم وجود عدة أبنية مشابهة في بداية العصر الإسلامي؛ وخلال تلك الفترة تقريباً ربما تكون وحدات قد أضيفت، أو جُددت، أو تُركت.

كــان أول مــن أعطى وصفاً للقصر، وهو فيوليت، قد بدأ من باب العامة، ورأى أن المجمــع يــتألف مــن البــناء المربع، والفناء الكبير، وأبنية ملحقة – الســردابين، المــيدان ومضــمار السباق(2). وكان هرتسفيلد هو الذي اعتبر بناء القصر الشمالي ضمن المجمع، ودعاه باسم الخزينة. ورغم أن البنائين، في الزاوية الجنوبــية الشرقية، يعتبران ضمن مخطط هرتسفيلد، فمن المحتمل ألا يكون لهما ارتباط بالقصر.

إن أبعــاد المــنطقة التــي حددها هرتسفيلد هي 1346 متراً من الشرق إلى الغــرب، مــن الســرادق الذي على نهر دجلة إلى مكان المشاهدين المطل على مضــمار السباق 2، و 1160 متراً من الشمال إلى الجنوب، من القصر الشمالي إلى البوابة الجنوبية.

الحديقة الغربية

يـبدو أن الحديقــة الغربية كانت تتجه أسفلاً إلى نهر دجلة، الذي لا يُعرف مجــراه الدقيق خلال القرن الثالث/ التاسع. توجد مجموعة من الدرجات الكبيرة، بعرض 60 متراً، تهبط من باب العامة لا يمكن رؤيتها اليوم، ولكن يمكن أن تُرى مــن الصــور الجوية. إلى الغرب من الدرجات كانت توجد بركة تزيينية مربعة بقياس 115×130 متراً.

ومــن البركة هناك جداران طول كل منهما 220 متراً يحددان محوراً طولياً ويــتجهان مباشــرة غرباً نحو نهاية الحديقة. وربما كان هذا طريقاً رسمياً لمرور الخلــيفة مــن وإلى رصيف النهر. وقد أتى ذكر هذا الموكب عند الاحتفال بتعيين ورثة المتوكل عام 235/849-50.

حيــن عين المتوكل ورثته من بين أولاده، ركب عبر سامراء في موكب، لم يُشاهد أروع منه سابقاً. ركب الورثة أمامه، والأتراك أمامهم، ومشى أولادهم أمام المــتوكل، وبأيديهم أحزمة من الذهب... ثم نزل إلى الماء، وركب فيه، والجيش معــه فــي قارب (جوانخيات) بالإضافة إلى بقية القوارب، وانطلق حتى وقف في القصر المدعو باسم العروس، وأعطى الإذن للناس، فدخلوا للمثول أمامه.

عند النهاية الغربية البعيدة تظهر شرفة مرتفعة مربعة أبعادها 48×40 متراً تمثل موقع سرادق حديقة.

وهناك جداران كل منهما بطول 47 متراً يحددان محوراً شمالياً جنوبياً على الجانب الغربي للبركة. ومن المحتمل أن يوضع مخطط لبضع بنايات صغيرة بين الجدارين.

ربما تكون الحديقة هي البستان الخاقاني المذكور في أحداث عام 254/868، والذي يقع كما يبدو بين الجوسق ونهر دجلة:

جــاء البُغا إلى الجسر في الثلث الأول من الليل، وعندما اقترب المركب من الجســر، أرسل المؤتمنون عليه إلى الذين في المركب... ونزل البُغا في البستان الخاقانــي، والــتحق به عدد [من حراس الجسر]... وأسرع إلى الجوسق. وطلب الإذن من المعتز [ليدخل]، فأعطاه المعتز الإذن.

باب العامة وكتلة قاعة الاستقبال المربعة

إن كتلة قاعة الاستقبال الرئيسية للقصر الجنوبي مربعة تقريباً في شكلها، بقياس 180×200 متر. وباب العامة هو الجزء الوحيد الذي لا يزال قائماً؛ بينما ظلت في مكان آخر مجرد قطع من الجدران فوق مستوى الأرض، وفي أماكن أخرى سُرق الآجر الذي في الأساسات.

في مركز الجانب الغربي ينتصب المدخل الخارجي الرئيسي، وهو الإيوان الثلاثي المشهور المعروف باسم باب العامة. ويتألف من نفق مركزي رئيسي مقبب، وإيوانين جانبيين سطحيين، لكل منهما نصف قبة محمولة على قنطرة، ويؤدي إلى قاعات مقببة بنفق مغلق وراءها.

تُظهر الصور التي التقطها فيوليت والتي التقطها سار لمعرض البعثة الألمانية بوضوح تام كتلة بارزة من قمة البناء. ويوحي هذا بأنه كان ثمة طابق ثان. وقد جرى التنقيب أيضاً عن طريق مائل على الجانب الجنوبي للبوابة. ويُفترض أنه كان هناك مجلس (غرفة استقبال رسمية) في هذا الطابق الثاني، ذو إطلالة على نهر دجلة وسهل الغمر، على نمط غرف مشابهة مر وصفها فوق بوابات المدينة المستديرة في بغداد، والغرف التي تم العثور عليها فوق القصور الأموية الصحراوية، على أي حال، لا توجد دلالات على أن آثار البناء المربع كان لها طابقان.

بعد باب العامة، يمر الزائر عبر خمس قاعات مستطيلة ذات شكل مستعرض، ليصل، في مركز البناء، إلى فناء ذي حوض. وقد تم التنقيب عن الفناء بواسطة البعثة الألمانية، بالإضافة إلى حمام على طرفه الجنوبي. وعلى الجانب الشمالي لهذا المحور كان هناك بناء لفناء ذي طابع مستدير مركزي بقطر 31 متراً، ولا بد أنه حوض. وهناك بضع غرف مقببة تحت الأرض في هذه المنطقة. أما الجانب الجنوبي لهذا الجزء الغربي فإنه لم يتضح، رغم أنه جرى التنقيب عن سلسلة من الغرف في السنوات الأخيرة على الجانب الجنوبي لباب العامة.

على الطرف الشرقي للمحور المركزي يوجد مخطط متقاطع الشكل، يكثر عادة في مركز مثل هذا البناء المربع. والكتلة المركزية هي غرفة مقببة مع

قاعات بأربعة أعمدة. وعلى الجوانب الشرقي والغربي والجنوبي توجد أفنية خلف قاعـات الأعمدة؛ وعلى الجانب الشرقي توجد قاعة مستعرضة واسعة، تؤدي إلى الخـارج مباشرة نحو الفناء الكبير (المتنزه الكبير). ويحتمل أن تكون هذه القاعة الأخيرة إضافة ملحقة، لأن ثخن الجدار لا يتلاءم مع بقية البناء المربع.

لـم يكـن قد جرى التنقيب في الفناء الموجود على الجانب الشمالي من هذه الغرفة المركزية المقببة، أما الأفنية الموجودة على الجانبين الغربي والجنوبي فقد قام هرتسفيلد بالتنقيب فيهما. ويشكل الجزء الموجود على الجانب الجنوبي ما دعاه هرتسـفيلد باسم قسم الحريم. وعلى الجانب الجنوبي لهذا الفناء توجد غرفة مربعة ذات أربـع دعامـات، احـتوت على حوض دائري منحوت من قطعة واحدة من الغرانيـت المصـري، أطلـق علـيها اسم (كأس فرعون)، ويعتقد أنها من أصل مصـري قديم. وتحتوي بقية محيط الفناء على منطقة من الغرف الصغيرة، التي يقول هرتسفيلد إن بناءها أعيد مرات عديدة.

كان قسم الحريم مزخرفاً كثيراً، وبشكل خاص بلوحات جدارية تم نشرها في كـتاب هرتسفيلد لوحات سامراء. ويعتمد تعريفه لقسم الحريم من حيث المبدأ على طابع التصوير الحي للأشخاص في اللوحات، الذي يمكن مقارنته مع فن القصور الخاصة في العصر الأموي. لا شك أن هذه الصور يجب أن تعود للفترة الأخيرة مـن إشغال القصر. فقد لاحظ هرتسفيلد تجديد البناء، وفي مكان آخر من سامراء يمكـن رؤية حتى ثلاث طبقات من أجزاء اللوحات الجدارية. وربما كانت مساحة المجمع المسكون قد تناقصت، خلال تلك الفترة في عهد المعتمد. وربما يكون هذا الجزء من القصر قد أصبح مجرد سكن خاص في مرحلة متأخرة من إشغاله.

الفناء الكبير

إن العنصـر الرئيسـي على الجانب الشرقي للبناء المربع هو الفناء الكبير، الـذي يـتخذ شـكل مستطيل بقياس 360×186 متراً، وأطلق عليه هرتسفيلد اسم المتـنزه الكبير. يحيط بالفناء جدار من الآجر الطيني مع كوى مقوسة وتشكيلات من الجص. وكان يعلو الجدار فتحات للرمي. كان الفناء مقسماً إلى قسمين بواسطة مـنخفض، اعـتقد هرتسفيلد في وصفه الأولي أنه قناة. ثم تبين من التنقيبات عام 1982 أنه نفق رئيسي تحت الفناء، وقد سقط سقفه داخلاً. وقد قدم تنظيف الجدار

الشـــمالي في تلك الفترة دليلاً أيضاً على وجود ستة أبنية ثانوية صغيرة في الفناء. كانــت هذه متراصفة جيداً مع الجدار الخارجي كما كان جلياً أن بناءها قد تم قبل تــرك القصــر. علــى الجانب الغربي للنفق، يشير مخطط هرتسفيلد إلى مَعْلمين مستديرين. وقد أظهر تنقيب حديث أن المعلم الشرقي هو بركة مثمنة الأضلاع لم يــتم حفظهــا جيداً. يُظهر المخطط أيضاً سلسلة من الخطوط المستقيمة في الجزء الشــرقي. وتؤكــد الصــور وجود هذه الخطوط، ولكن لم يُعرف ماذا تمثل، وقد اختفــت الآن. وقد ظن هرتسفيلد أنها قنوات، مستنداً إلى افتراضه بأن المنخفض المستعرض كان قناة. وربما كانت جدراناً تحدد تخفيضاً في حجم الفناء كي يحتوي الأبنية الثانوية التي سبق ذكرها.

الجانب الجنوبي للمجمع

تعتبر المنطقة التي على الجانب الجنوبي للفناء الكبير إحدى أصعب المناطق فــي شــرحها. فهناك عدد كبير من الأبنية المختلفة، ولم يحدث أي تنقيب في هذا الجزء، إلا ضمن مساحة صغيرة حيث قامت البعثة الألمانية بالتنقيب على الجانب الشــمالي للبــناء. تــم تحديد المنطقة بسور جداري خارجي يتجه من الشرق إلى الغــرب بطــول 390 متراً جنوب الفناء الكبير، كما يقسمها جدار من الشمال إلى الجنوب يمتد على الجانب الغربي للبناء.

ثمــة طريق هام، بعرض 65 متراً ويضيق فيما بعد بسبب البناء إلى عرض نحو 12 متراً، يقترب من نقطة اتصال هذا الجدار المتّجه من الشمال إلى الجنوب مع السور الجداري الخارجي. من الواضح أن هذا الطريق لا يتطابق مع الطريق الكبــير (الشارع الأعظم) الذي وصفه اليعقوبي، والذي يجتازه القصر، ولكن مع شــارع أبي أحمد، الذي ينتهي عند باب البستان (بوابة الحديقة) وقصور الخليفة. وبما أن هذا الطريق، الأكثر أهمية في سر من رأى، لم يذكره اليعقوبي كثيراً، فلا بــد أنه يعود إلى الفترة المبكرة من سامراء، في المخطط الأصلي للمعتصم. لذلك من المحتمل أن تكون بوابة جنوبية رئيسية قد وُجدت في هذه النقطة، مع ممر إلى داخــل الفناء الكبير. في مخطط هرتسفيلد، وعلى الجانب الغربي للجدار الشمالي الجنوبــي، يمكن رؤية ممر ينعطف غرباً حول البناء. على أي حال، إن الطريق، في الصور الجوية، يقترب بالتأكيد من الجانب الشرقي للجدار، عبر المنطقة التي

يشــغلها البــناء، ومــن بوابة داخلية عند الفناء. وإذا كان هذا الوضع الأخير هو الصــحيح، فــلا بد أن المدخل قد تم نقله بعد ذلك إلى غرب الجدار، ويحتمل أن يكون البناء قد أنشئ في وقت لاحق.

علــى أي حــال، إن فكرة البوابة المزدوجة تدعمها حادثة جرت عام 256/ 870: فالمهتدي "غادر عبر باب المصاف، حتى خرج عبر البوابة المعروفة باسم إيتاخ، ثم إلى سويقة مسرور، ومنها إلى درب الواثق، حتى خرج إلى باب العامة. ومخطط المهتدي هو أن يغادر القصر عن طريق البوابة الجنوبية، وينعطف غرباً، وبعــد ذلك يذهب شمالاً إلى باب العامة. كان منزل إيتاخ بجانب البوابة الجنوبية، ومن الواضح أن اسم باب بستان قد استبدل هنا باسم بوابة إيتاخ.

يوجد في البناء على الجانب الغربي من الطرف الشمالي لهذا الممر المقترح بــناء ذو إيوان وحيد ضمن فناء وأبنية صغيرة ذات فناء حول المحيط. وإذا كان مخطــط هرتســفيلد صحيحاً، فإن البناء يتطابق مع نموذج شائع تماماً في العمارة العباســية العراقية. يوجد في الأخيضر بناء إيوان واحد منفصل بين البناء الداخلي والجــدار الخارجي. وفي (المشرحات) يمكن رؤية بناء منفصل مشابه في الزاوية الشــمالية الشــرقية للسور، مع مخطط مغاير قليلاً. وهناك بناء منفصل آخر مع إيــوان وجــامع عــند مدخل سور عيسى في سامراء. تعطي هذه الأبنية انطباعاً بكونهــا مجلس أحد المسؤولين عن البناء نفسه، أو عن أمنه. ويذكر هذا بالوضع في مدينة بغداد المستديرة، حيث احتوى الفناء المركزي المدور على بناء للحرس ورواق ذي أعمــدة للشرطة، ولكن لا يمكن تأكيد هذا. إلى الشرق من هذا الصف الشمالي الجنوبي، يبدو أن الأبنية كانت أبنية مخازن وخدمة.

علــى الطرف الغربي للجانب الجنوبي، جنوب كتلة قاعة الاستقبال المربعة مباشرة، تم إنشاء بناء مربع بقياس 70 متراً على نسق مختلف قليلاً، وجرى ربط هذا بالجانب الجنوبي لكتلة قاعة الاستقبال.

بيــن هــذا البناء والصف الشمالي الجنوبي للمدخل من البوابة الجنوبية تبدو الأرض غــير مســتوية، ويقطعها واد ذو ثلاثة فروع. هناك ثلاث مجموعات من صــفوف الغرف ذات الأفنية على أنساق مختلفة. لا تبدو هذه الأبنية واضحة في الصور الجوية، ومن الواضح أنها لم تكن ذات إنشاء الصلب. وفي الحقيقة هنالك

مـــرجعان في النصوص يوحيان بأن المنطقة كانت سابقاً حديقة- أولاً اسم البوابة الذي جرت مناقشته سابقاً وهو باب البستان، وثانياً مرجع في عام 862/248 حول الذهاب من العمري "عبر الحدائق". هذا الوصف يدعمه مخطط القصر الجعفري، الـــذي له سور فارغ على الجانب الجنوبي أيضاً. من الواضح أنها قد تكون حديقة مختلفة النوعية من المخطط الرسمي للجانب الغربي.

يمكـــن شـــرح مجمعات البناء على نحو أفضل بالإشارة إلى أن القصر كان مركـــز اضطرابات وعمليات عسكرية خلال ستينات القرن التاسع، وبشكل خاص في الأعوام 862/248 و 866/252 و 870/256.

فـــي الـــيوم الأول من رجب عام 252 [866]، جرت معركة بين المغاربة والأتـــراك... وتغلبوا على الأتراك عند الجوسق وطردوهم، وهم يقولون، "في كل يـــوم تقـــتلون خلـــيفة، وتخلعون آخر، وتقتلون وزيرا".... وعندما طرد المغاربة الأتـــراك مـــن الجوســـق، وتغلبوا عليهم عند الخزينة (بيت المال) واستولوا على خمسين مطية منهم.

مـــن الواضـــح أن القصـــر كان أحياناً معسكراً مسلحاً، ولا شك أن الثكنات المؤقتة كانت توضع في أي مكان فارغ لإسكان الحامية العسكرية.

السرداب الكبير

على الجانب الشمالي للفناء الكبير الذي يعتبر المَعْلَم الرئيسي يوجد السرداب الكبـــير، ويقـــع بيـــن وحدتي القصرين. وهو ليس سرداباً أصلياً-أي غرفة تحت الأرض للاســـتعمال فـــي الصيف- لكنه إلى حد ما حوض غائر داخل الكتلة مع الغـــرف المحـــيطة بقصد التخلص من حرارة الصيف. وقد قامت البعثة الألمانية بالتنقيـــب عن عدد من الأبنية السطحية. كما قامت مديرية الآثار العراقية بالتنقيب عن المنطقة الغائرة بين عامي 1987 و 1990، ودعيت باسم البركة الهندسية.

هنالك جدار استنادي خارجي بطول 180 متراً على أحد الجانبين، مع وجود الأبنـــية ذات الفناء في الداخل على مستوى السطح. وقد لاحظ هرتسفيلد أن بعض هذه الغرف قد احتوت على مخازن، وأوان خزفية صينية، ومواد للأرصفة، وقطع آجـــر مصـــقولة. وفـــي الزاوية الجنوبية الشرقية قام هرتسفيلد بحفر نصف بناء

مستطيل مؤلف من خمسة جدران متوازية سميكة. من الواضح أن هذه كانت مساند لبناء مرتفع سميك الجدران. ويوجد في القصر الجعفري نوع مشابه من البناء. فهناك بناء مركزي مدعوم على جدران ثقيلة، محاط بأبنية ذات أفنية. ومن الواضح أنه نوع تقليدي لبناء ما بين النهرين، لأنه يوجد بناء مشابه في الزاوية الشمالية الشرقية للقصر الجنوبي في بابل، الذي بناه نبوخذ نصر في بداية القرن السادس قبل الميلاد، ودعاه كولدوي باسم "البناء المقبب". ويُفترض أن يكون هذا البناء مخزناً للأشياء الثمينة التي يتطلب رفعها عن مستوى الأرض لأسباب أمنية.

يتخذ المركز الغائر للبناء شكلاً متقاطعاً ويبلغ 115 متراً من أحد جانبيه إلى الآخر. يوجد في المركز حوض مستدير بقطر 65 متراً، مع جرار ضيقة موضوعة في الجدران القرميدية، تم العثور في داخلها على عظام أسماك. وهناك سلالم مستقيمة ضخمة تهبط إلى الداخل من الشمال والجنوب. تغذي الحوض قناة تأتي من الشرق، وليست مرئية على السطح؛ وتوجد قناة تصريف أخرى إلى الغرب. وهنالك في نقاط التقاطع الأربع كلها ممرات مائلة للخدمة متعامدة مع السلالم الضخمة، ومع أنها لم تكن كلها قيد الاستعمال، فقد كانت واحدة على الجانب الغربي تستعمل لتفريغ النفايات، وقد وُجدت ممتلئة بالرماد والفخار والزجاج. وكانت الغرف التي حول الحوض مرتبة بشكل شعاعي، مع أنها تستند إلى مخطط الإيوانات الأربعة. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية يوجد حمام كبير، فيه أتون وقناة تحت الأرض للتدفئة.

إن الغرف المحيطة بالحوض مزخرفة كلياً بأفاريز من الجص، وهي كلها على شكل ورقة الكرمة، من الطراز (A). ومع أن تسلسل الزخرفة بالجص في سامراء بحاجة إلى عمل جديد، فمن المؤكد أن هذا الأسلوب كان موجوداً قبل تأسيس سامراء عام 836/221، لكنه يستمر أيضاً بعد سامراء. إن الأبنية في سامراء، المزخرفة على نحو شامل بورقة الكرمة، أيّ باب العامة بأسلوبه المختلط (A) و (B)، والقصور الأعلى والأدنى في (الحويصلات)، التي يتطابق أحدها مع قصر الجص للمعتصم، تنسب عادة إلى بداية عصر سامراء. ويوحي دليل تاريخ الجص، رغم ضعفه، بأن السرداب الكبير هو بناء مبكر، وجزء من المخطط الأصلي للقصر.

Rotundabau

إلى الشرق من السرداب الكبير يوجد مجمع آخر للأبنية ذات الأفنية. وقد قام هرتسفيلد بالتنقيب عن غرفة الاستقبال ودعاها (Rotundabau) أو القاعة المستديرة. ولم يتم نشر المخطط أبداً. ويتضمن منزلاً كبيراً على طراز سامراء- أي كتلة استقبال يتبعها فناء وإيوان آخر. وهناك بناء آخر ذو غرف تحيط بفناء على الجانب الغربي، وأربعة أسوار أقل وضوحاً على الجانبين الشرقي والشمالي.

تحتوي كتلة الاستقبال نفسها على قاعة مستعرضة بقياس 18×7 أمتار تبرز في الفناء الكبير، الذي يبدو أنه إضافة إلى البناء الأصلي. بعد ذلك توجد قاعة مستعرضة أخرى بقياس 13.8×4 أمتار، مشابهة لرواق ذي إيوان على شكل حرف (T)، وتحيط بها غرفتان فيهما كوى جدارية. كانت هذه الكوى الجدارية مغطاة بعد ذلك بأفاريز جدارية جصية من النموذج المائل، والقاعة الرئيسية دائرية، قطرها 9.4 أمتار، ومعها أربع غرف سداسية صغيرة غريبة الشكل لها قبب منخفضة على الجانبين الشرقي والغربي. ويشير المخطط إلى أن الشكل الدائري هو شكل لاحق وأن القاعة كانت أصلاً مربعة الشكل، ولها مداخل إلى غرف جانبية مزخرفة بدعائم متشابكة.

يعطي البناء وملحقاته المرتبطة به انطباعاً بأنه مجلس لموظف ذي علاقة وثيقة بأعمال القصر، وبحاجة إلى مكان للعمل وأبنية للخدمة.

الطرف الشرقي والسرداب الصغير

يتميز الطرف الشرقي للفناء الكبير بمجموعة من المنشآت: حوض مربع غائر أصغر، (السرداب الصغير، أو هاوية السباع)، وستة أروقة طويلة، وسرادقان كبيران، وميدان للعبة البولو، ومكان للمشاهدين، ومضمار للسباق.

كان فيوليت أول من بحث في موضوع السرداب الصغير وبعده هرتسفيلد، الذي نظف مدخل السطح وأحد السلالم وأعد مخططاً، وبدأت المديرية العامة للآثار العراقية العمل على الموقع عام 1983 وقامت بتنظيف الموقع وإعادة بنائه، وانتهت عام 1986.

كان موقع المدخل في مركز الجدار الشرقي للفناء الكبير. وقد وصف

هرتسفيلد هذا المدخل بأنه غرفة مربعة حيث وجد إفريزاً من الجص الملون يمثل جمالاً بسنامين. وقد أعيد بناؤها على شكل غرفة مقببة ذات كوى جدارية، وتمثل إلـــى حد كبير مدخلاً نموذجياً لأحد المنازل الكبيرة في سامراء. يبلغ قياس البناء عند مستوى السطح 60×54 متراً، وصوره هرتسفيلد على شكل سلسلة من الغرف حـــول الحوض. وقد أعيد بناؤه على شكل رواق، مع أقواس عمودية على جوانب الحوض.

يـــؤدي الحـــوض نفسه وظيفة مشابهة للسرداب الكبير، لكنه أصغر وبشكل مربع (21 متراً من كل جانب)، ويغور حوالي 8 أمتار داخل الكتلة. ويوجد إيوان ثلاثـــي علـــى كل من جانبي الحوض، وكلها مزخرفة بجص من النموذج المائل، تدخـــل قناة من الإيوان الشمالي المركزي، ويتم تصريف الماء بواسطة قناة أخرى باتجـــاه الجنوب. ويهبط أحد السلالم من الجانب الجنوبي للمدخل الرئيسي، ويهبط سلم آخر إلى الزاوية الشمالية الشرقية للحوض.

الإسطبلات والسرادق

توجد على كل جانب من السرداب الصغير ثلاث شرفات طويلة؛ قياس أربع مـــنها 106×11 متراً، والاثنتين الباقيتين 96×11 متراً. وهناك خمسة مداخل إلى الأفنـــية المجاورة. وقد عرف هرتسفيلد هذه الشرفات بأنها إسطبلات لميدان لعبة البولو.

ومـــع أنـــه قد يبدو مدهشاً أن يتم بناء الإسطبلات في منطقة مجاورة لمكان جمـــيل مخصص لراحة الخليفة، مع ما تسببه من إزعاج بروائحها، فإنه ربما كان على صواب. يشبه شكل الشرفات مخططاً للبناء موجوداً أيضاً في مجموعة أبنية القصـــر الجعفـــري تحـــيط الشرفات في القصر الجعفري بفناء مركزي، وتوجد مجموعـــة الأبنية على مسافة بعيدة عن الأجزاء المسكونة من القصر-الذي دُعي بالجعفـــري لاحقـــاً، وربمـــا كـــان تحديد هذا الموضع نتيجة خبرة سيئة بالمجمع موضـــوع البحـــث هـــنا. إن هذا الترتيب للشرفات حول الفناء المركزي هو في الحقيقة مشابه للترتيب العادي لشرفات الإسطبل في الخانات الإيرانية، والتي توجد في العراق أيضاً.

يصف اليعقوبي، على أي حال، إسطبلات الخليفة العامة والخاصة على أنها توجد في مركز المدينة عند شارع السريجة (الشارع الأعظم). ويمكن تحديد الموقع بشكل تقريبي، ولا توجد أي إشارة لهذا النوع من البناء. ومع ذلك فمن الواضح أن الإسطبلات الموجودة في مركز المدينة، على بعد خمسة كيلومترات من القصر، كانت تخص أموراً طويلة الأمد تتعلق بتربية مطايا القصر والجيش وليس الإيواء اليومي للحيوانات الموجودة في القصر، وبخاصة المهور المستعملة للعبة البولو وخيول السباق.

إلى الش...

سرادق. وقد بني السرادق الشمالي من الآجر الطيني ولا يزال صامداً جزئياً رغم تبدل قبة الإيوان الجانبي. وقد قام هرتسفيلد بالتنقيب عن البناء، لكنه لم ينشره.

يتألف البناء من إيوان مركزي بشكل حرف (T)، ويبلغ قياس الرواق الأمامي المعمد فيه 10×5 أمتار، والإيوان نفسه 5.5×8.5 أمتار. كما يوجد إيوانان جانبيان قليلا العمق، بقياس 4.2×3.2 أمتار. كانت تغطيهما أنصاف قبب مركبة على أقواس داعمة صغيرة. من الواضح أن هذين الإيوانين الجانبيين يشبهان الإيوانين الموجودين في باب العامة، ولكن ليس لهما باب يؤدي إلى القاعة التي خلفهما. يتخذ الإيوان الخارجي شكل مستطيل، بقياس 38.5 × 22.5 متراً، وله دعامات مستديرة، ويبدو أن السرادق الجنوبي مشابه لهذا. ويمكن ملاحظة أن السرادقين الكبيرين محددان لتفقد مهور الخليفة الخاصة بلعبة البولو وخيول السباق.

ميدان لعبة البولو ومكان المشاهدين

يوجد ممر من السرداب الصغير يؤدي إلى داخل فناء مربع ثم إلى ميدان طويل مستطيل. وقد قام هرتسفيلد بالتنقيب عن مدخل الميدان. يبلغ قياس الميدان الطويل المستطيل ذي الدعامات نصف المستديرة 525 × 66 متراً. وبحسب الدليل المتعلق بالسرقة، كانت الجدران مصنوعة من الآجر الحراري.

على الجانب البعيد للميدان يوجد مكان للمشاهدين، الذي يطل في آن واحد على الميدان وبداية مضمار السباق2. يبلغ قياس هذا البناء 28× 45 متراً وهو مبني من الآجر الحراري، وله دعامتان على الزاويتين الشرقيتين. إن المخطط

مخصص لحجرة تتجه من الشرق إلى الغرب، وتمثل ممراً لبوابة. وعلى كل جانب توجد خمس غرف مرتبة من الشمال إلى الجنوب. من الواضح أن هذا يشكل بناء سفلياً لطابق أعلى، ربما كان منصة المشاهدين.

حدد هرتسفيلد أن الميدان أنشئ للعبة البولو. ومن الواضح أن هذا الحكم صحيح، لأن ترتيب ميدان طويل مستطيل وسرادق مع رصيف للمشاهدين على الطابق الأعلى يتطابق كثيراً مع ميدان الشاه الصفوي في أصفهان (524×159 متراً)، الذي بُني عام 1590-1604، مع سرادقه، (القبو). ويؤكد ابن قتيبة أن ملاعب البولو في العصر العباسي كانت تشبه كثيراً ميادين سامراء بالإشارة إلى أن "عرض الميدان قد حدد بمقدار 60 ذراعاً [31 متراً] حتى لا يتعرض [المشاهدون] الذين يجلسون على جداره للتدخل معهم أو الاعتداء عليهم". وهناك اثنا عشر مثالاً لميادين مشابهة في سامراء، وكلها أصغر وتوجد كلها في القصور أو مجاورة لها.

مضمار السباق 2

إن مضمار السباق هو مضمار خارجي وخلفي للسباق، ويمتد شرقاً على شكل زجاجة من مكان المشاهدين. تبتعد جوانب المضمار عن السرادق، وبعد ذلك يوجد على الجانب الجنوبي انحناء على شكل حرف (S) بعد 1510 أمتار. وبعد الانحناء تصبح الجوانب أكثر توازياً تقريباً مع بعضها بعضاً، وهناك استقامة بطول 2200 متر قبل المنحنى. يبلغ عرض المسار 80 متراً؛ كما يبدو أن الطول كان 10420 متراً.

يبدو أن هذه الوحدات التي جرى بحثها في الطرف الشرقي تمثل كياناً واحداً متماسكاً. فالسرداب الصغير وشرفات الإسطبل والسرادقان كلها متماثلة تقريباً. هناك تغيير في نسق ميدان لعبة البولو، أما الجداران الشمالي والجنوبي للميدان فإنهما يحتفظان بالنسق الأصلي، ويشكلان متوازي أضلاع، كما تأخذ الإسطبلات والسرادق في الحسبان وجود الميدان. لذلك يعتبر الميدان معاصراً لهذه المجموعة الأولى، رغم تغيير النسق. ويتناسق الميدان مع مضمار السباق؛ والسبب الوحيد الذي كان محتملاً لملاحظة أن مضمار السباق يجب أن يختلف نسقه عن محور القصر في الأرض المسطحة هو أنه، لو تبع ذلك المحور الأصلي، سيتقاطع مع

المصـــلى الـــذي في السهل، والذي يستعمل للصلاة في عيد الفطر وعيد الأضحى وهـو المصلى الأقرب إلى القصر، وربما كان شائعاً على نحو كاف فرض تغيير علــى نســق مضمار السباق. ليس من المؤكد أن مضمار السباق 2 هو جزء من بــرنامج بــناء المــيدان نفسه، ولكن يبدو ذلك محتملاً. وهناك بعض التقارب في تاريخ مضمار السباق 2، وهو بعد مضمار السباق 1، الذي يتقاطع معه.

ســيكون ثمــة مفهوم ضمني بأن مجموعة الطرف الشرقي هذه هي إضافة ثانويــة للقصــر. وهناك بعض النقاط البسيطة التي تؤيد هذه الفكرة: إن مجموعة الطــرف الشرقي ليست على نسق مع الفناء الكبير. والسرداب الصغير مزخرف بالنموذج الجصي المائل، ومن الواضح أن المجموعة هي مجمع للرياضة والتسلية في أوقات الفراغ، والسباق، ولعبة البولو، وتمضية أيام الصيف بارتياح.

الثكنات

فــي الزاوية الشمالية الغربية لمجمع القصر، أضاف هرتسفيلد مجموعة من ثــلاث كتل لأبنية ذات أفنية مسورة ضمن بناء مجمع. تتألف الكتلة من 62 وحدة حول ثلاثة جوانب من الفناء، وتتألف الكتلة (2) من 34 وحدة مشابهة.

وتحتوي الكتلة (3) على 8 وحدات مع غرف على جوانب متقابلة من الفناء، ليصل مجموعها إلى 104 وحدات. كذلك توجد ثلاثة جوامع صغيرة.

عرف هرتسفيلد هذه المنطقة بأنها ثكنات حرس القصر. ويبدو هذا محتملاً؛ فهــناك العديــد من النماذج المختلفة للسكن العسكري في سامراء، والعامل الوحيد الذي يوحد بينها هو أن السكن يكون دائماً على شكل منازل الأفنية، بدلاً من ثكنات الغرف المنفردة.

الحمام

إلــى الجنوب من منطقة الثكنات وشمال غرب كتلة قاعة الاستقبال المربعة، وعلــى حافة المنحدر المتجه إلى سهل الغمر، يوجد بناء مربع صغير ذو جدران ســميكة وثــلاث دعامات مستديرة. وقد تطابق البناء الذي ذكره فيوليت مع الذي وصــفه جــون روس بالحمام. وكان فيوليت قد حفر فتحتي سبر في المنطقة، وتم اســترداد زخارف جصية، مشابهة للموجودة في باب العامة. ويبدو أن البناء هو

علّية مرتفعة. وهناك أبنية مشابهة معروفة على الجوانب الشرقية والغربية لقصر العاشق.

القصر الشمالي

إن البناء الرئيسي على الجانب الشمالي للمجمع هو قصر داخل سور استادي خارجي. وهذه الآثار لم يحدث فيها أي تنقيب أبداً، ولم يدخلها فيوليت في المجمع. لكن هرتسفيلد أدخلها، لأنه اعتقد مصيباً أنه لا توجد نهاية شمالية منطقية لمجمع القصر بدونها. ومن المؤسف أن العديد من التفصيلات الحاسمة قد أخفتها خنادق الخطوط الأمامية التي حفرتها الحملة العسكرية البريطانية بين النهرين عام 1917.

يبلغ عرض السور الخارجي المستطيل، المتجه من الشرق إلى الغرب، 330 متراً ويمكن متابعته لمسافة 462 متراً نحو الشرق. والجدار مجهز بدعامات ضخمة نصف مستديرة قطرها حوالي 11 متراً. وتعطي الآثار انطباعاً بأن الجدار الشرقي قد جرى هدمه بعد ذلك، واستبدل به جدار جديد متسق مع الميدان.

توجد على الطرف الغربي كتلة قاعة استقبال مربعة، بقياس 120×130 متراً تقريباً، مع جدار استناد خارجي. وهو مرفوع على شرفة واسعة، ويبدو أنه كان من نوعية المخطط ذي الغرفة المقببة في المركز. على أي حال، لا يحتمل أن تتم استعادة مخطط سليم بدون تنقيب.

على الجهة الشرقية لكتلة قاعة الاستقبال، يبلغ عرض الكتلة الرئيسية للبناء 220 متراً، ويمكن تتبعها لمسافة 285 إلى الشرق. والطرف الشرقي ليس واضحاً. ولو كان البناء متماثلاً، لكان طوله حوالي 340 متراً. ولو كان أصلاً بهذا الطول، لتطابق مع مستطيل بنسبة 2 إلى 3، مثلما وُجد في جوامع سامراء، ولكن كان من الممكن أن يقطعه البناء. وعلى غرار السور الجداري الخارجي، يبدو أنه قد تعرض للقطع بسبب الهدم في الطرف الشرقي، ليفسح المجال لبناء جديد.

يبدو أنه كان يوجد في المركز الأصلي فناء بقياس 80 × 55 متراً، يقترب منه شارعان على الجانبين الشمالي والجنوبي. وعلى الجانب الشرقي يبدو فناء

آخـــر بأبعاد مشابهة، يفصله جدار. وعلى الغرب من الفناء المركزي، توجد قاعة طويلـــة بطول 25 متراً وعرض 12 متراً تقريباً، تليها قاعة مستعرضة. بعد ذلك يوجـــد فـــناء مـــربع ومدخل إلى الشرفة العالية الواسعة. وعلى الجانبين الشمالي والجنوبـــي للفناء المركزي، توجد أبنية ذات أفنية تبدو وكأنها شقق سكنية، وكانت غرف الاستقبال الرئيسية كلها مبنية بالآجر الحراري، الذي سُرق؛ ويبدو أن الشقق السكنية قد بنيت من الآجر الطيني.

في المنطقة حيث امتد السور، إلى الجنوب الشرقي من البناء الرئيسي، يحدد مخطـــط هرتسفيلد مجمعي أبنية أخرى؛ لكنه لم يتوسع في مخططهما، ولم تكن آثارهمـــا واضـــحة جـــداً في الصور الجوية. على أي حال، في الزاوية الشمالية الشرقية من المجمع، يوجد مخطط واضح جداً للبناء السكني، وهو كما يبدو قصر صـــغير، وغـــير موجـــود على مخطط هرتسفيلد. وكان شكله متوازي الأضلاع، بقياس 169 × 90 متراً. كما توجد كتلة استقبال مربعة من الآجر الحراري -تمت ســـرقتها- مجـــاورة للجدار الشمالي، وغرفة استقبال أخرى على الجانب الجنوبي للفناء المركزي.

ويوجـــد خارج سور المجمع في الزاوية الشمالية الشرقية قصر صغير آخر، بقـــياس 106 × 170 مـــتراً. ويحتوي هذا على كتلة استقبال مركزية مربعة من الآجر الحراري، مع أفنية على الجانبين الشمالي والجنوبي.

مناقشة دليل الآثار

يـــتألف القصر في شكله الأخير، إذاً، من بنائي قصرين رئيسيين، كل منهما أكـــبر مـــن قصـــور سامراء الأخرى، باستثناء القصر الجعفري. يحتوي القصر الجنوبـــي على كتلة قاعة استقبال مربعة ذات فناء كبير، لكنه يضم مكاناً صغيراً جـــداً للسكن على شكل المنازل ذات الأفنية، وهو طابع هام جداً عادة في القصور الإســـلامية المبكرة. من ناحية أخرى، يحتوي القصر الشمالي، بشكل كامل تقريباً على أمكنة للسكن.

رغم عدم التمكن حالياً من تأريخ جميع الأبنية الموصوفة هنا، فإن العناصر الأصلية للقصر كانت تتضمن كما يبدو كتلة قاعة الاستقبال المربعة والفناء الكبير -وربمـــا الحديقـــة الغربـــية. ويمكن أن يلحق بها السرداب الكبير والحمام اللذان

يـــبدوان أصـــليين استناداً إلى زخرفتهما. ولا بد أن يكون القصر الشمالي أصلياً أيضـــاً، وذلـــك إلى حد ما بسبب مخططه الذي يذكر بالقصور السابقة، كذلك لأن السرداب الكبير، الذي يعتبر مبكراً كما يبدو، يحتوي على سلالم ضخمة تؤدي إلى القصور الشمالية والجنوبية معاً.

أمـــا الإضـــافات الرئيسية اللاحقة فيبدو أنها، أولاً، الطرف الشرقي للقصر الجنوبي، بما فيه السرداب الصغير والسرادق الشمالي والجنوبي والميدان، وربما مضـــمار الســـباق 2. ثانياً، هناك التوسع الشرقي للقصر الشمالي. والبناء الوحيد المميـــز في هذا التوسع هو قصر يخلد الطابع السكني للمجمع. ومن الغريب أن جـــزءاً من القصر الأصلي يبدو أنه قد تهدم، لكن الدليل ليس واضحاً بشكل كاف للتأكد مما حدث. هنالك أيضاً العديد من الأبنية الأخرى التي يظل تأريخها النسبي ضمن المجمع غير مؤكد.

طوبوغرافيا القصر في النصوص

إن الاســـم التقليدي الأكثر حداثة للقصر كان قصر الخليفة، أو بيت الخليفة، الـــذي لا يزال مستعملاً اليوم في العراق. على أي حال، في فترة التقرير الأولي لهرتسفيلد عام 1914، كان يدعو الموقع باسم الجوسق الخاقاني، مستنداً ربما على عمـــل شفارتس. وفي عام 1983 أشار العاني إلى أ ن ثمة قصرين مختلفين ورد ذكـــرهما في النصوص، الجوسق ودار العامة، وأن هرتسفيلد لم يكن على صواب فـــي اســـتعمال اســـم الجوسق لمجمع القصر. إن النص الحاسم مأخوذ عن تاريخ اليعقوبي:

توقـــف [المعتصـــم] عـــند الموقـــع الـــذي فيه دار العامة، وكان هناك دير للمســـيحيين، واشـــترى الأرض من جماعة الدير، ووضع مخططات [أبنية] على الموقـــع، وذهب إلى موقع القصر المعروف باسم الجوسق على دجلة، وبنى هناك عدداً من القصور.

تؤكد جميع النصوص أن ثمة بنائين هما موضع البحث، لكن نصوصاً أخرى تذكر أحداثاً تتعلق بالإثنين معاً، وكأنه لا توجد مسافة كبيرة بينهما.

دار العامة

علـــى قمة مجموعة من المصطلحات هناك تعبيرات تطلق على القصر اسم دار الخليفة أو دار الخلافة. ويستعمل اليعقوبي اسم دار الخليفة، ويستعمل الطبري اســم دار الخلافة، ودار السلطان، ودار أمير المؤمنين. ويمكن لاسم دار الخلافة أيضـــاً أن يحمـــل المعنى المجرد لبيت الخليفة. وفي عام 870/256 كان المجمع يطلـــق عليه ببساطة اسم الدار. وهذا النوع من المصطلحات سبق زمنياً استعمال اســم دار الخلافة لمجمع قصر الخليفة في بغداد منذ عهد المعتضد (892-908) فصـــاعداً. ومن الواضح أن اسم قصر الخليفة التقليدي الحديث هو من سلالة هذا التعبير.

ربمـــا كانت مجموعة الأسماء هذه تمثل تسمية شاملة لمجمع يضم عدداً من القصـــور، كمـــا كانت الحالة بالنسبة لدار الخلافة في بغداد؛ ولكن ربما كان أكثر احتمالاً أنها مرادفات بسيطة لاسم دار العامة؛ ويفسر اليعقوبي في الحقيقة اسم دار الخليفة بهذه الطريقة الأخيرة.

كانـــت دار العامـــة هي القصر العام الذي يجلس فيه الخليفة لسماع شكاوي الناس أيام الاثنين والخميس. ويبدو أيضاً أن الخلفاء كانوا يديرون جزءاً كبيراً من أعمـــالهم هناك. وكان للخليفة فقط الحق في تحديد المواعيد فيه، وقد جرت تأدية قســم الـــولاء للمســـتعين هـــناك عام 862/248، كما أقام المهتدي محكمة العدل (المظالم) فيه.

لقد ذُكر بالتحديد أن دار العامة بنيت على موقع الدير الذي كان هناك سابقاً، وأن بناء الدير تحول إلى الخزينة (بيت المال). وتربط جميع النصوص بيت المال بدار العامة، وبخاصة في حادثة جرت عام 231/845-46 عندما "حفر اللصوص فتحة في بيت المال الموجود في دار العامة بقلب القصر، وأخذوا 42000 درهم". وقـــد يفترض المرء أن يكون الدير نتيجة لهذا الحدث قد استبدل به بناء أكثر أمناً، لأنه لا توجد أي إشارة إلى بناء دير على الأرض.

كما يرتبط باب العامة بشدة أيضاً مع دار العامة. وفي النصوص، يُعتبر باب العامـــة موقعاً للوافدين الرسميين إلى القصر. فمثلاً، عندما جرى إحضار المتمرد بـــابك إلى سامراء عام 838/223، "جاء الناس لينظروا إليه من المطيرة إلى باب

العامة، وتم إحضاره داخل دار العامة إلى أمير المؤمنين"، وفي عام 241/855-56 "وقف القمّي عند باب العامة مع بعض البوجا، وكانوا 70 غلاماً يركبون الجمال".

كانت هذه الأحداث مواكب انتصار، تذكر بالانتصارات الرومانية.

على أي حال، يتطابق باب العامة أيضاً مع العقوبات العامة. ففي عام 226/841، "صلبوا [الأفشين] على باب العامة كي يراه الناس.. وتم إحراق الجثة وأخذوا الرماد وألقوه في نهر دجلة". وفي عام 870/256 كان رأس صالح بن وصيف "قد عُلق عند باب العامة لمدى ساعة".

وفي عام 872/259-73 "ضربوا [سكرتير كنجور المسيحي]... 1000 سوط عند باب العامة، ومات". ويبدو أن السمعة السيئة للقصر في التقليد الحديث (وفق وصف جون روس السابق ذكره) تستمد من هذه الأحداث، رغم أنها انتشرت من باب العامة إلى أجزاء أخرى من القصر.

يوجد باب العامة وفق النصوص غربي القصر -ويمكن للمرء أن يخرج من باب العامة نحو الهاروني، الذي يمتد في سهل الفيض لنهر دجلة- وعلى مقربة من "الطريق"، أي الشارع الأعظم أو شارع السريجة. ويمكن للمرء أن يرى باب العامة ودار العامة من الطريق.

لذلك فإن التطابق التقليدي لباب العامة مع الإيوان الثلاثي على الواجهة الغربية للقصر يجب أن يكون صحيحاً، كما أن كتلة قاعة استقبال المربعة للقصر الجنوبي يجب أن تكون دار العامة.

يبدو غريباً القول إن الطريق الرئيسي كان يمر عبر حديقة الخليفة الرسمية، والتي يفترض أن تكون خاصة، وأن تعريف باب العامة كان موضع شك لهذا السبب. ويبدو أن الحل يكمن في التسلسل الزمني. إن دليل علم الآثار حول الحديقة الغربية يتفق مع الفرضية، رغم أنه لا يثبتها، بأنها أبكر في تاريخها وتعود إلى فترة الإنشاء الأصلية للقصر. إن أول إشارة إلى باب العامة على أنه مكان مفتوح للناس يعود تاريخها إلى عام 838/223، كما أن وصف اليعقوبي للشارع الأعظم يعود تاريخه إلى ما بعد موت المتوكل عام 861/247. وربما لم يكن ممكناً أن يبقى خاصاً ما خطط له المهندسون المعماريون ليكون حديقة خاصة، بينما كان

القصر نفسه مخصصاً ليصبح بناء عاماً. وعلى أي حال، إن المكان الأكثر منطقية كي يعبر الطريق الحديقة هو بين الجدارين الشمالي والجنوبي.

يرتبط بيت المال مع باب العامة والطريق في حادثة عام 862/248، وهكذا يحتمل أن يكون البناء على الجانب الجنوبي لكتلة قاعة الاستقبال المربعة. وإذا لم يكـن الأمر كذلك، فقد يفضل المرء أن يطابق بيت المال مع البناء المقبب ضمن سور السرداب الكبير، الذي يبدو أكثر أمناً، ويمكن وصفه بأنه شكل خاص بما بين النهرين لبيت المال المرتفع في الجامع الأموي بدمشق.

الجوسق

يــرجع الجوسق وفقاً لليعقوبي إلى البناء الأصلي لمدينة سامراء، وقد دعي باســم الجوسق الخاقاني، نسبة إلى خاقان "عرطوج أبو الفتح بن خاقان، الذي كان مسؤولاً عن بنائه والذي خصصت له مقاطعة مجاورة له. وقد أتى ذكر إيوان فيه. وكان يوجد أيضاً برج اسمه اللؤلؤة، تم بناؤه ليكون سجناً للأفشين؛ وربما ليتجول الحرس تحته.

مــن الواضح أن الجوسق قد أفرد في النصوص ليكون سكناً خاصاً يقيم فيه الخلــيفة. وقد دُفن المعتصم هناك عام 842/227. ثم بنى الواثق قصر الهاروني (842/227-847/232) وانــتقل إليه، حيث أقام المتوكل أيضاً أغلب فترة حكمه (847/232-861/247).

لكــن المــتوكل وضع ابنه المنتصر في الجوسق، ووفقاً لابن الأعثم الكوفي (توفــي عــام 926/314) فــإن المنتصر قد دفن هناك عام 862/248. وقد أقام المســتعين والمعتز والمهتدي جميعهم في الجوسق، ودُفن الاثنان الأخيران هناك، بالإضــافة إلــى المنتصــر. وقد أقام المعتمد في الجوسق، حتى انتقل إلى قصر المعشــوق، ورجع إلى هناك للمرة الأخيرة عام 884/269. وفي عام 903/290 قــرر المكتفي إعادة تعيين العاصمة في سامراء، ولكن يبدو أنه وجد الجوسق قد تهدم، لأنه أجبر على التخييم هناك.

إن الدلــيل المحدود حول النساء في القصر يتعلق بالجوسق: ففي عام 255/ 869 كانت قبيحة، أم المعتز، "قد أخرجت الأموال، والجواهر، والممتلكات الثمينة

ـــي المخـــازن الموجودة داخل الجوسق" لتدفع إلى الأتراك. وفي عام 870/256 نشـــرت رســـالة، أحضرتها امرأة "من المنطقة المجاورة لقصر الأحمر (المرتبط عادة مع الجوسق)".

جرت العادة أن يُسجن في الجوسق السجناء المميزون. كان الأول عام 225/ 839-40 هو الأفشين حيدر بن كاوس الأشرساني، الذي تم بناء سجن خاص به. وفي عام 862/248 سجن المستعين ابني المتوكل، المعتز والمؤيد، في غرفة من الجوســـق. ثـم جرى إطلاق سراح المعتز عام 865/251، وأصبح خليفة، وأعاد سجن المؤيد سيئ الحظ، الذي مات أخيراً في السجن، وفي عام 870/256 أطلق سراح المعتمد من السجن في الجوسق ليصبح خليفة.

عـــندما يقترب المرء من القصر عن طريق شارع أبي أحمد، وفقاً لليعقوبي، فإنـــه يقترب من باب البستان وقصور الخليفة، (وهي عبارة يبدو أنها تعني السكن الخـــاص للخلـــيفة). ولا يذكر اليعقوبي الجوسق أو الجوسق الخاقاني في وصفه لطـــرقات ســـامراء، وعلـــى المرء الافتراض أنه تم تصنيفه هنا بين أماكن سكن الخليفة. إن أماكن سكن الخليفة تقع بشكل ما في الطرف الشرقي للقصر. وفي عام 870/256، أيضاً، انطلق موسى بن بُغا "إلى الحير... حتى وصل إلى بوابة الحير المجاورة للجوسق وقصر الأحمر". ويوصف الجوسق بأنه يطل على الحير من الشرق، رغم أنه ذُكر أيضاً باسم "الجوسق على دجلة".

من الواضح أن المرشح للتطابق مع الجوسق هو القصر الشمالي في المجمع. فهـــو البناء الوحيد بالمقياس الصحيح الذي يصلح لإقامة الخلفاء-فهو يحتوي على شـــقق سكنية، لا تتوفر في البناء المربع. ويعتبر المعسكر في الشمال مرشحاً جيداً لمقاطعة الخاقان عرطوج، التي أتى ذكرها على أنها مجاورة للجوسق.

إن القصـــر الموجـــود، ضـــمن التوسع الشرقي المضاف للمجمع، يمكن أن يتطابق مع القصر الكامل، الذي بناه المتوكل للمعتز ضمن الجوسق، وربما أضيف له في فترة حكمه بناء صممته أمه. ويمكن لقصر الأحمر، المرتبط على نحو كبير بالجوســـق، لكنه منفصل عنه، ويوجد قرب بوابة شرقية داخل المجمع، أن يتطابق مع القصر الصغير الموجود في الزاوية الشمالية الشرقية.

المناقشة

إن الطبيعة المزدوجة للقصر، في كل من المصادر النصية ودليل الآثار، تثير الانتباه تماماً. فمن جهة، هناك قصر مربع دون تسهيلات سكنية، يواجه الشارع الأعظم والحديقة من الغرب وفناء كبيراً من الشرق. ومن جهة أخرى، هناك قصر ذو تسهيلات سكنية، يحيط بها جدار استنادي ضخم. وفي الدليل النصي هناك دار العامة، وقصر عام حيث ينصب الخلفاء ويطاح بهم ويجلسون لسماع الشكاوي والحكم. ومن ناحية أخرى، هناك سكن خاص، هو الجوسق، حيث يقيم الخلفاء، ويموتون، ويدفنون، والذي يبدو أنه ميدان نشاط النساء.

تؤكد هذه الميزات التشابهات والاختلافات في مخطط القصر الجعفري. ولا شك أن قصر المتوكلية، الذي بني عام 245/859-247/861، كان القصد منه أن يجاري قصر الخليفة في سر من رأى، وكان إلى مدى معين نسخة منه. كما أن مساحة القصر الرئيسي، وهي 176 هكتاراً، تماثل تقريباً مساحة دار الخلافة، لكن البناء مفصول عن المدينة بمسافة تبلغ بين 1100 متر و 2300 متر، والتي كان يقصد بها فقط هدوء الخليفة وأمنه. إن كتلة قاعة الاستقبال على نهر دجلة أصغر (125× 125 متراً)، وتشرف على القسم الرئيسي من القصر كتل المنازل ذات الأفنية، التي من الواضح أنها تستعمل شققاً سكنية، وإلى الشمال والشرق، تبدو المساحة الشاسعة وتنظيم المخازن والمشاغل مثيرة للإعجاب، بالمقارنة مع الترتيبات التدريجية الواضحة لدار الخلافة. ووفقاً لتاباري، كان هناك باب العامة في القصر الجعفري، الذي لم يتحدد بشكل دقيق بعد، ولكن من الجلي أن دور القصر العام كان، أولاً، متحداً ضمن التصميم الإجمالي، وثانياً، أقل أهمية بكثير مما هو في دار الخلافة. كان المتوكل قد أمضى في الخلافة مدى اثنتي عشرة سنة عندما بدأ بناء المتوكلية عام 245/859، ومن المؤكد أنه كان قد مل من صخب السياسة.

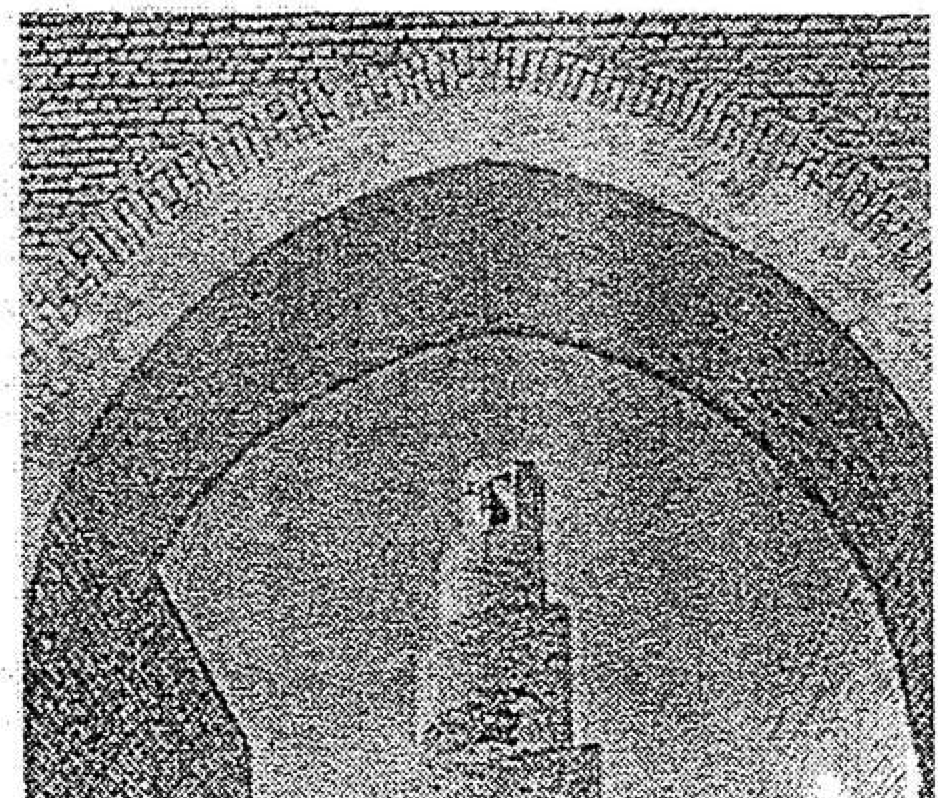
هذا الإخفاق من جانب المتوكل يؤكد رؤيا المعتصم السياسية في بناء قصر عام مميز. وكان المعتصم يضع علاقته مع شعبه في المقام الأول عندما أسس دار العامة. وهناك قصران إسلاميان قديمان آخران لا يزالان باقيين حيث كان التوجه نحو الشعب يعتبر أمراً هاماً؛ أحدهما هو قاعة الاستقبال ذات الإيوانات الأربعة

في مدخل القصر الأموي في عمان، والآخر هو قصر أشناص في الكرخ، وسور أشناص، حيث يؤدي المدخل الرئيسي إلى داخل فناء يحتوي على جامع في مركزه.

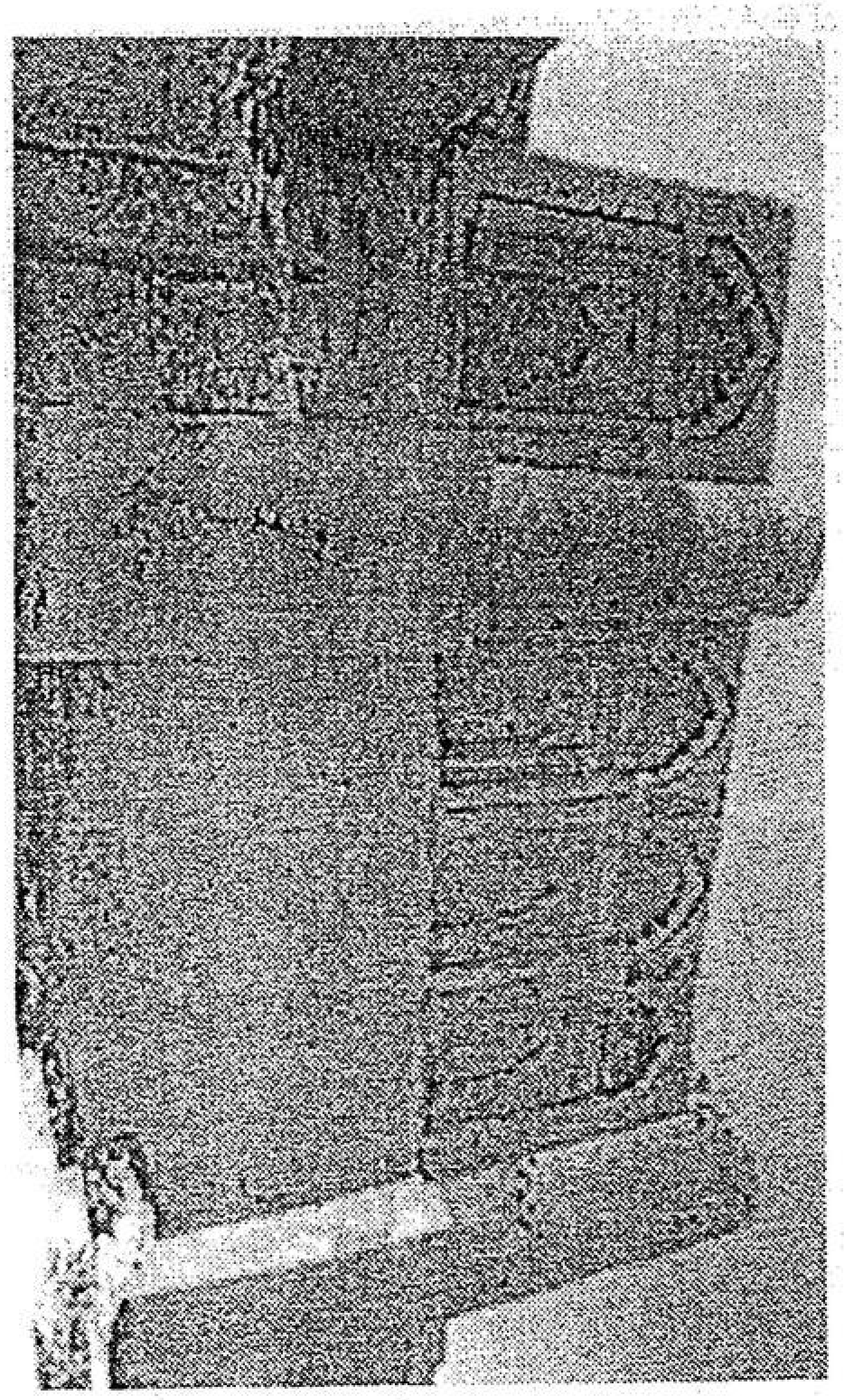
من المثير للانتباه أن القصر العام هو الذي تلقى الاهتمام فيما يتعلق بالإضافات، والتحسينات، ونوعية الإنشاء، رغم أن البنائين لهما أبعاد متشابهة. إن القصر المربع مبني بكامله من الآجر الحراري؛ والقصر الشمالي مبني بشكل جزئي من الآجر الطيني. وكانت عدة مجمعات مبنية أصلاً أو مضافة بعد ذلك إلى الفناء الكبير للقصر الجنوبي، بما في ذلك مجمع الرياضة والترفيه في الطرف الشرقي. والإضافة الوحيدة التي جرت للقصر الشمالي كانت القصر الصغير، بينما يبدو أن جزءاً من البناء الأصلي قد تهدم.

يمكن تفسير عدم التكافؤ هذا إذا اعتبر المرء أن القصر العام هو ميدان نشاط للرجال والقصر الخاص ميدان نشاط للنساء. ولا شك أن الخلفاء كانوا يمضون أيامهم في دار العامة، وليس اليومين المخصصين لسماع شكاوي الناس فحسب. وترتبط التسهيلات الرياضية بالقصر العام، وليس الخاص، ومن الشائع تمضية فترة أطول على التسهيلات لدى أولئك الذين يسيطرون على الأمور المالية.

وأخيراً لا شك أن بعض الخصائص الأكثر غرابة يمكن أن تنسب للتاريخ المعقد للقصر. وربما تناقص الإشغال، وبخاصة قرب النهاية، تحت حكم المعتمد (892/279-870/256)، الذي كان يتمتع بسلطة ونفوذ ضئيلين، وربما كان البناء المربع آخر الأبنية التي شغلت، مما يوضح الطبيعة الخاصة للوحات الجدارية فيما يدعى بقسم الحريم.



جامع سامراء ومئذنة الملوية



قصر العاشق في سامراء

□□

الموساد
ويهود العراق

■ إعداد وترجمة: جودت السعد - الأردن ■

ذكـرت صـحيفة معـاريف الصهيونية الصادرة بتاريخ 8-1-1998، أن الشـرطة الإسرائيلية ألقت القبض على سمسار يبيع نسخة من التوراة المكتوبة علـى الجلد والتي سرقت وهُرّبت من العراق أثناء الحرب العراقية ـ الأمريكية عـام 1991 وأدخلـت إلى إسرائيل عن طريق الأردن، فإذا صحت الرواية التي أوردتها الصحيفة فإن ما هُرّب هو جزء أو بعض من جزء، فالمخطوط التوراتي هذا مكتوب على جلد غزال، ولأن الكتابة بهذه الطريقة تأخذ حيزاً كبيراً فقد كتب كـل سـفر من أسفار التوراة ال (39) منفصلاً عن الأسفار الأخرى، ووضع كل سـفر فـي صندوق مخروطي الشكل يصل ارتفاعه إلى نصف متر، يخترقه من الوسـط وبشـكل طولي قضيب معدني يلف عليه المخطوط ويسهل إخراجه عند القراءة، كما يبلغ قطر المخروط من الوسط حوالي 50 سم تقريباً.

وضـعت جميع هذه النسخ والتي قُدّر عمرها بحوالي 200 سنة في مستودع خـاص في دائرة الآثار العراقية (المتحف العراقي). وتوجد نسخ متفرقة من هذه الأسفار في مركز المخطوطات العراقية، كما علمت أن بعض الأشخاص يمتلكون نسـخاً عـنها حيـث اقتنوها بالشراء المباشر من اليهود العراقيين قبل أن يتركوا العـراق. ومـع أن هـذه المخطوطات ليست نادرة "جداً" إلا أنها تعتبر جزءاً من الـتراث العراقـي المسروق، وأشارت الصحيفة الصهيونية أن هذا المهرب أدخل معه إلى إسرائيل 73 مسكوكة ذهبية تعود إلى العهد البيزنطي جاء بها من العراق أيضـاً. أما سبب اعتقال هذا الشخص فليس لأنه سارق بل لأنه طالب بمبلغ 300

ألف دولار ثمنها.

مـــا يمـــيز تلـــك النسخ عن مثيلاتها المطبوعة أن سفر الخروج فيها يذكر الأهزوجة التي كانت ترددها (مريام) وباقي النسوة بعد أن اجتازوا البحر إلى البر، هرباً من فرعون حسب الرواية التوراتية والتي تقول فيها:

رددوا

واركبوا موج البحر

إرادة يهوه ترتقي فوق

حصانٍ

قوي

فاهزج لي

الخلاص

فأبونا يشد أزرنا

بحزن يعيش إيل

إلهي

يهوه أوقد ناره

حجر

قَلَبَ أمواج البحر

قوية يمينك يهوه

يمينك

عالية النواح

قدسيتك

قضت الاستيطان في فلسطين

سَمِعَتْ كل الشعوب

والجنود

اذكوا روح السيطرة

عظيم

بقوتك المقدسة

غارَ الماءُ بقوة يهوه

الماء

أغنية الموت

معجزة

تمحو الدنس

من عينك قطرة

استقرت

ومع إيل تحلو الإقامة

الرعب

وأنت يهوه معاً

ينمو كنبات على الدمَن

حتى

ونحن نعبر الآن

علماً بأن الأهازيج والأناشيد الدينية اللاحقة هي النتاجات الوحيدة فيما يسمى "الأدب" الصهيوني أو اليهودي، وغالبيتها تقليد مسطح للموروث العربي ـ الأدبي، وهذا ما أشار إليه الباحث الصهيوني (إسحاق أبيشور) الأستاذ في الجامعة العبرية في كتابه الموسوم "أشعار زيارة القبور المقدسة" الذي صدر عام 1982 في القدس. وقد أورد الكاتب مجموعة من الأهازيج التي كان اليهود يقرأونها أثناء حجهم إلى الأماكن التي يقدسونها وتتميز هذه الأهازيج بصفات:

أولاً: معظم النصوص الواردة في الكتاب باللهجة العامية العراقية، وكتبت باللغة العبرية، وهذا دليل على عملية السطو التراثي والأدبي.

ثانياً: جميع هذه الأهازيج عربية بالأصل حولت شخوصها لتخدم التوجه اليهودي

لكنها ظلت عربية المنطوق عبرية الكتابة.

ثالثاً: تعود بدايات وأعمار هذه الأعمال إلى مئات السنين كما يقول الحاخام (شريرا جؤون)

رابعاً: مغفلة أسماء المؤلفين.

أما مواضيع القصائد ــ الواردة في الكتاب ــ فتنحصر بعدة أغراض:

1ــ قصيدة تُنشد ضد زيارة اليهود العراقيين الأماكن المقدسة في فلسطين.

2ــ قصيدة خاصة بزيارة قبر النبي حزقيال (ذو الكفل) والقريب من مدينة الكوفة في العراق.

3ــ قصيدة قصصية تبجل حزقيال مطلعها: "يا نبي يا نبي".

4ــ قصيدة تحكي مآثر النبي عزرا مطلعها "حلو حلو هالسوفر".

5ــ قصيدة مطلعها "آه منك آه منك" وهو شعر تَشكٍّ ودعاء ترددها المرأة ضد زوجها.

6ــ قصيدة مطلعها "يا زوار يا زوار" وهو شعر دعاء لإبعاد اللصوص وسارقي اللحم المقدم كأضاحٍ على قبر حزقيال.

7ــ قصيدة مطلعها "زنجولا خوش زنجولا، زيارتكم مقبولة" وهي مرتبطة ببداية كل زيارة.

8ــ قصيدة مطلعها "والمايزوره اليعازر عمره خسارة" وهي لحث اليهود وغير اليهود على زيارة قبر عزرا في البصرة.

ويشير الكاتب (إسحاق أبيشور) إلى مميزات هذه الأشعار والخيوط التي تربطها فيقول:

أ: أشعار تصلح لكل زمان ومكان ــ كما يعتقد اليهود.

ب: أشعار خفيفة وسهلة الحفظ وأسلوبها قصصي سريع الفهم.

جـ: اللغة مشوشة وهي أقرب إلى العامية العراقية.

تأخذ تلك الأهازيج منحيين: الأول دعوات ضد "الجوييم" أي الأغيار ــ غير اليهود ــ وهم هنا العرب. والثاني مديح للذات اليهودية وتضخيم لها رغم أنهم

كـــانوا يعيشون، تلك الفترة، على هامش المجتمع العربي. ويبدو الحقد واضحاً في بعض الأهازيج ومبطناً في أخرى لكنه واضح الدلالة أيضاً.

ومن الأهازيج التي تتلى أثناء السير إلى فلسطين:

يوم الأحد جينا (جئنا) نصار[1]
طلبنا من رب السما (السماء) السعد والنصر
نزور بيت المقدس بالشباب المؤزر
يفرح صديق إلنا (أي لنا) ويموت أعدانا

-

خيمنا يوم الثنين (الاثنين) وجينا لسامرين[2]
طلبنا من رب السما عالردي (على الرديء) يعين
ونزور بيت المقدس، سبعين سنهدرين
يفرح صديق إلنا ويموت أعدانا

-

خيّمنا يوم الثلاثا وجينا للمغارة[3]
لا كلام للردي كلامه عاره
ونزور ستنا (جدتنا) حوا وساره
رفقا وراحيل خلفتانا

-

جيناك يوم الأربعاء وجينا إحما[4]
يا ريت (يا ليت) جمع العدو يبرد وما يحمى

---

(1) اسم مكان.
(2) اسم مكان.
(3) مغارة مقدسة عند اليهود قرب مدينة الخليل.
(4) قرية في الجولان.

قصدي أزور الخليل في إحمى (أي حِمى)

شُفنا (رأينا) الجبل وهاي (هذه) طبريا

خيّمنا يوم الخميس وجينا لشمس[1]

يا ريت (يا ليت) جمع العدو يصبح وما يمسي

يبعث مسيحنا ويقعد على الكرسي

يجمع جمع إسرائيل شرقي وغربي

–

خيمنا يوم الجمعة وجينا لدوما[2]

يا ريت بيوت العدو تكون مهدومة

يبعث مسيحنا القاعد في روما

يجمع جمع إسرائيل شرقي وغربي.

أدعية وأهازيج كثيرة يرددها اليهود في مواسم الزيارات خارج العراق لكن يمكن إنشادها عند الأضرحة في العراق ومن أكثرها شيوعاً:

روحي فدا النبي موسى نبينا

على كل الأمم إحنا (نحن) علينا

بحق مُخضرّ الزيتون والتينا (التين)

يحوّط (يحيط) أبونا الخَضِر عالميا (على الماء)

–

روحي فدا النبي موسى ويوم المات (الذي مات فيه)

لعلي أصير أنا وهو قدام الآيات

بحق ما جانا (جاءنا به) الزبور والتوراة

تجعل مقام النبي في جنان الحوريا

(1) اسم مكان.

(2) اسم مكان.

روحي فدا النبي موسى وأولاد حنا
طعمى (أطعَمَ) القوم السلوى يا مِنّا
بحق موسى واللي (الذي) بنى تحتنا جنا (جنة)
القصورا (قصورها) عالميّا (على الماء)

أما أثناء زيارة قبر حزقيال في قرية "الكفل" قرب الكوفة فثمة أشعار خاصة بالمناسبة:

جيناك يوم الأحد وجينا للدوره[1]
يا ريت (ليت) بيوت العدو تكون مهجورة
ونروح سيدنا حيطا (حائطه) نزوره
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم الثنين (الاثنين) وجينا لخان أزاد[2]
يا ريت جمع العدو ينقص ولا يزداد
حيطه (حائطه) وأقواسه تنباع (تُباع) بالمزاد
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم الثلاثا وجينا إسكندرية[3]
يا ريت (ليت) جمع العدو توقع عليه بليّه
وجمع إسرائيل بالفرح يملا (يملأ) عينيّه

---

(1) منطقة قرب بغداد.
(2) منطقة قرب النجف.
(3) الإسكندرية مدينة بين بغداد وبابل يقال إن الإسكندر المقدوني هو الذي بناها.

يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم الأربعا وجينا للمحاويل[1]
يا ريت (ليت) جمع العدو يصيحون يا ويل
وجماعة إسرائيل يمشون بشراويل
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم الخميس وجينا للحلّه
يا ريت (ليت) جمع العدو يوقّع بالعلّه
ونقول قدامك يا رب العَلّيه
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم الجمعة وجينا لسيدنا
يا ريت (ليت) جمع العدو تنفغص عينه
وتنكسر أيدين (يدا) حيطه ورجلينه
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم السبت وجينا للنبي
يا ريت (ليت) جمع العدو ينهزم ويختبي
ونقول قدامك أنت يا ربِ
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

ثلاثـــة "أدباء" يهود ولدوا وعاشوا وترعرعوا على شواطئ دجلة، نهلوا العلم العربـــي منذ نعومة أظافرهم، لغتهم عربية وخطهم عربي وأساتذتهم عرب.. ولما

(1) *منطقة قرب الحله.*

جاءت لحظة الاختيار رجحت كفة "التربية" التوراتية والتعبئة النفسية وانحازوا إلى المعسكر الصهيوني بكل مفاهيمه وسلوكياته.. سامي ميخائيل، شمعون بلاّص، شاشون سوميخ. غادروا بغداد وقلوبهم مليئة حقداً على بغداد وحضارتها وقيمها.. ثلاثة "أدباء" أداتهم الإبداعية كانت العربية التي لا يعرفون غيرها، ولم تنشر نتاجاتهم ـ وقتها ـ إلا الصحف العربية، فغابوا أكثر من ربع قرن عن الكتابة حتى أعادت الصهيونية صياغة فكرهم و لغتهم.. "فاحرقوا" الحرف العربي واستبدلوه عبرياً..

كتب سامي ميخائيل رواية "الملجأ" بالعبرية كما كتب شمعون بلاّص رواية "المعبرة" مناخاتها في الغالب عربية، أجواؤها عادة عربية وشخوصها عرب ويهود أسماء عربية وأماكن عربية وعادات وطقوس.. لكن اليهود فيها متميزون.. صاحب البار يهوديّ والنادل عربي، صاحب الشاحنة يهودي والسائق عربي المثقف والقارئ يهوديان وموزع الصحف الأمي عربي.

عمل "الأدباء" الثلاثة بداية في صحيفة "زوهادريخ" و"كول هاعام" وصحيفة "الاتحاد" وهي صحف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، إلا أن (سوميخ) قفز نحو اللبرالية الصحفية وعمل في جريدة هآرتس.

كتب شاشون سوميخ في صحيفة هآرتس 10-9-1999 بعضاً من ذكريات العراقية.. "كانت الطائفة اليهودية في معظمها تعيش في منطقة (الحيدر خانه) في بغداد وفيها مدرستنا المتوسطة.. وكان مدرس الأدب العربي فيها الأديب المعروف (محمد شراره) اللبناني الأصل الذي جاء من جنوب لبنان (مرج عيون) ليدْرس الفقه الإسلامي في النجف، وفي العراق انتمى إلى الحزب الشيوعي وتم طرده إلى لبنان بداية الخمسينات.

خطواتي الأولى نحو الأدب ـ يقول سوميخ ـ بدأت على يد شرارة المتوقد شاعرية وإبداعاً، الذي نصحني بلقاء الجواهري ـ محمد مهدي الجواهري ـ وكان الجواهري قد اعتاد الجلوس في مقهى معروف يمتلكه شخص اسمه (حسن عجمي).

قرأت "أخي جعفر" وقصائد أخرى للجواهري، فقد كان عظيماً بنظري يمتلك أدواته الشعرية التقليدية، ويمسك بقوة مفاتيح الشعر والفن الشعري، القديم والحديث

في آن معاً.

ذهبت مع شراره إلى مقهى حسن عجمي وكان الجواهري يجلس وحيداً يُدخن ويشرب الشاي الثقيل.. اجتماعي بالجواهري أثار شهيتي للقراءة وقوى علاقاتي بالأدباء العرب وبالذات الشعراء منهم إلى درجة بِتَ مهووساً بالشعر، وأستاذي شراره يوجهني ويأخذ بيدي.

اهتماماتي الأدبية كانت كل عوالمي، وترددي على مقاهي الأدباء أصبح جزءاً من برامجي ففي شارع الرشيد، وسط بغداد، يتجمع الكتاب كباراً وصغاراً، وهناك فتحت لي الآفاق الواسعة، لقد كانت بغداد نهاية الأربعينات شعلة متدفقة بالنتاجات الأدبية، ولحقت، ربما، بالقاهرة وبيروت.

بدعم من أستاذي محمد شراره بدأ يظهر اسم شاشون سوميخ على صفحات جريدتي "النديم" و"النبأ". لكن بعض الأصدقاء نصحوني باستخدام اسم فني فبدأت أنشر باسم "المنتصر".

تعرفت في أحد مقاهي بغداد على رائد الحركة الشعرية العربية الحديثة (بدر شاكر السياب)، وكان السياب قد وصل إلى العاصمة قادماً من البصرة منتصف الأربعينات من أجل الدراسة في مدرسة المعلمين العليا. وهناك انضم للحزب الشيوعي، لكن السياب اتهم الحزب الشيوعي ـ لاحقاً ـ بالانصياع لأوامر اليهود والصهيونيين.

"عزرا ونحميا" شعار حركة الترحيل الكبيرة لليهود من العراق إلى فلسطين، ومع هذا "الركب" رحل سامي ميخائيل، شمعون بلاص، شاشون سوميخ، لم تقم الحكومة وقتها بطردهم بل سنت تشريعاً وافق عليه البرلمان العراقي سمح لكل من يرغب بالهجرة من العراق بالخروج.. ولما لم يرحل العدد الكافي من اليهود تولى جهاز الموساد الإسرائيلي إرهاب اليهود وقتل بعضهم ليدب الرعب بينهم فيغادرون على وجه السرعة.

تولى عملية تنظيم وترتيب وتنفيذ الخطة عميل الموساد المعروف (شلومو هلل) وهو من اليهود العراقيين، نشر تفصيلات الخطة وترتيباتها منتصف الثمانينات في كتاب "الريح الشرقية" الذي نشرته (يدعوت أحرونوت) عندما كان (هلل) رئيساً للكنيست الإسرائيلي.

تضمنت الخطة أولاً تنفيذ عدة عمليات عسكرية ضد الكُنس اليهودية ومراكز تجمعهـم وأماكـن أعمـالهم، في وقت كان عملاء الموساد يقومون بربط اليهود العراقيين بمؤسسات الحركة الصهيونية ويهيئون لهم وسائل خروجهم المأمونه (!!) خارج العراق.

علـى الصـعيد السياسي أجرى (شلومو هلل) محادثات مطولة ومفصله مع (توفـيق السـويدي) رئيس الحكومة العراقية والسياسي ورجل الأعمال المعروف (صباح) بن نوري السعيد. وتم الاتفاق على خطة التهجير.. فبعد أن كانت تتم براً عن طريق الأردن وإيران وفيها يواجهون مخاطر الطريق، تم الاتفاق على ترحيل اليهود على متن طائرات إسرائيلية أو طائرات تستأجرها إسرائيل من مطار بغداد إلى مطار لارنكا في قبرص ومنها إلى مطار اللد في فلسطين. ولما سارت الأمور "دون منغصـات" بدأت الطائرات الإسرائيلية المملوكة لإسرائيليين تقل المهاجرين من مطار المثنى وسط بغداد إلى مطار اللد مباشرة. وبلغ عدد الذين تركوا العراق عام 1951 (120) ألف يهودي، أي أن البنية التحتية للدولة الصهيونية شكلت من الـيهود العراقيين، وأول خطوات عدائية اتخذت انضمامهم إلى الجيش الصهيوني وتولي مناصب إعلامية وثقافية معادية للعروبة والعربية.

□□

المؤتمر الدولي السنوي
التاسع والأربعون
للدراسات الآشورية

■ بقلم: د.فاروق اسماعيل ■

انعقد المؤتمر الدولي السنوي التاسع والأربعون للدراسات الآشورية في لندن (7- 11 تموز 2003م) بتنظيم المتحف البريطاني، والمعهد العالي للدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، والمدرسة البريطانية للآثار في العراق، والأكاديمية البريطانية، والمعهد البريطاني للآثار في أنقرة، وعدد من الجمعيات العلمية.

يعد هذا المؤتمر السنوي فرصة لالتقاء الباحثين من شتى دول العالم، وتبادل الخبرات والاستماع إلى نتائج البحوث الأثرية واللغوية والتاريخية الجديدة المتعلقة بمناطق الشرق القديم المختلفة. وقد تميز مؤتمر هذه السنة بالمشاركة المكثفة فيه، حيث وصل عدد المشاركين إلى أكثر من خمسمئة باحث ومهتم، وألقيت فيه /147/ محاضرة قصيرة، أعقبتها مناقشات موجزة، ورغم الأعباء الكبيرة المترتبة على هذه المشاركة المكثفة وفقت اللجنة التحضيرية المنظمة في تأمين ما يضمن سير أعمال المؤتمر بشكل دقيق منظم، حسب البرنامج المخطط.

تم في مساء اليوم السابق لبدء برنامج المؤتمر تقديم عرض مسرحي مبسط لملحمة جلجامش، كتبه أندري جورج أستاذ الكتابات المسمارية في جامعة لندن، وأخرجه ديفيد ريبون، ومثله عدد من الباحثين البريطانيين المعروفين وبعض الهواة.

وفـي بداية اليوم الأول قدمت كلمات افتتاحية ترحيبية موجزة لكل من ماك جـريجور مديـر المتحف البريطاني، كولين بوندي عميد المعهد العالي للدراسات الشـرقية والأفريقـية بجامعـة لندن، دافيد هاوكنز الباحث البريطاني بالنيابة عن المشـاركين، ثم بدأت أعمال المؤتمر التي توزعت في ثلاث قاعات، وقسمت إلى أربع أو خمس جلسات علمية يومية تضمنت كل منها إلقاء عدد من البحوث.

خصصـت إحـدى جلسـات اليوم الأول للبحث في موضوع نهب التراث العراقي القديم ونتائجه؛ قدمت فيه إليزابيث ستون (أمريكا) نتائج عمل اللجنة التي تترأسها، وقامت بإجراء مسح ميداني للمواقع الأثرية والمتاحف في العراق خلال شهر أيار 2003م، ووصفت حالة المتحف العراقي في بغداد والمواقع الأثرية في جنوبـي العـراق بعـد نهـبها خلال الحرب الأخيرة، كما تحدث جون كورتيس (بريطانيا) عن مشاهدات بعثة المتحف البريطاني إلى العراق خلال شهر حزيران 2003م، ثم قدم عدد من المسؤولين العراقيين في الهيئة العامة للآثار والتراث في بغداد والموصل لمحة وصفية عن أحداث النهب الأثري التي حصلت في العراق. وقد نبه الجميع إلى هول الكارثة الإنسانية التي تسببت في فقدان قطع أثرية نفيسة تمـثل معالم حضارية من تاريخ العراق القديم، ودعوا الجهات العالمية والحكومية والمؤسسـات الثقافـية إلى التعاون لتحسين الوضع وبذل الجهود المشتركة لإعادة المنهوبات.

وفي إطار الموضوع ذاته فوجئ المؤتمرون ــ في اليوم الأخير ــ بمشاركة الكولونـيل البحري ماثيو بوجدانوس لتقديم تقرير شامل مفصل عن أحداث النهب فـي المتحف العراقي في بغداد، حيث بين بالصور حالة أقسام المتحف ومخازنه، وقـدم أرقاماً هائلة من المسروقات، وأوضح أنه تم استعادة عدد منها، ولكن عدد المسروقات من مخازن المتحف ما زال بحدود عشرة آلاف وخمسمئة قطعة أثرية، وأشار إلى أنه تمت إعادة افتتاح المتحف في 2003/7/3م وما زالت اللجان تحقق وتدقق، وتبذل جهودها داخل البلاد وخارجها لإعادة المسروقات.

فيما يأتي نقدم عرضاً وتلخيصاً للبحوث التي قدمت في المؤتمر، وذلك بهدف تعـريف القـارئ بهـذا النشاط العلمي وتنبيه الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى المعلومـات المستجدة والموضوعات الجديدة ضمن إطار حضارات الشرق القديم،

آثارها المادية والكتابية وتاريخها السياسي والحضاري.

كان المحور الخاص في المؤتمر بعنوان ((نينوى)) العاصمة الآشورية الأخيرة التي تضم أطلالها تلا كوينجق والنبي يونس في الضاحية الشرقية من مدينة الموصل، ويخترقها نهر خورز ليصب في دجلة المجاور.

كانت نينوى أهم مركز حضاري في شمالي بلاد الرافدين خلال الألف الأول ق.م، ولا سيما بعد أن اتخذها الملك الآشوري سنحريب (704ـ 681 ق.م) عاصمة له في أواخر القرن الثامن ق.م، كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت فيها منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي عن أعداد كبيرة من القطع الأثرية المتنوعة وعن سور المدينة وبواباتها ومعابدها وقصورها الملكية ومكتبتها الثقافية الرائدة، ونظراً لضخامة الموقع ومكتشفاته الكثيرة صار يشكل مجالاً خاصاً واسع النطاق ضمن اختصاص الدراسات الشرقية القديمة الذي يعنى بدراسة آثار الشرق القديم المادية والكتابية ولغاته وتاريخه السياسي والحضاري.

سنعرض بشكل موجز البحوث المقدمة في المؤتمر ضمن مجموعات متماثلة في موضوعاتها ومصادرها.

1. آثار نينوى:

تعرضت بحوث كثيرة لآثار نينوى، إذ تحدث منهل جابر مدير متحف الموصل عن نتائج التنقيبات في تل النبي يونس وبوابة الإله نرجال وعرض صوراً وشرحاً لأهم المكتشفات المعمارية والفنية.

وتحدثت ديانا بيكفورث (أمريكا) عن بوابة خلزي في أقصى الجنوب الشرقي من الموقع، وعرضت نتائج تنقيبات جامعة بركلي هناك خلال السنوات 1987م ـ 1990م، وتعرض الباحثان العراقيان مؤيد سعيد دامرجي ودوني جورج يوحنا (المتحف العراقي في بغداد) لأهمية نهر خوزر والتحصينات الدفاعية الآشورية في مدينة نينوى، وتحدثت فرجينيا دانري (فرنسا) عن الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية في نينوى والتي يبلغ عددها فيها الأربعين من أصل أكثر من مئة مكتشفة في العواصم الآشورية، وبينت أنها ترمز إلى القوة والسلطة، وتابعت بدايات نشأتها وتطورها الفني، كما تحدث ب. شارفات (تشيكيا) عن أختام من نينوى تعود

إلى حضارة نينوى (5) عثر عليها خلال تنقيبات تومبسون وملوان في الموقع سنة 1930م، وعرضت إريكا هونتر (بريطانيا) مجموعة طاسات تعويذية من نينوى عثر عليها خلال التنقيبات السابقة نفسها ومحفوظة في المتحف البريطاني بلندن، وقامت بمقارنتها مع نماذج مشابهة عثر عليها في آشور ونمرود.

وقدم يورغن بير (ألمانيا) دراسة تضمنت نظرات جديدة إلى قناة خنيس بافيان شمال شرقي الموصل /60/ كم، وهي تعد من أهم الإنجازات الآشورية التي أبدعت في عصر الملك سنحريب في مجال الهندسة المائية، إذ كانت توصل الماء من المجرى العلوي لنهر جومل إلى نينوى ومحيطها، وقد نقشت على جانبيها على جدران الصخور منحوتات فنية عديدة، تمتلك ــ رغم حالتها الحالية السيئة ــ أهمية كبرى ضمن الأعمال الفنية التي تصور الآلهة ورموزها والحكام الآشوريين، وكانت ذات أغراض دعائية سياسية.

وقدم جيوفري تورنر (بلجيكا) بحثاً عن أرشيفات المتحف والمنحوتات النافرة في قصر الملك سنحريب في تل كوينجق استعرض فيها أعمال الموسم الثاني والرئيسي لتنقيبات لايارد في القصر ونتائجها، والدراسات المختلفة حول الموضوع ذاته، وعرض ملاحظات وأفكاراً ذاتية عنها.

2. الجغرافيا التاريخية لمنطقة نينوى:

قدمت أربع دراسات أمريكية متميزة عن الجغرافيا التاريخية للمناطق المحيطة بنينوى، إذ تحدثت إليانور بربانس عن الاستيطان الريفي في منطقة نينوى، وأوضحت أن اهتمام الآشوريين لم يقتصر على مدنهم الرئيسية، بل شمل مراكز استيطان ريفية متفاوتة الأحجام، شهدت التمدن والرقي الحضاري. وتحدث مارك الطويل عن مسالك مدينتي آشور ونينوى اعتمادا على خرائط الأقمار الصناعية، وحدد أهمها في المناطق الداخلية من شمالي بلاد الرافدين وفي أطرافها وكيفية ارتباطها بالمناطق المجاورة والبعيدة، وركز على النماذج التي توصف في النصوص الكتابية بـ"الطريق الملكي"، وبين أن شبكة المواصلات الدقيقة كانت تسهل أمام الآشوريين تنفيذ حملاتهم العسكرية، وتنشط التبادل الاقتصادي والتثاقف. واعتماداً على معلومات الأقمار الصناعية أيضاً تحدث ياسون أور عن النظام المائي في منطقة نينوى وأكد درجة التطور الفائقة في هذا المجال خلال

العصـــر الآشوري الحديث، وركز على جهود الملك سنحريب المتميزة في ذلك، وعــرض مصـــورات مستمدة من الأقمار الصناعية والتصوير الجوي والبحوث الجيولوجـــية ونـــتائج تنقيبات جامعة شيكاغو سنة 1930م وما بعدها في منطقتي قناتـــي بافـــيان وشـــيروان. ودرس طوني ولكنسون التغيرات الطبيعية في منطقة نيـــنوى بدءاً من أواسط الألف الثالث حتى أواسط الأول ق.م، وركز على الأنماط الأساســـية لمظاهـــر تلـــك التغـــيرات، ومعايير مفهوم المدينة وتبدلها عبر الفترة التاريخـــية المذكورة، كما سعى البحث إلى الربط بين المعلومات المستخلصة من البحوث الثلاثة السابقة وتقييمها واستخلاص دور تطور النظام المائي واتساع شبكة الطرق وتنوع نماذج الاستيطان الريفي في استمرارية وجود مدينة نينوى وأهميتها السياسية والحضارية.

3. التنقيبات الأثرية في منطقة نينوى:

قدمـــت بحـــوث عن التنقيبات الأثرية في ستة مواقع أثرية قريبة من نينوى، فتحدث الباحث العراقي فاروق الراوي (بريطانيا) عن تنقيبات جامعة الموصل في مديـــنة تربـــيص (شريخان) الواقعة على بعد /8/ كم شمال غربي نينوى، والتي أنشأها الملك الآشوري شلمنصر الثالث (858ــ 824 ق.م) حيث كشف عن بيت للقيادة (بيت ريدوتي) ومعبدين للإلهين مس لم ونرجال، وقد كانت المدينة حاضرة مهمـــة لملـــوك السلالة الشركينية الآشورية، وعثر فيها على نقوش من عهد تلك الســـلالة، وعلـــى نســـخة شبه كاملة من الرقيم الخامس من ملحمة إرّا وملك كل الديـــار. وبحثـــت إليونورا بابالاردو (إيطاليا) في عاجيات كلخو (نمرود) جنوب شرقي نينوى، وقدمت معلومات جديدة مستخلصة من نتائج تنقيبات جامعة تورينو الإيطالية في الموقع بين 1987م ــ 1989م، حيث عثر على نحو /1450/ قطعة فنـــية مصـــنوعة من العاج، وركزت على دراسة أسلوبها الفني والمشاهد البشرية والنباتية التي تصورها. وبحثت سوزان هربوردت (ألمانيا) في أسلوب إناء ذهبي فريجـــي من المدفن الملكي في نمرود لتوضيح سر وجوده هناك بعيداً عن موطنه فريجـــيا، وبـــيان فـــيما إذا كـــان مســـتورداً من هناك أم أنه تقليد أحد الحرفيين الآشـــوريين. كمـــا قامت نواله المتوالي مديرة المتحف العراقي في بغداد بعرض نصـــوص كتابـــية مـــن نمرود مكتشفة حديثاً. ووصف توماس هرتل (الدنمرك)

محاولة إعادة بناء جديدة لبوابة موقع بلوات (قديماً إمجور إنليل، جنوب شرق نينوى) والتي تعود إلى عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث، وفي بوابة شهيرة بالحزم البرونزية التي تزينها، ومحفوظة في المتحف البريطاني، وقد طرح آراء جديدة في أسلوب الزخرفة ودلالاتها، مستفيداً من مضمون النقوش الكتابية الموجودة على البوابة وغيرها من كتابات عصر شلمنصر الثالث. وتكلم أوفه سيفرتسن (ألمانيا) على مظاهر معمارية في موقعي تبه جاورا (شمال شرقي نينوى) وتلول الثلاثات (غربي نينوى)، وهما موقعان مهمان من مواقع عصور ما قبل التاريخ (عصر العبيد ـ نينوى 5)، وقد ركز على المظاهر الشكلية المميزة والنواحي الوظيفية والرمزية.

كما تحدث كريتسيان كيبنسكي (فرنسا) عن التنقيبات في موقع جرى رش (2001 ـ 2002م) غربي نينوى وقدم نتائجها الجديدة وصلتها بالسبر العميق الذي نفذ في نينوى.

4. موضوعات أثرية فنية:

ثمة موضوعات تعتمد معلوماتها على نتائج التنقيب الأثري والمكتشفات المختلفة، وقد تدخل في إطار تاريخ الفن، وأخرى تعتمد على ما يرد في النصوص الكتابية، إلى جانب المعطيات الأثرية، وقد ألقيت في المؤتمر بحوث كثيرة من هذين النوعين تتصل بمدينة نينوى وحضارتها، بلغت أكثر من عشرين بحثاً.

فمن الموضوعات الأثرية نذكر بحث زينب بحراني (أمريكا) عن رأس الملك، العنف والهيئة في الفن الملكي في نينوى الذي بين الرؤية الآشورية عن العنف، ولا سيما كما تظهر في منحوتة تصور معركة تيل نوبا، وفصلت في التطبيقات الآشورية في مجال الحرب. وعن موضوع مشابه تحدثت ريتا دولكه (إيطاليا) حيث عالجت تصوير "رأس العدو" في المنحوتات المكتشفة في قصور نينوى، ومن البحوث الطريفة بحث كارين بولنجر فوستر (أمريكا) عن الحدائق المعلقة في نينوى، وقد بينت فيه أن المناقشات المؤخرة لهذه المسألة تحدد مكانها في قصر سنحريب في مدينة نينوى، وأن السر المدهش فيها هو الابتكار الخلاق الذي أبدعه سنحريب لإيصال المياه من مسافات بعيدة، وأشارت إلى أن الرسوم التخطيطية الحديثة لها تقترح وجود شرفات جانبية مدكوكة وممرات مستندة إلى

دعامات مسقوفة بأنواع من الشجر تبدو وكأنها مزروعة بشكل معلق في الأعلى، ويبدو أن سنحريب أبدعها بغرض توفير طابع جمالي متميز لقصره ومجالسه، وثمة صور فنية في النصوص الآشورية الحديثة تحاكي مظهرها الجمالي، وبشكل عام يمكن مقارنتها بمشاهد طبيعية في الفن الإسلامي الأندلسي.

وتحدث ستيفن لومسدن (الدنمرك) عن الخبرة في توظيف المساحة في تخطيط مدينة نينوى، وبين أن سنحريب قدم إبداعات جديدة في تخطيط مدينته الجديدة تعبر عن رقي حضاري، وأنه استغل المساحات المتوافرة بشكل دقيق، ونجح في استغلال المصطبة النهرية في الجزء الشرقي من سور المدينة.

وتكلمت شيكاكو استر وتنابه (اليابان) على أسلوب التصوير التسلسلي في المنحوتات الفنية الآشورية المتأخرة التي عثر عليها في نينوى، وهي تعتمد على مبدأ تكرار المشاهد معدلة لتصوير مراحل مختلفة من حيث أحداث الحكاية التي تريد توثيقها بالتصوير وأزمانها، وبينت أن أقدم نماذج هذا الأسلوب يعود إلى زمن توكولتي نينورتا الأول (1243 ــ 1207 ق.م) من ملوك المملكة الآشورية الوسطى، ولكنها شاعت أكثر في زمن آشور بانيبال، وقد أوضحت مقولاتها من شاهدين هما منحوتة صيد الأسود ومعركة تيل توبا.

وقدمت ديانا شتاين (ألمانيا) بحثاً مميزاً عن القرص المجنح والشجرة وبينت وجود دلائل تشير إلى العمق التاريخي الحضاري لهذين الرمزين الآشوريين، تعود إلى العصر الحجري القديم، وأوضحت أن الجمع بينهما يهدف إلى التعبير عن رموز وأحلام إمبراطورية، ولذلك شاع الاهتمام بها في فنون العصر الآشوري الحديث أكثر من غيره، وتعرضت كلاوديا فيشر (ألمانيا) لموضوع الملوك والكؤوس في الفن الرافدي منذ عصر سلالة أور الثالثة، وبينت أن المشهد التصويري هذا يمثل لغة مجازية وأسلوباً رمزياً يهدف إلى إيصال معلومات وفكر عن طريق الرمز، مكملاً بذلك التعبير عن الإيديولوجيا السياسية في النقوش الملكية والرمز السلطوي في الأختام الأسطوانية، إنه مشهد يدلل على وجود صلة وثيقة بين الإيديولوجيا والدعاوة ويؤكد حرص الملوك على نشر أفكارهم وهيبتهم.

وقدم إبراهيم وينيتسر (أمريكا) دراسة تحليلية عن مشهد الحديقة في أعمال آشور بانيبال الفنية وربطها بما يرد في كتاباته عن الموضوع ذاته، حيث تصور

بالكلمة عناصر المشهد مصحوبة بتلميحات إلى أفعال جنسية وألحان هادئة. وتحدثت اليزابيت فونان (فرنسا) عن ثلاثة تماثيل صغيرة آشورية من مكتشفات باول إميل بوتا في خورس آباد 1843 ـ 1844م، أهداها الملك لويس فيليب سنة 1847م إلى متحف اللوفر بباريس.

وتحدثت بياته سلجه (ألمانيا) عن منحوتات آشورية من نينوى محفوظة في متحف برلين كانت قد نقلت سنة 1855م إليها من القصر الجنوبي الغربي لسنحريب في تل كوينجق، وهي تصور مشاهد تتضمن رماة السهام وحاملي الرماح وموسيقيين وجنود الحامية الملكية، ويعتقد أنها كانت مركبة معاً في مشهد عام وتربط بين القصر ومعبد الآلهة عشتار، كما قارنتها بمنحوتات مشابهة لتوضيح سياقها الأثري التاريخي.

وقدم اليسون كارمل توماسون (أمريكا) دراسة عن برونزيات الملك سنحريب التي كانت مخصصة لأغراض تزيينية وتعبر عن مدى غنى الخزانة الملكية، وفصل الحديث عنها لبيان نظرة الآشوريين إلى العالم المادي والمواد الثمينة.

5. نينوى والمراكز الحضارية الأخرى:

تحدث جوليان رياده (بريطانيا) عن نينوى في العصر البابلي القديم وركز على البقايا المعمارية والنقوش الكتابية وأعمال فنية متفرقة عثر عليها في منطقة معبد الآلهة عشتار، وذلك لوضع تصور عام عن تاريخ مدينة نينوى خلال ذلك العصر.

وألقيت مجموعة بحوث تناولت العلاقات بين نينوى ومراكز حضارية مشهورة في بلاد الرافدين وخارجها، فقد بحث الان تينو (فرنسا) في العلاقات بين آشور ونينوى، ودرس مارك دي ميروب (أمريكا) العلاقات بين بابل ونينوى، وتعرض باول ألين بوليو (أمريكا) لموضوع من نينوى إلى أوروك وتتبع مظاهر استمرار الثقافة الآشورية في بلاد بابل حتى العصر الهلنستي، كما يتضح في التقاليد الكتابية الأدبية، وعرض أمثلة تدلل على ذلك.

وتحدث ماتيس دي يونج (هولندا) عن نينوى والقدس، وعقد مقارنة بينهما

لاستخلاص صورة المدينة الملكية في ضوء كتابات القرن السابع ق.م والتوراة. كما تحدثت ماريان فلدمان (أمريكا) عن مدينتي نينوى وطيبة العاصمة المصرية القديمة، وفصلت الحديث عن العلاقات الآشورية المصرية خلال القرن السابع ق.م من الناحيتين الفنية والسياسية، وعرضت مشابهات في منحوتة آشور بانيبال التي تصور معركة تيل توبا والمنحوتة الصخرية لأسرحدون على نهر الكلب في لبنان.

6. نينوى في موضوعات فكرية من النصوص الكتابية:

أبرزها موضوعات فكرية دينية، فقد بحث محمد علي أتاش (أمريكا) في العالم السفلي في التصور الفكري النينوي كما ينعكس في الأعمال الأدبية، ولا سيما أسطورة "نزول أمير آشوري إلى العالم السفلي".

وتعرضت ثلاثة بحوث لمظاهر الآلهة عشتار المعبودة في نينوى وسائر مناطق الشرق القديم، منها بحث ف.ج. لامبرت (بريطانيا) عن عشتار مدينة نينوى الذي أوضح مظاهرها ونعوتها في ضوء نص شعائري ديني يتضمن في مطلعه سلسلة من النعوت التي تعبر عن مظاهر شخصيتها ووظائفها الإلهية. وكذلك بحث بربارا بوتر (أمريكا) عن عشتار نينوى وعشتار أربيل في ضوء نص أدبي يمثل ترتيلة دينية للملك آشور بانيبال عثر عليها في نينوى، وبينت أن وجوه الاختلاف بين الآلهتين واضحة، وإن كانت هناك خصائص مشتركة. كما بحثت دوريس بريشل (ألمانيا) في ملامح شعائر عبادة الآلهة عشتار نينوى في ضوء المصادر الحثية التي تؤكد انتشار عبادتها إلى بلاد الأناضول منذ القرن الخامس عشر ق.م، وانضمامها إلى مجموعة الآلهة المعبودة هناك، ولكن مرور الزمن لم ينس الحثيين أصولها الغريبة عنهم، واستعرضت الباحثة مظاهر شعائر عبادتها بعيداً عن موطنها الأم.

ومنها أيضاً بحث ست ريشاردسون (أمريكا) عن النبوءة والإيمان في نصوص من نينوى الذي يؤكد أن المظاهر التطبيقية العملية للتنبؤات والعرافة وجدت منذ اقدم العصور ضمن الممارسات التقليدية الشعبية والدينية، واعتمدت غالباً على الملاحظة. وبين أن نصوص العصر البابلي القديم من ماري وبابل تظل أفضل النصوص تصوراً للممارسات التطبيقية لها بهدف إيجاد إمكانية لسرية المعلومات واستخدامها كلغة خاصة للأسرار التجسسية والدبلوماسية.

7. في الحضارة الرافدية. الآشورية:

ألقيت بحوث تناولت مسائل تتعلق ببلاد آشور، وأخرى عامة تتعلق بحضارة بلاد الرافدين بشكل عام، وتطرقت إلى مجالات حضارية متنوعة.

ففــي مجــال الأدب تحدث ياكوب كلاين (أمريكا) عن عمل أدبي سومري معــروف بعنوان الإنسان وإلهه يعالج مسألة الإنسان المعذب. وتطرق إلى الآراء المختلفة في تحديد الجنس الأدبي له، وعارض أن يكون العمل الأدبي يمثل قصيدة شعرية في الحكمة أو مرثية شعائرية، بل هو نص عام في أغراضه، ومستقى من الحــياة اليومية العملية، ولذلك تظهر فيه ملامح متنوعة، وأشار إلى أنه يعد نشراً جديداً للعمل الذي نشره منذ زمن طويل (1955م) الباحث صموئيل نوح كريمر،

وفــي مجال الكتابة والمكتبات قدمت عدة بحوث متميزة، إذ تحدث ألاسدير ليفينجســتون (بريطانيا) عن آشور بانيبال ومهارة الكتابة، وبين دور آشور بانيبال المتميز في رعاية فن الكتابة وإنشاء أضخم مكتبات الشرق القديم وأهمها، ثم ركز علــى ادعائــه في إحدى كتاباته بأنه تعلم الكتابة علي الألواح الطينية في مقتبل العمــر، وكــان يجيد القراءة والحساب، بل يقرأ رقماً عسيرة الفهم دونت باللغتين الســومرية والأكدية، وأورد طائفة من الشواهد الكتابية المختلفة التي تدلل على أن آشور بانيبال كان مبالغاً في ذلك الادعاء.

وقــدم جرانــت فــرام (كــندا) وأندري جورج (بريطانيا) بحثاً مشتركاً عن المكتــبات الملكــية في نينوى، شواهد جديدة على إنشائها وعرضا نصين كتابيين غــير منشــورين سابقاً عن جهود آشور بانيبال في هذا المجال. وعرض إكارت فــراهم (أمــريكا) ملاحظــات على حواش توضيحية من مكتبة آشور بانيبال في نيــنوى، فقد كشف في المكتبة عن مئات من الرقم تتضمن نصوصاً تمثل حواشي تفســيرية لنصوص متعلقة بالنبوءات والتنجيم والأدب والدين، ورأى الباحث أنها دونــت بتوجيه شخصي من آشور بانيبال إلى الشرّاح بغية تحقيق فهم أفضل لتلك النصوص، ولعل ذلك يتصل بزعمه بأنه كان يقرأ رقماً عسيرة الفهم!!

وتحدث هرمان فانستيفوت (هولندا) عن مستوى مهارة الكتابة المسمارية في نيــنوى. وقــدم جرد شتاينر (ألمانيا) بحثاً بعنوان مكتبة آشور بانيبال والأصوات اللغويــة الصــامتة القابلــة للإدغام في اللغة السومرية، حيث بين وجود جداول

معجمية في تلك المكتبة تورد ألفاظاً سومرية بصيغتين، ويتصل ذلك بأسلوب لفظي خـاص للألفاظ السومرية شاع خلال عهد آشور بانيبال ومراحل أخرى من الألف الأول ق.م.

أمـا الحديـث عن المكتبات القديمة ولا سيما مكتبة آشور بانيبال ومشاريع إعـادة إحـيائها، وتصنيف الكتابات المسمارية باستخدام الحاسوب، فقد كشف عن اهـتمام واسع وتنافس إبداعي في هذا المجال، ولعل عناوين البحوث وحدها كافية لبيان ذلك، وهي:

جانيت فينكه (بريطانيا): مشروع المتحف البريطاني (مكتبة أشور بنيبال).

كريسـتوفر ووكر (بريطانيا) وعلي ياسين أحمد (جامعة الموصل): مشروع مكتبة آشور بانيبال المشترك بين المتحف البريطاني وجامعة الموصل.

إرفيـنج فيـنكل، جون تايلور (بريطانيا): مشروع الكتابة المسمارية الرقمية Digital.

ماديـن فيـتز جـيرالد (أمـريكا): مقدمـات لإيجاد مكتبة رقمية للكتابات المسمارية.

مانويل مولينا (إسبانيا): برنامج كومبيوتري للنصوص السومرية الحديثة.

جرفـرد موللر (ألمانيا): برنامج كومبيوتري لحفظ الرقم الكتابية المسمارية بأبعادها الثلاثة.

دين سنيدر (أمريكا): مشروع حمورابي الرقمي للرقم المسمارية.

ميشائيل بورتر (أمريكا): خريطة رقمية للشرق القديم.

وقـد عـرض أصـحاب هـذه المشاريع المتطورة شروحاً تفصيلية نظرية وتطبيقـية لهـا، وتلتها نقاشات مفيدة تنبه إلى أن استخدامات الحاسوب في مجال حضارات الشرق القديم يتطور بدرجة كبيرة.

وقدمـت بحـوث عدة في مجال علم الرياضيات لدى القدماء، حيث تحدثت إلـيانور روبسون (بريطانيا) عن مكانة علم الرياضيات في بلاد آشور وبينت أن جذور الرياضيات تعود إلى حضارات العراق القديم، ولم يكن تطور هذا العلم في بلاد آشور أقل مكانة من التطور الهائل في بلاد بابل (جنوبي العراق). وتحدث ج.

فريبرج (السويد) عن نصوص مسمارية جديدة في الرياضيات موجودة ضمن مجموعة شوين في المتحف الوطني النرويجي وتبلغ أكثر من /300/ رقيم، وعرض صوراً لها واستنساخات يدوية، وعرف بها بشكل عام.

كما عرض دونجان ملفيل (أمريكا) مضمون نص رياضي من سوسا يعود إلى العصر البابلي القديم، ويعالج تكوين دائرة مضلعة القعر. وقدم ماتيو أوسندريفر (ألمانيا) بحثاً عن بعض ملامح نظرية دوران القمر في العصر البابلي المتأخر، وبين وجود إشارات في نصوص العصر إلى منهجين أساسيين لتحديد مدة دوام السنة وعلى فهم القدماء للمدى الزمني بين غياب أو ظهور الشمس وغياب أو ظهور القمر.

وفي مجال الطب والسحر قدمت ثمانية بحوث تناولت المعارف الطبية لدى القدماء والنصوص المسمارية التي تعبر عن ذلك، وهي:

آنا أتيا، جيلز بويسون (فرنسا): التراث الطبي في الدراسات المسمارية الآشورية.

ارفينج فينكل (بريطانيا): الطب البابلي القديم في أور.

مرخام جيللر (بريطانيا): نصوص طبية عن أمراض الكلية والمستقيم من مدينة آشور.

توماس ريشارد كمرر (إستونيا): الأمراض الوبائية في الكتابات المسمارية.

جوآن سكورلوك (أمريكا): من إساجيل كين أبلي إلى أبقراط.

نيلز هيسل (ألمانيا): قراءة النصوص المسمارية وتحليلها بعد أكثر من قرن على جهود فليكس فون أوفيليس في "الطب المسماري، مدخل إلى مجموعة كوينجق الطبية".

دانيل شفمر (ألمانيا): تعويذات ضد السحر المؤذي في آشور.

سنثيا جان (بلجيكا): التعويذات في العصر الآشوري الحديث.

وفي مجال الحرب والحياة العسكرية تحدث امي بارون (كندا) عن التجهيزات العسكرية في العصر الآشوري الحديث كما صورت في المنحوتات الجدارية التي كشفت في القصور الآشورية في مواقع نينوى ونمرود وخورس آباد.

وتحـدث نجـل تليس (بريطانيا) عن العربات الحربية في العصر الآشوري الحديـث حيـث ألقى نظرة عامة شاملة على الشواهد المتوافرة في اللقى الأثرية والنصـوص الكتابـية المـتعلقة بالعربات، بغية توضيح كيفية تصميمها وأسلوب صـناعتها ومجـالات اسـتخدامها. وقدمـت ماريا جابريلا ميكالي ودافيد ندالي (إيطاليا) بحثا عن تشكيل معسكرات الملك سنحريب ووظائفها الاستراتيجية ومدى الفكر السياسي فيها حللا فيه مشاهد المعسكرات وعناصرها المعمارية اعتماداً على المعطـيات الأثـرية، وربطا ذلك بأخبار المرويات الكتابية، واستخلصا الوظائف والأسـاليب التكتيكـية الحربية، وقارناها بمثيلاتها في العصر الآشوري الحديث. وتحدث كريستوف أهلينجر (سويسرا) تحت عنوان من المعركة إلى الأنصاب، من الأنصـاب إلـى الـتاريخ: عـن سنحريب في مدينة لاخيش، ورأى أن المشاهد المصـورة في المنحوتة التي تصور المعركة ليست تصويراً مباشراً انطباعياً، بل يعتمد على أخبار مدونة عنها أو كانت متناقلة بين الناس شفهياً، وأن الاهتمام الفني بحدث النصر على لاخيش، رغم أنها لم تذكر في حوليات سنحريب الكتابية، يعود إلى أنها كانت تشكل الممر العسكري إلى العاصمة السياسية.

وتحـدث شـتيفان هاورز (ألمانيا) عن القبور والنظام الاجتماعي في مدينة آشور خلال العصر الآشوري الحديث، اعتمد فيه على دراسة أشكال نحو /1300/ قـبر، عـثرت علـيه البعثة الألمانية المنقبة في آشور (قلعة الشرقاط) تعود إلى العصـر الآشـوري الحديث، وسعى إلى الربط بينها وبين ما ورد في النصوص الكتابـية عن النظام الاجتماعي والأسري آنذاك. كما تحدث ميركو نوفاك (ألمانيا) عـن بـرامج تخطـيط المـدن الآشورية في آشور ونينوى وغيرهما، وعرض الخصائص والمظاهر العامة لها، وقارن بين الأساليب المختلفة.

وقدم مسيمو كولترارو (إيطاليا) بحثاً بعنوان الرموز الخفية للانبعاث، دراسة في الصلات الفنية بين بلادي إيجيا والرافدين بين أن هناك شواهد أثرية على تلك الصـلات، ولكـنها قلـيلة، وركـز في توضيحها على قطع زجاجية من العصر الـبرونزي المتأخر عثر عليها في ثوريكوس وكاكوفاتوس (اليونان) مزينة بنجوم تذكر بالرموز الفنية للآلهة عشتار وتظهر تشابهاً مع أعمال فنية رافدية.

وتحدثـت إلـيانور جورالنـيك (أمريكا) عن أنماط المنسوجات في العصر

الآشـوري الحديث، وهي معروفة بشكل أساسي من خلال الأعمال الفنية الحجرية والـبرونزية والعاجـية والرسوم الجدارية الملونة، وتتبعت الباحثة تطور أسلوب زخرفة المنسوجات عبر العصور، وبينت تطور استخداماتها ووظائفها، وأن مدينة نينوى بالتحديد شهدت تنوعاً كبيراً في أساليب التزيين الفنية التي تركت تأثيرها في سائر مناطق الشرق القديم وكذلك في اليونان.

وقدمـت شيري ماك جريجور (أمريكا) بحثاً بعنوان نساء موسيقيات في بلاد آشـور، شـواهد كتابية وبصرية درست فيه مشاهد في منحوتات القصور الملكية وفـي الأعمال العاجية تظهر انتشار تقاليد موسيقية رسمية وشعبية ودينية، ووجود محترفات تمتعن بمكانة متميزة عالية، وبينت أن الحفلات الموسيقية كانت تقام لدى الاحتفال بانتصارات والمناسبات الملكية والدينية وأداء شعائر المعابد.

8. في حضارات المناطق المجاورة:

نعنـي بذلـك الـبحوث التي تحدثت عن حضارات المناطق المجاورة لبلاد الرافديـن أو التـي تعـد امتداداً لها، وسنقسمها إلى أربع مجموعات وفق التقسيم الجغرافي.

آ - سورية:

حظـي موقعـا قطـنا (تـل المشرفة، شمال شرقي حمص) وتيل برسيب/ مسـواري (تل أحمر على الفرات، جنوبي جرابلس) باهتمام كبير متميز، وقدمت بحوث عديدة تناولت الآثار المكتشفة في الموقعين.

قـدم ماركو ياموني (بريطانيا) بحثاً عن فخار العصر البرونزي المتأخر في قطـنا، وصـلته المحـتملة بالفخار الميتاني عرض فيه نتائج التنقيبات الإيطالية (المشـتركة)، وركـز على القصر الملكي والقطع الفخارية التي تظهر تشابهاً مع الفخاريات المصنوعة وفق الأسلوب الميتاني، وأكد على أن المكتشفات عامة وتقدم إضـافات جديدة إلى معلوماتنا عن العصرين البرونزي الوسيط والمتأخر. وتحدث ميركو نوفاك (ألمانيا) عن قصر قطنا والأرشيف الملكي، ووصف وظائف القصر ومظاهـره المعماريـة، وبين أنه كان من أضخم المباني في الشرق القديم خلال الألـف الثانـي ق.م، واستعرض مكتشفات كثيرة عثر عليها في القصر، أبرزها

طبعات أختام أسطوانية ذات نوعية عالية ونصوص كتابية مسمارية تبين اسم ملك المدينة إدانا الذي عاصر الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (1380 ـ 1354 ق.م)، وقـدم ميشـيل المقدسي (سورية) بحثاً عن المبنى الآرامي في مشرفة ودماره في نهايـة القـرن الثامن ق. م، وصف فيه الخصائص المعمارية للمبنى واستخداماته الوظيفـية، وعـرض نتائج التنقيب السوري فيه، كما تحدث بفلتسنر (ألمانيا) عن المدفـن الملكـي في قطنا وشرح أسلوبه المعماري وتكوينه وموجوداته، وقارنه بمدافن أخرى من الفترة نفسها.

أمـا موقع تيل برسيب/ مسواري فقد تناولت أربعة بحوث أيضاً جوانب من مكتشـفاته، وأهمها نصب لوفي حديث لإله العاصفة وصفه جوي بونينس (بلجيكا) مـن الناحية الفنية، وبين أنه مصنوع من حجر البازلت، ويصور إله العاصفة في مظهـره المـألوف فـي الأعمال الفنية، ويشبه في تفاصيله الأنصاب الأناضولية والآشـورية، ويعـود إلى نحو 900 ق.م، أما ج.د. هاوكينز (بريطانيا) فقد درس الـنص الكتابـي المـدون علـى النصـب، وهـو مكتوب بالكتابة التصويرية (الهيروغليفـية) اللوفـية، ويتألف من /34/ فقرة، ويتحدث عن انتصارات الملك حمـياتا علـى الأعداء، وأوضح أن الموقع حمل اسمين، أولهما مسواري، ثم تيل برسـيب فـي العصر الآشوري الحديث، وأن أسماء ملوكه ربما تكون آرامية في صياغة لوفية.

وتحـدث مارتيـن ماكينسون (فرنسا) عن الرسوم الجدارية في تيل برسيب، تاريخهـا وأسـلوبها الفني وقارنها بشواهد مماثلة مكتشفة في القصور الآشورية، وحلل أسلوبها التشكيلي الفني، ودرس المشاهد الحربية المصورة وربطها بأحداث مذكورة في حوليات ملوك السلالة الشركينية الآشورية، كما تحدثت فرجينيا فرادي (فرنسـا) عن استخدام المعادن في تل أحمر، وركزت على تقديم وصف لأعمال التنقيب في الموقع خلال موسم سنة 2001م، ولا سيما في غربي التل، حيث عثر على مشغل لتصنيع المعادن.

وثمـة بحـوث مـتفرقة عن مواقع سورية أخرى، فقد تحدثت نيلي تسيجلر (فرنسا) عن احتلال شمشي أدد الأول مدينة نينوى ومناطق نوروجوم المحيطة بها في ضوء نصوص من أرشيف ماري، وذلك في أواخر فترة حكمه، وقدم تيموتي

هاريسون (كندا) بحثاً عن كونولوا، كلاني والوجود الآشوري الحديث في تل طعينات (سهل العمق) ذكر فيه أن أقدم إشارة من العصر الآشوري الحديث إلى مدينة كونولوا ومملكة بتينا/ أنقي تعود إلى القرن التاسع ق.م، ضمن حوليات الملك آشور ناصربال الثاني، ثم تستمر الإشارات خلال القرن التالي حتى سنة 738 ق.م حيث قام الملك الآشوري تجلت فليسر الثالث بحملته إلى سورية، وهو يذكر في حولياته أنه دمر مملكة أنقي واحتل كونولوا وضمها إلى مناطق سيادة الولاية الآشورية كلاني، وأكد الباحث أن دراسة أخبار كونولوا لا تدع مجالاً للشك في أنها موجودة في تل طعينات في سهل العمق، وقد جرت تنقيبات قديمة أمريكية في الموقع 1930م، استؤنف التنقيب فيه من جديد.

وتحدث هارتموت كونه (ألمانيا) عن فترة ما بعد العصر الآشوري الحديث، اعتماداً على مكتشفات موقع دور كاتليمو (تل الشيخ أحمد، شمال شرقي دير الزور)، وبين أن مكتشفات الموقع الأثرية والكتابية تقدم معلومات مهمة عن الفترة القصيرة التي سبقت سقوط نينوى وانهيار الإمبراطورية مباشرة، وما بعدها بقليل (أواخر القرن السابع ق.م)، وركز في البحث على المعلومات الأثرية عن فترة ما بعد انتهاء السيادة الآشورية في مناطق دور كاتليمو، وصلتها بالأوضاع في بلاد آشور المركزية.

وقدم باول لويس فان برج (بلجيكا) بحثاً عن الآثار والفنون الصخرية في نجد الحمة (محافظة الحسكة) عرض فيه نتائج مسح أثري أجراه هناك أظهر سلسلة طبقات حجرية متراكمة، ولا سيما عند قريتي خشام وكفرى، وأكثر من / 2200/ منحوتة صخرية تمثل أشكالاً ذات هيئات حيوانية، وكذلك عثر على فؤوس ورماح.. وغيرها من اللقى التي يتراوح تاريخها بين أواخر الألف الرابع ق.م والقرن الثالث الميلادي.

وثمة موضوعات من الحضارة السورية بحثت اعتماداً على نصوص كتابية، كما في بحث شتيفان ياكوب (ألمانيا) عن سمسم من خربة (تل خويره) إلى نينوى، وبحث يانا ميناروفا (تشيكيا) الفينيقيون في أبو صير.

ب - تركيا:

اقتصرت البحوث المتعلقة بتركيا على آثار مناطق دجلة وشرقي الفرات،

وكانت معدودة. تحدث فكري كولاكوغلو (تركيا) عن منحوتات من العصر الآشوري الحديث من منطقة سانلي أورفا، عثر عليها بين 1998ـ 2001، في المواقع: محمد خان، أصلاني، تل حنطة، كاب، حاجي جوز، وعرض صوراً توضيحية لها.

وقدم يسوس جل فونتسانتا (إسبانيا) تقريراً عن التنقيبات الأثرية في رضوان تبه على نهر غرزان سو الذي يرفد دجلة، قرب حصن كيف، وتنفذها بعثة تركية تشيكية إسبانية مشتركة، بين أن الموضع يضم آثاراً يمتد تاريخها بين الألف الرابع وبدايات الألف الثاني ق.م. كما قدم جون ماك جينيس (بريطانيا) تقريراً عن التنقيبات في تل زيارت بين باطمان ودياربكر، وبين اعتقاده بأن الموقع يضم أطلال مدينة توشخان التي كانت مركزاً لمقاطعة آشورية هناك.

ج - إيران:

كاترين دي دراف (بلجيكا): **الفترة الانتقالية بين عصر سلالة أور الثالثة والعصر البابلي القديم في سوسا.**

ريوشي كونتاني (اليابان): **سيوف جديدة من شمال غربي إيران من العصر الآشوري الحديث.**

د. ت. بوتس (استراليا): **بحوث أثرية جديدة في المناطق العليا من بلاد فارس.**

د - الخليج العربي:

فيوريلا إبوليتوني (إيطاليا): **تماثيل الألف الثالث ق.م في البحرين.**

بيتر ماجي (أمريكا): **التجارة الخارجية بين مناطق الخليج العربي والإمبراطورية الآشورية.**

9. بحوث عن عصر سلاسة أور الثالثة (2112. 2003 ق.م):

ألقيت مجموعة بحوث تناولت موضوعات تاريخية وحضارية من هذا العصر، وركزت على الجوانب الاقتصادية، نظراً لأن القسم الأكبر من كتابات العصر تبحث في ذلك، والبحوث هي: بنيامين ستودفنت هكمان (أمريكا): القوى

العاملة في مدينة أوما خلال عصر سلالة أور الثالثة.

ناتاليا كوسلوفا (روسيا): **ألقاب القوى العاملة في مدينة أوما خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

تونيا شرلاخ (أمريكا): دراسة **في ملامح النظام الضريبي خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

مغنوس ويدل (أمريكا): **القروض في مدينة أور خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

ويليام هلو (أمريكا): تأريخ **الأيام خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

ب. ماندر، ف. بومبونيو، ف. أجنستينو (إيطاليا): **دراسة في نصوص السفراء من عصر سلالة أور الثالثة.**

بيوتر ميشالوفسكي (أمريكا): **القوة والشهرة، التصوير الملكي الذاتي في** عصر **سلالة أور الثالثة.**

ميشائيل موللر كاربي (ألمانيا): **طاسة الملك شوسين، نقش ملكي جديد من** عصر **سلالة أور الثالثة.**

فالتر سلابرجر (ألمانيا): مدفن **الملك شوسين في مدينة أور.**

نيكولاس فاندر روست (بلجيكا): **النظام الجغرافي الإداري الزراعي في** منطقة **أوما.**

10. بحوث لغوية:

ماريا ياكوبوفيتش (أمريكا) الأصوات الصفيرية في الآشورية ـ البابلية.

جوردون وايتاكر (ألمانيا): **الأصوات في لهجة إميسال السومرية، وفق** الشواهد **المكتشفة في نينوى.**

ستيف تيني (أمريكا): معجم **بنسلفانيا للغة السومرية.**

ايفا فون دسو (أمريكا): في **لغة مراسلات العمارنة الكنعانية.**

فان در فستهويتسن (جنوب أفريقيا): **قراءة جديدة للرسالة /186/ من** مراس**لات العمارنة.**

11. موضوعات متفرقة:

آنـــا مســـخي (تركيا): حضارة العبيد وأصلها الكارتفلي الجورجي، دراسة لغوية حضارية مقارنة.

مـــاركو بونيشـــي (إيطاليا): دراسة في (قائمة أسماء ومهن) سومرية من عصر فجر السلالات الثالث.

بتروس ستيفانوس فرماك (جنوب أفريقيا): التبدل الحضاري في الألف الثاني ق.م.

ت. س. ميتشل (بريطانيا): من أحجار الكودورو في بابل.

كلمنس رايشل (أمريكا): نساء متنفذات من إشنونا.

جون تايلور (بريطانيا): تسميتان دالتان على القيادة.

باروخ لفين (أمريكا): السياسة الآشورية والتوحيد.

سارا ملفيل (أمريكا): الرمزية في التعبير عن المكانة ضمن الأسرة الملكية خلال العصر الآشوري الحديث.

مارتـــا ريفارولـــي (إيطالـــيا): نينوى والملامح السياسية للعصر الآشوري الحديث.

آن ويفـــر (أمريكا): الإدارة الإلهية والسياسة البشرية والتفكير الملكي لدى مـــلوك الســـلالة الشـــركينية (العصـــر الآشوري الحديث).

باول زيمنسكي (أمريكا)" الاحتلال الأورارتي لبلاد آشور.

دومنيك بوناتس (ألمانيا): آشور بانيبال وقطع الرؤوس، دراسة من منظور أنثروبولوجي.

ويتولد نيبوروفسكي (بولونيا): النشاط التجاري في أماكن العبادة.

بويانا يانكوفيتش (النمسا): تربية الطيور في سيبار خلال الألف الأول ق.م.

مـــنكو فلارديـــنجر بـــروك (هولندا): ملامح شرقية في كتابة التاريخ لدى الإغريق.

بوني نيلهامن (السويد): **المادة المهملة وغياب مناهج البحث.**

رفائيلا فراسكاريللي (إيطاليا)" **دلالة اللقية الأثرية في المجتمع المعاصر.**

جون سيمبسون (بريطانيا): **المسيحيون في نينوى.**

فيصل دونباز (تركيا): **نهب في الموصل سنة 1898م، أخبار من الوثائق العثمانية.**

روبرت تمبل (بريطانيا): **عدسة نظارة الأثري هـ. ليارد.**

ستيفن هولوي (أمريكا): **صورة نينوى في أمريكا خلال القرن التاسع عشر الميلادي.**

ريجينا هايلمان (ألمانيا): **تصوير التخيلات الشرقية والتنقيبات في نينوى في بواكير الأعمال السينمائية (مع عرض الفيلم الإيطالي القصير: ملكة نينوى، من إنتاج سنة 1911م).**

12. ملصقات جدارية:

تناولت بالصور والشروح موضوعات معينة، علقت في الممرات الموزعة بين قاعات المحاضرات في المتحف البريطاني، وهي:

روبرت كارتر (بريطانيا): **الملاحة في الخليج العربي خلال عصر العبيد.**

ستيفاني دلي (بريطانيا): **الحدائق المعلقة في نينوى.**

شتيفان هاوزر (ألمانيا): **البدو والحضر، شمالي بلاد الرافدين خلال العصرين الأرساكيدي والساساني.**

جرولد كوبر، دان سنيدر (أمريكا): **تخزين العلامات الكتابية المسمارية في الحاسوب.**

أخيراً يمكن القول إن بحوث المؤتمر ــ بشكل عام ــ تمتعت بمستوى علمي عال ودرجة كبيرة من الدقة، وشملت معظم الجوانب المتعلقة بحضارة نينوى والحضارة الآشورية بشكل عام، واتسع نطاقها ليشمل المناطق الحضارية المجاورة، ولا شك في أن نشر المجلد الخاص ببحوث المؤتمر ــ كما جرت العادة

ـ سيضـيف إلـى مكتـبة الدراسات الشرقية القديمة جهداً علمياً متميزاً لا غنى للباحثين عنه.

وتجـدر الإشـارة إلى أن المؤتمر السنوي القادم (الخمسين) سيعقد في دولة جنوب أفريقيا، في مطلع شهر آب 2004م، وسيكون محوره الخاص هو: الحيوان والنـبات فـي الشـرق القديم، وذلك بدعوة من قسم الحضارات الشرقية القديمة والكلاسيكية في جامعة جنوب أفريقيا ــ بريتوريا.

□□

عشية غزو العراق

العراق
بين الآثار واللصوص

■ بقلم: جوان فارشاك* ■

ترجمة : عبود كاسوحة

الآثار واللصوص أم اللصوص والآثار؟

قد لا نقع على كلمتين تتلازمان أو تذكُر إحداهما بالأخرى تلازم كلمتي "الآثار واللصوص" ويقال إن براعة المصريين القدماء في التحنيط لا تقل عن براعتهم في بناء المتاهات ووضع الحواجز في طريق اللصوص الذين حسبوا حسابهم منذ البداية والذين سيأتون يوماً لنبش تلك القبور وسرقة النفائس التي وضعت في الأضرحة مع الجثث المحنّطة حتى أضحى السؤال عمّن جاء أولاً اللصوص أم الآثار والنفائس، يكاد يشبه السؤال نفسه عن البيضة والدجاجة.

لكن البقعة من الأرض التي نحن بصدد الحديث عنها اليوم ليست وادي النيل بل هي العراق بكل ما تثير هذه الكلمة من إيحاءات وتداعيات: سومر، أكاد، بابل، آشور، ما بين النهرين... وصولاً إلى المأساة الراهنة.

التحقيق الذي ننشر ترجمة وافية له كُتب والحرب الأخيرة على وشك الوقوع، بل العدوان الأخير، مع كافة الصفات المغرقة في القسوة والعنف والهمجية والبربرية... التي امتلأت بها صفحات تاريخ تلك المنطقة منذ بدء الكتابة

* صحفية وباحثة في الآثار.

في تلك المنطقة تحديداً ــ قبل عدة آلاف من السنين ــ وحتى اليوم... على وشك الوقوع... إلا أن ما حصل وما تبعه كان أكثر هولاً: فالتحقيق كتب كله تحت تأثير ما حصل عام 1991 وما تلاه. والكل يعرف أن النظام العراقي فقد بعدئذ سيطرته على أجزاء واسعة من أرضه في الشمال وفي الجنوب أيضاً، لكن بقي في العراق، رغم كل ذلك، شيء اسمه "نظام"، أما الآن ومنذ خمسة شهور قبل كتابة هذه الأسطر، والعراق يعيش في ظل "لا شيء": بلاد حمورابي وشريعته قبل أربعة آلاف عام تقريباً ليس فيها أي شريعة!... فماذا فعل اللصوص طيلة هذه الفترة وماذا سيفعلون؟ قال ابن الرومي يوم استباح الزنج البصرة "لهف نفسي عليك أيتها البصرة..." لكن "زنج" اليوم لا مثيل لهم في تاريخ ماض، وينبغي ألا يكون لهم مثيل في التاريخ القادم...

كيف تُحمى الآثار في العراق؟

كيف نحمي الآثار في العراق؟

على الآثاريين في العراق (من علماء وكل من يعمل في هذا الميدان) وهم في ظل التهديد بنشوب حرب جديدة، أن يتوقعوا أسوأ السيناريوهات بالنسبة لآلاف المواقع والمتاحف في بلادهم.

السومريون والأكاديون والبابليون والآشوريون... وغيرهم... كلهم توالوا فوق تلك الأرض الممتدة ما بين دجلة والفرات، والتي أطلق عليها الإغريق اسم بلاد ما بين النهرين. وإذا كانت الرياضيات والعجلات والشكل الأول للكتابة... قد ولدت في سومر، فإن تنظيم الإمبراطورية إدارياً وتعيين الحكام والولاة كان من نصيب الآشوريين. أما البابليون فقد أورثوا الإنسانية أول شريعة في العالم. وسواء كان أبناء تلك الشعوب من الغزاة أو من المغزوّين، فقد خلّفوا وراءهم آثاراً تتناثر فوق ما يربو على عشرة آلاف موقع، وتركوا أشكال بصماتهم على كافة حضارات الشرق الأوسط. فروائعهم توزّعت على كافة متاحف العالم أما أسماء ملوكهم فتتصدّر النصوص التاريخية كلها.

اسمعوا هذا الكلام: "أعددت سريراً لي في متحف بغداد. فزوجتي وأولادي يعرفون أنني لن أكون معهم إذا وقعت الحرب. سوف أكون حيث ينبغي لي أن

أكون، حفاظاً على التاريخ والحضارة". لم يصدر هذا الكلام عن أحد "المهووسين" بالآثار أو على لسان بطل خارق للمألوف، بل جاء مكرراً على لسان كافة المديرين والمديرات في المنظمة الوطنية للآثار في العراق. ويتعلق الأمر بالنسبة للجميع، لهم ولهنّ، بمجرد واجب عادي، واجب الموظف حيال عمله وواجب الجندي في زمن الحرب أولئك هم جنود منطقة ما بين النهرين الذين تصدوا للقصف والنهب وهدم النفائس وللنزعة الهمجية لتخريب الآثار الفنية والروائع، ولصفقات البيع بالمزادات العلنية وقد حسبوا مخطئين أن كابوسهم انتهى. لكن الواقع مختلف. فإرث العراق الأثري والثقافي عاد مجدداً ليقع تحت ظلم ـ لا تحت رحمة ـ القصف المعادي واللصوص الذين يعملون في الخفاء.

مخططات العمل والإنقاذ

كان الأثريون في ذلك المجتمع الذي يمور اضطراباً وقلقاً استعداداً للحرب، يعدّون هجوماً معاكساً على السيناريو الأكثر إثارة للرعب والهلع: ذلك أن متاحف البلاد السبعة تقع في أواسط المدن وعلى مقربة من الوزارات المهددة بالقنابل. أما آلاف المواقع الموزعة على جهات البلاد الأربع فسوف تقع بكل تأكيد فريسة لعمليات نهب مكثفة ومنظمة. ووضعوا للتصدي لتلك الاحتمالات مخططات إنقاذ وعمل. ولكي يستبعدوا خطر القصف الجوي للمتاحف، قاموا بكتابة اسم منظمة اليونسكو بأحرف عملاقة وطلائها بألوان فاقعة على السطوح وعلّق الدكتور دوني جورج مدير المطبوعات العلمية في المنظمة الوطنية للآثار في العراق على ذلك قائلاً: "هذا من أجل أن نلفت انتباه الطيارين، في حال نشوب نزاع مسلح إلى أن الأمر يتعلق بمبانٍ ثقافية محمية بموجب اتفاقية لاهاي".

درس الأثريون بالإضافة إلى حماية المباني مخططات لإنقاذ الأغراض وتشرح الدكتورة نوال متولي، مديرة المتاحف العراقية الأمر قائلة: "اتبع العاملون في متحف بغداد دورات تدريب على إخلاء قاعات المتحف الاثنتين والثلاثين في يوم واحد. وسوف يتم من بعد تغليف الموجودات ووضعها في أماكن سرية ومأمونة". ولكن هل ستكون محمية من ارتفاع منسوب المياه الجوفية في الأقبية (بعد حرب الخليج السابقة أخفيت موجودات متحف بغداد في مستودعات في الأقبية، فغمرت المياه الجوفية الصناديق وأتلفت كميات كبيرة من اللقى الطينية أو

الخزفـية أو العاجية). "لا يسعني أن أضمن شيئاً، والأمر كله منوط بفترة التخبئة. فقد توجَّب علينا في المرة الأولى أن نخفي اللقى لعشرة أعوام في صناديق حديدية. ولا يسعنا أن نحتاط سلفاً لما قد يطرأ من تدهور على حالة اللقى في وسط غير ملائم. فنحن نتعرَّض لخطر أكيد ولكن ما باليد من حيلة".

الحضارة الآشورية الجبارة

سلمنصَّر وآشور بانيبال وسارجون وتوكلتي نينورتا... هؤلاء كلهم من ملوك آشور الذين زرعوا الرعب في منطقة الشرق الأوسط كلها من القرن التاسع وحتى السابع قبل الميلاد. ساروا على رأس جيوشهم فنهبوا وسلبوا وخربوا وألحقوا الأراضي بمدنهم فأنشأوا على ذلك النحو أول امبراطورية في العالم منظمة تنظيماً إدارياً. وتميَّز الآشوريون بميلهم إلى البذخ. فكانت قاعات قصورهم ومعابدهم ذات أبعاد هائلة. أما النقيشات التي تصوِّر شجاعتهم في الحروب وقوّتهم في نزهات الطرد والقنص فقد نحتت من الرخام الأخضر أو الحجر الكلسي الأبيض. وكانوا يضعون نصب أعينهم بث الرعب في قلب زائرهم، وجعله يرى مدى قوة السلاطين الكبار، وكان هؤلاء وعائلاتهم يرفلون في أبهى الحلي المزركشة والموشاة بالجواهر الثمينة والعاجيات الجديرة بأن تصنع على أيدي أعظم الحرفيين المهرة في عصرنا. وعلى كل حال فإنهم كانوا يستقدمون الحرفيين من المدن السورية الفينيقية، لإنجاز تلك الأعمال الفنية الصغيرة، لصالح العائلات الملكية. إلا أن الثيران المجنّحة تظل العناصر المعمارية النموذجية لفن هذه الحضارة. فقد كان من شأن تلك الكائنات الأسطورية وهي توضع عند مداخل المدن، أن تؤمّن حمايتها من كل هجوم، حسب معتقدات تلك الشعوب.

كانت آشور العاصمة الأولى لتلك الإمبراطورية، ومدينتها المقدسة. وهي على كل حال تحمل اسم الإله الآشوري الكبير: آشور. أما قصورها والزقورات وأحياؤها السكنية المتوضّعة على الضفة الغربية لنهر دجلة فاستحوذت على إعجاب علماء الآثار الذين مضى عليهم أكثر من قرن وهم ينقبون في تلك الأرض. ومع ذلك فإن أسرار تلك المدينة ما زالت خفية. وعلى الرغم من استقرار الحكومة في نمرود وفي خورساباد ثم نينوى، فإن الملوك الآشوريين واصلوا عمليات البناء في آشور. وهكذا فإن أرض تلك المدينة تغص بآثار مميزة

لكافـة عهود تلك الإمبراطورية التي نشأت فوقها. شُيِّدت كافة الأبنية بالآجر غير المشـوي (أو اللبن)، وهي مادة هشة جداً في وجه العوامل الجوية. وهذا ما يجعل الآثريين ملزمين بإعادة تغطية الآثار المكشوفة لدى انتهاء الحفرية أو تكملة البناء وفقاً لمخطط افتراضي. وإذا ما استثنينا زاقورة الإله آشور، فإن موقع آشور يمكن أن يبدو مملاً للسائحين غير الاختصاصيين.

رمل لحماية الحجر

ونعـود إلـى موجودات المتاحف. فمن الممكن بكل تأكيد ترحيل الأغراض الصغيرة ولكن كيف العمل لحماية المنحوتات الكبيرة؟

إن النقيشات الآشورية المجلوبة من قصور نمرود وخورساباد، والتي يزهو بها متحف بغداد، تزن كل واحدة منها عدة أطنان. وهي معروضة في قاعة الآثار الآشورية التي تواجه وزارة المواصلات (يفصل بينهما شارع عريض فقط) وتبعد حوالي مئة متر عن محطة الإذاعة والتلفزيون العراقية. وهذه المباني هي الأهداف الأولـى لقصف الطائرات، بل إنها دمّرت عام 1991 ثم في عام 1998. فكيف السـبيل إلـى حماية تلك الروائع من هزات عنيفة قد تجعلها تنقلب عن قواعدها؟ تقـول الدكـتورة متولي: "ليس لدينا من وسيلة تحميها من مثل ذلك السقوط، لكننا سـوف نخفف من الصدمة أو نبيدها بتغطية أرض المتحف بالرمل، وبإحاطة تلك الروائع بأكياس من الرمل".

التوقّي من نهب مكثّف للتلال الأثرية

يعـيش العراقـيون منذ اثني عشر عاماً تحت لعنة الحصار الدولي. وكانوا يحسـبون أن تلـك السنين من الشقاء على وشك أن تنتهي لكن حسابات السياسة الدولية كانت مغايرة لتوقعاتهم.

يقول الدكتور دوني جورج: "سوف يكون نهب المواقع، في حال وقوع هجوم أميركي، أكبر بكثير مما كان عام 1991. فنحن نخشى الأسوأ."

وقعـت تلك التلول فريسة عمليات نهب منهجي ومنظّم منذ اثني عشر عاماً، ويخشـى علـيها الآن مـن عمليات حفر وحشية. ويسوق الدكتور دوني جورج الملاحظـة التالية: "وَجَدَ ناهبوا المواقع الأثرية الوقت الكافي لتنظيم تجارتهم غير

المشـــروعة وإيجاد أسواق دولية. إنهم أقوياء ومسلحون. والحرب بالنسبة لهم هي الفترة المثالية لاستئناف النهب على نطاق واسع".

آثار عراقية في نيويورك

"في عام 1991 أُخذنا على حين غرة. أما اليوم فحرّاسنا في المواقع الكبرى مســلحون ويســتخدمون السيارات ويتعاونون مع كافة شيوخ العشائر لحماية تلك المواقع..."

ما من شك في أن تلك الخطوات ضرورية ويمكن أن تكون مثمرة، غير أن العــراق هو بلاد ما بين النهرين القديمة. البلاد التي أُحصي فيها عشرة آلاف تل أثــري. وحمايــتها مهمة مستحيلة. فالمواقع فسيحة جداً (المساحة المتوسطة للتل تصل إلى 10 كم^2) وبعيد جداً بعضها عن البعض الآخر. وهذا في واقع الأمر ما يراهن عليه اللصوص، الذين باعوا، وهم ينتظرون نشوب الحرب، جلد الدب قبل صــيده، بــاعوه لأصــحاب صـــالات العــرض والمولعين بالمجموعات، ناهيك بالمتاحف.

ففـــي عـــام 1999 عـــاد متحف ميتروبوليتان الشهير في نيويورك إلى فتح قاعات الآثار الآشورية مجدداً أمام الزوار من بعد إغلاقها لتجديدها وكانت هنالك مفاجأة كبرى تنتظر الاختصاصيين: لقد ضمت المعروضات الجديدة تمثالاً صغيراً من البرونز، معروف أنه ملك لمتحف كركوك. ومعروف أيضاً أنه سُرق من ذلك المتحف عام 1991 وفقد كل أثر له منذ ذلك الحين. وكان عالم الآثار البريطاني نـــيكولاس بوســـتغيت قـــد وضع فهرساً للآثار العراقية المسروقة تضمّن تحذيراً للمـــتاحف وهواة جمع الآثار بعدم شراء تلك الآثار. ومع ذلك فإن التمثال الصغير الـــرائع لا يزال معروضاً في مكانه في متحف نيويورك. ويواصل الدكتور جابر خلـــيل المدير العام للمنظمة الوطنية للآثار في العراق كلامه معنا فيقول: لا تزال المفاوضـــات بيننا وبين الجانب الأميركي جارية لاستعادة التمثال. وتؤكد سلطات مـــتحف ميتروبوليـــتان أنهـــا ستعيده إلينا... لكن بعد انتهاء الحصار. وقد يكون بوسعكم أنتم، بوسع الصحافة والإعلام مساعدتنا في هذه القضية."

المعركة من أجل ما بين النهرين

كـــان للحصار المضروب على العراق تأثيره السيّئ على كافة القطاعات فلم يوفر قطاع الثقافة. فلم تعد تتوفّر لعلماء الآثار، في هذا البلد الذي يبلغ عمره آلاف السنين، إمكانـــيات التنقيب عن الآثار أو ترميمها أو نشر الأبحاث والتواصل مع زملائهم الأجانب. فكل عمل يتطلب جهوداً خارقة. لكن الوضع بدأ يتغيّر منذ عام 2000 مع إنشاء المنظمة الوطنية للآثار والتراث العراقية.

صـــارت لهـــا ميزانـــية وزارة وتم شراء سيارات جديدة. وجهّزت مكاتبها بالحاسـبات... والواقع أن الدولة في محاربتها لنهب الآثار أخذت تقدّر قيمة اللقى التـــي يعثر عليها المنقبون وتحسب أسعار بيعها فتعطي المال لفريق التنقيب. ولئن كـــان مـــن شأن مثل ذلك التصرّف أن يسبب صدمة كبرى في العالم العلمي، فإنه صـــار مقـــبولاً في ذلك المجتمع الذي ما انفك مستوى الحياة فيه يتدهور من عام لآخر. لقد ازداد عدد الطلاب في قسم الآثار في جامعتي بغداد والموصل، وهنالك طلـــبات عمل جديدة قدّمت لمكاتب الآثار. يقول الدكتور جابر: "هذا الجيل الجديد ممتلئ عزيمة ومستعد لمواصلة المسيرة. لكننا في وضع تخلّف عن الركب العالمي كلـــه، فالحصار الذي شمل القطاع الثقافي أيضاً جعلنا عاجزين عن التواصل مع المؤسســـات الكـــبرى في العالم لتبادل الكتب والمجلات. وعلينا أن ننتظر وصول زملائنا الأوروبيين الذين يحملون لنا كتباً ضمن أمتعتهم لنكون على صلة مع آخر المكتشفات والمنشورات."

لكن ذلك لم يمنع علماء الآثار العراقيين من مواصلة كفاحهم. بل نجحوا في إصـــدار مجلد جديد من مجلة سومر. تلك المجلة السنوية للآثار العراقية خرجت مجدداً في مطابعها. ويعلق الدكتور دوني جورج ومدير المطبوعات العلمية فيقول: "أصدرنا المجلّد الخمسين وسوف نستدرك الوقت الضائع لإصدار المجلدات الثلاثة المتأخر صدورها."

ولئـــن نجـــح علماء الآثار في فك الحصار بشأن المطبوعات، فهم ما زالوا تحـــت رحمته في ميدان علم المتاحف والترميم. وتشكو الدكتورة هناء عبد الخالق فـــتقول: "تـــتلف يومـــياً مئات القطع الأثرية في مستودعات المتاحف بسبب فقدان المـــواد الكيميائـــية الحافظة. صحيح أن منظمة اليونسكو تساعدنا، لكن ذلك غير كاف. إذ يلزمنا عتاد بكميات كبيرة كما نحتاج إلى سماح من الأمم المتحدة لإعادة

استخدام المخابر الكيميائية..." لقد وسّع علماء الآثار العراقيون عمليات التنقيب لتشمل مواقع عديدة جداً. تقول الدكتورة هناء عبد الخالق: "هنالك ثلاثون بعثة أثرية تقوم بالتنقيب في مواقع تبدأ مما قبل التاريخ وحتى العهود الإسلامية، وتقوم بعثاتنا، استدراكاً للوقت المفقود، بحملات تنقيب على مدار السنة. وتتوالى المكتشفات في كافة المواقع. ونسوق مثالاً على ذلك القاعات ذات الجدران المغطاة بالآجر الملوّن والمكتشفة في قصر توكُلتي نينورتا الواقعة في مواجهة آشور، على الضفة الشرقية من دجلة. كما عثرنا أثناء الحفريات في تل النمل، الواقعة في منطقة مخول (حيث سيقام سد كبير سوف تغمر مياهه مواقع عديدة)، على معبد دائري قطره 45 متراً وعلى أكثر من 230 قبراً، أظهرت محتوياتها أثاثاً جنائزياً فيه أكثر من ألف قطعة من الخزف المحلي أو المستورد."

صعوبة استعادة الآثار المسروقة

كانت عمليات نهب المواقع الأثرية، في شمال العراق وجنوبه، جارية على قدم وساق ما بين عامي 1994 و1999. يقول الدكتور دوني جورج مؤكداً: "كانت بحوزة المنقبين في الخفاء خرائط أثرية للبلاد وعليها أسماء المواقع بالإنكليزية. ويأتون في بعض الأحيان بحثاً عن لُقى تعود إلى فترة زمنية بعينها. وهكذا فقد علمنا بوجود منقبين في شمال العراق يبحثون عن مواقع تعود لعصر محدد بعينه للحصول على آثار يطلبها أصحاب متاجر لبيع الأثريات. واستطاعت العالمة التي تحمل معها وثائق وصوراً أن تستعين بشرطة سكوتلانديارد لإعادة النقيشة إلى العراق. تقول الدكتورة متولي: "المؤسف أن كافة القطع المسروقة لا تعود إلى مستودعاتنا. إلا أن الحالات الاستثنائية هي التي تولّد الأمل في نفوسنا. فالنهب متواصل. والجمارك الأردنية أعادت إلينا في العام الفائت أكثر من 300 قطعة أثرية، بالإضافة إلى أن الشرطة العراقية تضع يدها أسبوعياً عند المنافذ الحدودية، على قطع أثرية مسروقة. لكن المحزن أكثر في الأمر أن السيارات الديبلوماسية تستخدم أحياناً لنقل تلك القطع. إنهم موظفون وعاملون في السفارات يتولون نقلها وهم في بعض الأحوال موظفون في الهيئات الدولية يقومون بذلك، ولدينا الآن ثلاثة أكياس مملوءة بالرقم الفخارية عليها كتابات مسمارية، وعلى الأكياس شعار هيئة الأمم المتحدة.

المكتشفات الحديثة والتهديد الجديد

أدى إنشـــاء المنظمة الوطنية للآثار في العراق عام 1991 إلى بعث نشاط جديـــد في هذا القطاع وإلى القيام بحملات جديدة من التنقيب. تقول الدكتورة هناء عـــبد الخالق مديرة التنقيب في العراق: "لدينا الآن أكثر من ثلاثين حفرية تقوم بها فـــرق تنقيـــب عراقية في الشمال وفي الجنوب. لكن حملات التنقيب للإنقاذ بدأت خـــارج المواقـــع الكبرى الشهيرة مثل آشور وفرود، وهي تهدف إلى إنقاذ الآثار والحد من عمليات النهب، لا سيما في الجنوب. وقد حققت المهمة نجاحاً خاصاً في مواقـــع بعينها مثل شوكه وأم العقارب، وكان هذان الموقعان عرضة لنهب منظم قـــبل وصول فرقنا. وبالإضافة إلى ذلك، أدت الحفريات إلى اكتشافات هامة جداً. فقـــد تم الكشف في الواقع، في موقع أم العقارب، عن جدران من الآجر ارتفاعها سبعة أمتار. وهي جدران معبد يمكن أن نقرأ عليها نشأة الزاقورة. أما شوكه فهي حاضـــرة الأومـــا المذكورة كثيراً في النصوص التاريخية. وتقع هذه المواقع في الجـــنوب علـــى بضع كيلو مترات فقط من الحدود مع الكويت. وقد تابع لصوص الآثـــار، دون أدنى شك، المكتشفات الأثرية باهتمام كبير. فكيف السبيل إلى منعهم من القدوم إلى تلك المواقع ومعهم البلدوزرات، بحثاً عن الثروة؟...

أما ودويّ طبول الحرب يزداد شدّة، فقد بدأ يتبلور معه تحليل جديد للموقف فـــي بغـــداد: "لا يطمع الأميركيون في نفطنا فقط، بل يطمعون في تاريخنا أيضاً. إنهـــم بحاجة لروائعنا الجديدة كي تمتلئ بها متاحفهم، كما أظهرت جامعاتهم، وما تزال، اهتماماً خاصاً بحضارات ما بين النهرين."

قـــد يـــبدو فـــي هذا الحديث الذي جاء على لسان مسؤول عراقي شيء من الهلوسة، لكن نشر مقال في مجلة أخبار الفن الأسبوعية، في تشرين الثاني 2002 ، عنوانه: "تاريخ العراق هو تاريخنا أيضاً"، لا بدّ أن يثير الظنون.

فالحديـــث يدور في ذلك المقال عن مستقبل التراث العراقي على أثر الغزو الـــبري الـــذي ستقوم به الجيوش الأميركية. ويؤكد الكاتب أن الجمعية الأميركية واسمها "المجلس الأميركي للسياسة الثقافية"، التي أسسها أشتون هاوكينز، المحامي الســـابق لمـــتحف نـــيويورك، تستعد لتولي مهمة "المنقذ" للآثار العراقية. وتقول الجمعية أنها على استعداد للتعاون مع إدارة الآثار العراقية من أجل ترميم المواقع،

وتعــرض مســاعدتها لتدريب اختصاصيين عراقيين، انقطعوا عن كافة التقنيات الحديــثة منذ أكثر من عشرة أعوام. ومن سخريات القدر أن يتوافق تاريخ عرض الجمعية مع تاريخ بداية الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق بضغط من الحكومة الأميركية.

ليســت هذه الحرب بالنسبة للعراقيين سوى مرحلة من تاريخهم الطويل الذي يعد بآلاف السنين. "إنهم لا يستطيعون أن ينهبوا كافة المواقع، ولا أن يقتلوا جميع العراقييــن ولا أن يهدمــوا في أيام حضارة آلاف مؤلفة من السنين. فالسومريون والبابليون والآشوريون... هم أجدادنا. لقد حاربوا فربحوا معارك وخسروا أخرى. وتاريخــنا مكــتوب بالدم. فليس من شأن نقاط أخرى أن تغيره. ولا يمثل جورج بــوش الأب والابــن والحصار سوى فترات مؤرخة في تاريخنا. ولا يمكن لسني الشقاء هذه، لهذه السنين العجاف أن تدوم إلى الأبد. والتاريخ لا يتوقف. إنه يُكتب كل يوم والزمن يأتي على كل شيء حتى على الهيمنة الأميركية."

□□

علماء الآثار

يتهمون الولايات المتحدة بجريمة القرن

■ ترجمة: رشا حداد ■

عن مجلة "لاروش" الإلكترونية للدراسات السياسية

بتاريخ الثامن عشر من نيسان الفائت، ذكرت وكالة الصحافة الفرنسية في بغداد أن كبار موظفي الآثار في بغداد قد وجهوا في ذلك اليوم (الجمعة) تهمة إلى القوات العسكرية الأمريكية بأنها ارتكبت "جريمة القرن" حين أخفقت في حماية التحف اليدوية الأثرية العراقية الثمينة من اللصوص، كما يحتمل أن تكون قد سحقت بعض المواقع الأثرية.

وقال دوني جورج، مدير المتحف الوطني للآثار في بغداد:

ـ مما أتوقع أن يكون قد حدث في المواقع الميدانية (الأثرية) وما حدث للمتحف العراقي، وأقول إنها جريمة القرن لأنها تؤثر فعلاً على تراث البشرية.

وقال جورج وهو يلخص لمراسلي الصحف موضوع الهجوم على الآثار وعمليات نهب المتحف يوم الجمعة الماضية:

ـ يبدو أنه كانت ثمة إجراءات وكانت ثمة أولويات أخرى (لدى الولايات المتحدة) بالنسبة إلى متحف بغداد.

كانت القوات الأمريكية، التي استولت على العاصمة العراقية في 9 نيسان، تراقب بينما كان اللصوص ينهبون التحف اليدوية الأثرية من إحدى أقدم الحضارات في العالم.

وقد ذكر مؤتمر الأمم المتحدة الذي عُقد يوم الخميس في باريس لدراسة ما سببته الحرب من أضرار على التراث الثقافي العراقي أن الكثير من عمليات نهب المتحف نفذتها عصابات منظمة تتاجر بالأعمال الفنية القديمة.

وقال الخبراء إن هناك من بين المواد التي فُقدت مجموعة تضم 80.000 لوح من الكتابات المسمارية التي تحتوي على نماذج من بعض أقدم الكتابات في العالم. كما اختفت آنية زهور سومرية من المرمر عمرها 5000 سنة، تُعرف باسم آنية وركاء.

ونتيجة للضغط بعد نهب المتحف، عرضت الولايات المتحدة أن ترسل وكلاء من مكتب التحقيق الفيدرالي إلى العاصمة العراقية للمساعدة في الجهود لاسترداد القطع. وكان رئيس اللجنة الاستشارية الثقافية لدى الرئيس جورج دبليو بوش قد استقال أيضاً يوم الخميس اعتراضاً على الإخفاق في وقف السلب.

وكانت أعمال تجار المواد الأثرية العراقية قد ازدهرت منذ حرب الخليج عام 1991 بفضل تزايد الطلب الدولي والأزمة الاقتصادية في العراق مما شجع الناس العاديين على ابتكار طرق جديدة لجمع المال، كما يقول الخبراء.

مقابلة مع دوني جورج

السرقة العالمية لآثار المتاحف العراقية

كان الدكتور دوني جورج، مدير المتحف الوطني للآثار في العراق، في ألمانيا خلال أواخر أيار وبداية حزيران، لإجراء مقابلات مع علماء الآثار وبعض الممثلين السياسيين. وفي 3 حزيران، تحدث مع موريل ميراك فايسباخ من مجلة لاروش الإلكترونية وأورترون كريمر من المجلة الفصلية لمعهد شيلر الثقافي الألماني.

مجلة لاروش: هل يمكن أن تصف لنا ما حدث في المتحف الوطني العراقي

خلال الغزو الأمريكي ـ البريطاني للعراق؟

دونــي جــورج: فــي صباح الثلاثاء، اليوم الثامن [من نيسان]، عند الساعة الخامسة صباحاً، استيقظت على أصوات الدبابات الثقيلة والقصف المدفعي الشديد. كان القتال قريباً جداً، بجانب وزارة الإعلام، ومحطة الإذاعة والتلفزيون، التي لا تــبعد أكــثر من 400ــ 500 متر عن المتحف. بدأ هذا الصوت يقترب أكثر من المــتحف، ومن جديد، بدأنا نلاحظ إطلاق النار من الجانب الآخر للمتحف؛ وكان ذلك من منطقة محطة الحافلات المركزية. وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً بدأنا نسمع أصوات طائرات الأباتشي المروحية المقاتلة فوقنا.

كــان هــذا كله يحدث، وكنا واثقين من أن الأمريكيين لن يضربوا المتحف، لأنهــم يعــرفون بالتأكيد أن هذا متحف، وعلمنا أنهم تلقوا تحذيراً من العلماء في الولايــات المتحدة وبريطانيا. لكننا رأينا بعض أعضاء الحرس الوطني المسلحين العراقيين، الذين يمكن تسميتهم بالفدائيين، وقد راحوا يقفزون عائدين إلى حديقتنا، ورأيناهم يطلقون النار على الدبابات. وكان هذا يعني أن متحفنا قد أصبح هدفاً.

في تلك اللحظة قرر الدكتور جبار خالي، رئيس المجلس، أننا يجب أن نغادر البــناء، لأنه كان خطراً جداً جداً. كنا أربعة أشخاص فقط باقين في المتحف: أنا، والدكــتور جبار، والسائق، وأحد علماء الآثار الذي يقيم في منطقة مجلس الدولة والمتحف الذي خلفها.

كانــت الأبــواب الأمامية قد أقفلت؛ فذهبنا عبر الأبواب الخلفية، وأقفلناها؛ وكانــت لديــنا ســيارة واحدة فقط في الخارج. خرجنا ونحن نعتزم العودة؛ وكنا سنرجع حالما تتوقف الحرب، أو المعركة، في منطقة المتحف.

ذهبــنا عــبر النهر إلى الجانب الشرقي، إلى متحف صغير آخر، وانتظرنا هــناك. ومــن جديد، كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر حين أردنا العودة إلى المتحف. لقد أردنا البقاء بعيدين قليلاً فقط، حتى تهدأ الأمور. وحاولنا عبور جسر الســابع عشــر من تموز، أو جسر المدينة الطبية، وهو أقرب جسر إلى المتحف. وحيــن أصــبحنا في منتصف الجسر تقريباً، كان الناس يأتون من الجانب الآخر، وطلــبوا منا أن نعود، لأن الأمريكيين كانوا هناك، وكان القتال ناشباً هناك تماماً، ولم يدعنا أحد نعبر.

كـان الأمريكـيون قد استولوا على منطقة المتحف وعبروا عن طريق تلك المنطقة. لذلك، كان من المستحيل أن نذهب إلى المتحف في ذلك اليوم.

وبعد ذلك، أعتقد أنه كان مساء السبت [12 نيسان]، حين سمعت في الأخبار أن المـتحف قد نُهب. بعد ذلك، [كما عرفنا] كان اللصوص قد دخلوا المتحف يوم الخمـيس. ولا نعـرف بالضـبط مـا حدث يوم الأربعاء؛ ولكن في أيام الخميس والجمعـة والسـبت كان اللصوص يتجولون داخل المتحف وداخل منطقة إدارتنا. وفـي صـباح الأحد، قررت الذهاب إلى مقر قيادة مشاة البحرية في بغداد، لأننا عرفنا أن لديهم مقراً عاماً لقيادتهم المركزية في فندق فلسطين. قررت الذهاب إلى هـناك وطلب أي نوع من المساعدة لحماية المتحف. وقرر الدكتور جبار أن يأتي معي.

فـي الصـباح التالـي، ذهبنا إلى مقر قيادة مشاة البحرية. واستغرقنا بضع ساعات، حتى استطعنا مقابلة شخص ما هناك. ثم قابلنا العقيد ساركوني. كان من مشـاة البحرية، من الشؤون المدنية. أخبرناه عما كان يحدث للمتحف وطلبنا منه المساعدة في حماية البناء والمنطقة هناك. فقال، "طبعاً، إنه واجبنا، وهذا هام جداً، ويجـب أن نحمـيه". أريناه موقع المتحف. وقلنا، إننا ذاهبان إلى المتحف. فقال، "حسن، ربما، ستذهبان وتريان السيارات المدرعة هناك الآن. سأتصل على الفور، وسيكونون هناك بالتأكيد". لكننا ذهبنا إلى هناك، ولم تكن هناك أي حراسة.

وفـي صـباح الأربعـاء [16 نيسان] فقط، وصلت الحراسة إلى المتحف. وأصبح لدينا أربع دبابات والكثير من الموظفين العسكريين.

مجلة لاروش: وذلك بعد أسبوع كامل من دخولهم بغداد رسمياً في 9 نيسان.

دونـي جـورج: بالضـبط. بعد ذلك عرفت أن هناك قائمة أصدرتها القيادة المركـزية الأمريكـية، وفـيها بعض الأماكن التي يجب على الجيش أن يحميها. وعرفـت أن المتحف كان الثاني على تلك القائمة، بينما حملت وزارة النفط الرقم 16 علـى تلك القائمة. وراح بعض الصحفيين يلقون النكات، ويقولون إن القوات الأمريكـية ربمـا قـرأت القائمة من الأسفل إلى الأعلى، لذلك ذهبت مباشرة إلى وزارة الـنفط وتركـت المـتحف. لا أعرف، لكنهم لم يأتوا إلى المتحف في ذلك الوقت. ولو كانوا هناك، لأصبحت الحالة مختلفة كلياً.

وما سمعته لاحقاً، من ذلك الصديق الذي يقيم في منطقة المتحف: إن اللصوص يوم الخميس [10 نيسان]، وعددهم حوالي 300 ــ 400، كانوا خارج سور المتحف؛ وأنا لا أعرف، فهو الذي ذكر هذا الرقم. لقد عرف أنهم أرادوا دخول المتحف؛ لأنه لم يكن ثمة حكومة أو شرطة أو أمن في بغداد، وكان الناس يدخلون الأبنية الحكومية وينهبون فحسب. ذهب صديقي إلى دبابة كانت قريبة جداً من المتحف. وطلب منهم ــ كان برفقتهم شخص عربي، يتحدث بلهجة خليجية، ربما كويتية، أو قطرية، لا نعرف ــ وراح يتوسل إليهم ليأتوا وينقذوا المتحف، وأن يحركوا الدبابة فقط إلى أمام المتحف ليوقفوا هؤلاء الناس كلهم. وقال إن بعضهم قد اتصل، وبعد ذلك قال: "إنني آسف، فهذا ليس واجبنا".

ثم دخل هؤلاء الناس. في الوقت نفسه، كان أشخاص آخرون يدخلون من الأبواب الخلفية، يحطمون ويكسرون. فتح هؤلاء الأشخاص أحد الأبواب الأمامية ودخل الناس. وما رأيناه لاحقاً كان مروعاً طبعاً. لقد بدا وكأن إعصاراً ضرب البناء من الداخل. كانوا يأخذون أي جهاز لدينا: أجهزة كومبيوتر، آلات تصوير، أجهزة تسوية، مزواة، آلات ناسخة، آلات نسخ ضوئي، برادات، أثاث، أجهزة تلفزيون ــ وحتى آلة صنع القهوة التي لي! ولم يتركوا شيئاً. ما عدا الأوراق التي لدينا، كانت مبعثرة فقط. وفي غرفتي، كان لدي كومة بارتفاع نحو قدمين من الأوراق، ورأيتها مرمية فقط. وكانت طاولتي قد أصبحت ثلاث قطع أو أربع، وكانت مفككة كلياً. وعثرت على مقعدي على بعد نحو 100 متر.

وحين دخلنا المتحف وبدأنا نفتش، عرفنا على الفور أن بعض القطع الهامة جداً التي كانت متروكة في المعارض، قد أُخذت.

قبل شهر واحد من بدء الحرب، كنا قد أخلينا كل شيء تقريباً في خزائن العرض. كان واجبنا أن نفعل ذلك؛ وقد قمنا به من قبل، مرتين، [عندما] كنا نتوقع أي نوع من القصف أو النهب. لقد أخلينا كل شيء، ما عدا بعض القطع السيئة الحظ ــ التي كانت إما سهلة الكسر أو ثقيلة الوزن أكثر من قدرتنا على إخراجها، لكن [اللصوص] استطاعوا أخذها.

مجلة لاروش: هل يمكنك تسمية بعضها؟

دوني جورج: هناك إناء وركاء للزهور، الذي عثرت عليه البعثة الألمانية

في مدينة وركاء، ويرجع إلى عام 3200 قبل الميلاد، على الأقل. وقد عثروا عليه في معبد، وهو قطعة فنية رائعة، وتظهر الفلسفة السومرية، وتطور الحياة، ومراحل الحياة، وتمثال بلا رأس لملك سومري، هو أنتيمينا، وقد اختفى أيضاً. وكذلك بعض القطع التي حصلنا عليها من معبد، باسم نينهوتساغ، في موقع تل العبيد، القريب جداً من أور، في الجنوب. كانت هاتان قطعتين هامتين جدا من النقش النافر على البرونز، وقطعة من عمود مزين ومطعم، وبعض الأحجار على شكل ورود. ومن المعرض الأكادي، فقدنا تمثال بارزيكي البرونزي الشهير، الذي يزن أكثر من 160 كيلو غراماً. إنه قطعة ضخمة، وأروع ما فيها أنها واحدة من أقدم النماذج الكبيرة عن الصب التي صُنعت بواسطة "تقنية الشمع المفقود"، التي تستعمل حتى الآن. وأقدم تمثيل لهذا، يرجع إلى فترة أوائل السلالة السومرية الحاكمة. وربما تكون هذه أكبر قطعة تم صنعها بهذه الطريقة. لذلك، إنها حقاً خسارة عظيمة لتاريخ الفن.

وما لم يستطع اللصوص أخذه، حطموه. لقد حطموا بعض الأسود الفخارية التي حصلنا عليها من تل الحرمل من الفترة البابلية القديمة التي تعود إلى عام 1900 ق. م. ومن منطقة حترا قبل ذلك. وكانت لدينا خزانة عرض لنماذج من الآجر المختوم تعود إلى مرحلة مبكرة من العصور الرومانية. لقد أخذوا تسعة من نماذج الآجر تلك؛ ويبدو أنهم انتقوا تسع قطع من الآجر، ولم يأخذوها بشكل عشوائي. وفي المعرض الآشوري، لاحظنا أن تمثال الملك شلمنصر الثالث مفقود، وتمثال آخر محطم. وفي معرض منطقة حترا، أخذوا رأس تمثال. وحطموا ثلاثة تماثيل رومانية وجدناها في حترا، وأخذوا رؤوسها. كما أخذوا رأس نايكي، إلهة النصر، وتمثالاً كاملاً تقريباً مصنوعاً من البرونز كنا قد وجدناه في حترا. وكان هذا من المعروضات العامة للمتحف.

ثم اكتشفنا أنهم حطموا المخازن أيضاً. وذهبوا إلى ما ندعوه بالمخازن القديمة، التي كانت في أقبية المتحف. ولا نعرف حتى الآن ماذا، ولا كم قطعة، أخذوا من تلك الأقبية. لقد كلفنا جميع الموظفين في المتحف بوضع قوائم والتدقيق رفاً إثر رف، وصندوقاً إثر صندوق، لمعرفة ماذا وكم أخذوا والمقارنة، طبعاً، مع السجلات التي لدينا. وهكذا يجب معرفة كل شيء بالضبط، الأعداد، والوصف،

والصور التي لدينا.

مجلة لاروش: هل لديكم توثيق كامل؟ فقد قيل إنه مفقود.

دونـــي جورج: كلا، كان لدينا توثيق خبأناه في مكان آخر. وقد بدأنا بإعطاء المحققين الأمريكيين سجلات تحتوي على وصف كامل، وأرقام وصور ملونة لكل قطعـــة مفقودة. وبالنسبة للصور الملونة، كنت قد أعددت النظام بنفسي، بعد نهب المـــتاحف الإقليمـــية عـــام 1991، فقد واجهتنا مشكلة خطيرة جداً تتعلق بالصور آنذاك. ولكن منذ ذلك الحين، أصبح لدينا، في السجلات وفي البطاقات، دائماً شيء صغير.. مثل صور جواز السفر، لكل قطعة على حدة، بمقياس صغير، مع الرقم. ويمكـــنك رؤية ذلك في الصورة. وبهذه الطريقة كنا نجد هذه القطع، ونعطي هذه المعلومات الكاملة للمحققين الأمريكيين.

بعد بضعة أيام من وجود الحراسة الأمريكية هناك، وصل إلينا فريق من 14 محققاً، تـــم إرساله بأمر مباشر من الجنرال تومي فرانكس، من القيادة المركزية الأمريكـــية. وقـــدم هؤلاء مساعدة كبيرة فعلاً. فقد كانوا محترفين، وكان يقودهم العقـــيد ماثـــيو بوغدانـــوس، الـــذي كان أصلاً مساعد وكيل النيابة الإقليمي في نيويورك.

بدأنـــا العمـــل معـــاً على الفور. أعطيناهم مكاناً في المكتبة؛ وأقاموا هناك، ووضعوا أجهزتهم كلها هناك، وبدأنا نعطيهم معلومات وصوراً لأي شيء اكتشفنا أنـــه مفقـــود. لقد سافر العقيد بوغدانوس الآن، لكن أشخاصاً آخرين من فريقه لا يزالون في المتحف، يتعقبون بعض القطع في البلاد، ويعملون مع جماعتنا لتطوير قـــاعدة بـــيانات كاملة تم وضعها على شبكة الإنترنت، حول ما عُرف أنه مفقود. وأعتقد أنه في صفحة "مادة مفقودة" بموقع مكتب التحقيق الفيدرالي.

مجلـــة لاروش: إن هذا لا بد أن يجعل من الصعب جداً على أي شخص أن يحاول بيع هذه الأشياء، باستثناء الجامعين الخاصين.

دونـــي جورج: هذا ما نخشاه، لأنها إذا ذهبت إلى الجامعين الخاصين، فإنها ستبقى هناك لمدة جيل أو جيلين. وبما أن هذه القطع الكبيرة بالذات معروفة جيداً، فإننا نعتقد أن لا أحد سيجرؤ على شرائها؛ سواء أكان مركزاً للمزاد، أم متحفاً. لقد تـــم تحذيـــر الجميع، وكما قال هؤلاء المحققون الأمريكيون، كانوا يفتشون في كل

مطار تقريباً، وفي كل مكتب للجمارك، وفي كل نقطة حدود في العالم. هذه كانت غايتهم، وأعتقد أنهم فعلوا ذلك.

مجلـــة لاروش: لقد وردت تقارير بأن بعض أفراد الجيش الأمريكي قد ألقي القـــبض علـــيهم فعلاً في الولايات المتحدة وهم يحضرون معهم بعض القطع إلى ديارهم.

دونـــي جـــورج: كانت هذه القطع من متحف آخر، يدعى "هدايا للقائد". كان ذلـــك المـــتحف قد أعده صدام بنفسه من أجل الهدايا التي اعتاد أن يحصل عليها. كانت تلك بعض قطع الكلاشنكوف المطلية بالذهب وبعض اللوحات لصدام وابنيه ـ أو بندقيتـــي ونشيستر أمريكيتين، مطليتين بالذهب، مع زوج من المهاميز، التي قدمها الرئيس رونالد ريغان هدية إلى صدام حسين!

مجلـــة لاروش: فـــي عرضك الذي جرى قبل أيام في مدينة مينتس بألمانيا، فرقت بوضوح كبير بين مجموعات اللصوص.

دوني جورج: بالضبط. نعم. بعد تأكدنا مما حدث خلال تلك الأيام الثلاثة ـ فنحن علماء الآثار مثل المحققين، ندقق في كل شيء. وأنا بالذات كانت لدي فكرة بأن هناك ثلاث مجموعات من الأشخاص دخلت المتحف.

المجموعـــة الأولـــى، كانت اللصوص العاديين فقط، وأعتبر أنهم الأشخاص الفقـــراء الأمـــيون الذيـــن كانوا يبحثون عن أي شيء يبيعونه بالمال. المجموعة الثانـــية، كانت الأشخاص الذين دخلوا غرف المخازن. ويبدو أنهم درسوا طريق الوصول إلى هناك، لأنهم ذهبوا وحطموا باباً زجاجياً ودخلوا عبره، وباباً ذا ستارة حديديـــة، وباباً حديدياً مقفلاً بالآجر. أما أفراد المجموعة الثالثة فقد دخلوا المتحف وراحـــوا يلتقطون أشياء كانوا يعرفون بأمرها مسبقاً. لقد عثرنا على أدوات لقطع الـــزجاج، وهذا يعني أنهم كانوا مستعدين للحضور إلى المتحف. كما عثرنا على رزمـــة مفاتـــيح في مكان ما قرب غرفة مديرة المتحف، بدا أحدها شبيهاً إلى حد كبـــير بمفـــتاح خزنة المديرة، التي كانت تحتوي على مفاتيح المتحف. إن رزمة المفاتيح تلك ليست لنا. هذا مستحيل، فنحن نعرف مفاتيحنا.

وقـــد مـــروا بجانب بعض النسخ المصرية [من أعمال فنية]، مما يعني أنهم علـــى درايـــة بهـــذه القطـــع، ومروا قرب تمثال مقلد كنا نضعه في أحد ممرات

المـــتحف، ممـــا يعني ثانية أنهم كانوا يعرفون شيئاً ما حول الأمور الفنية، وكانوا يعـــرفون عما يبحثون. لذلك، هذا يعني أنه كان يوجد أشخاص في المتحف، وفي المعـــارض، كانوا مستعدين جيداً لدخول المتحف، وأخذ هذه الأشياء. وكان أولئك الأشخاص هم الذين اقتحموا المتحف من نقطة كانت لنا فيها نافذة غير عادية، فقد كانـــت مبنـــية من آجر زجاجي، ثم أغلقناها من الخارج، ووضعنا ستارة حديدية خارجها.

إن مـــا أخشاه شخصياً هو أن ما أخذته هذه المجموعة قد لا يعود. لأنهم إذا كـــانوا قـــد أعدوا كل شيء، فلا بد أنهم أعدوا مخرجاً لهم. قد يكون هناك بعض الارتباط بين المجموعتين الثانية والثالثة ــ ربما، لكنني لست متأكداً ــ لأن أفراد المجموعتين كانوا يعرفون ما يريدون. وهذا لا يشبه أفراد المجموعة الأولى، التي كانت مجرد لصوص.

مجلة لاروش: هناك زميل عراقي لنا في السويد كان يشاهد محطة تلفزيون عربـــية. كان من الواضح أنه تم تصوير بعض اللصوص، وهم يدخلون المتحف. وقد قال منذ البداية إنهم يبدون منظمين جيداً.

دوني جورج: كان على أفراد الجيش أن يأتوا إلى هناك ويوقفوهم. لقد كانوا هناك، كانوا طوال الوقت هناك، لكنهم لم يوقفوهم.

مجلـــة لاروش: كتـــب عالم الآثار الألماني البروفيسور سومرفيلد في إحدى مقالاته، أن الأمريكيين طلبوا من الناس أن يدخلوا وينهبوا، وحطموا البوابات لهم. كان ذلك تقريراً حصل عليه من أشخاص آخرين.

دونـــي جورج: إنني لا أعرف ذلك، حقاً. ولكن ما أنا متأكد منه هو ما قاله صـــديقنا ذاك، عالم الآثار. لقد قال إنه ذهب وتوسل إليهم ليأتوا ويحموا [الأعمال الفنية]، فقالوا، "ليست لدينا أوامر". حسن، كان هذا يعني، هيا استمروا، وخذوا ما تـــريدون. أمـــا أن يكون الأمريكيون قد كسروا البوابة الرئيسية للمتحف وتركوا الـــناس يدخلون ــ فهذا لم يحدث. إن البوابات الأمامية سليمة، ولم يدخل أحد من هناك، لأنهم دخلوا من البوابات الخلفية، وبعض الأبواب الصغيرة، وممرات الربط مـــن مـــنطقة الإدارة إلـــى المـــتحف، لكنهم حطموا ودخلوا، من ذلك الجدار في المتحف، وحطموا ودخلوا عبر نافذة صغيرة أخرى كانت لدينا.

مجلة لاروش: مما يعني أنهم كانوا يحملون معلومات جيدة جداً.

دونـــي جـــورج: بالضـــبط. ربمـــا كان المتحف، قبل ستة أسابيع، مفتوحاً للجمهـــور. ربمـــا كانوا هناك. ربما كان بعضهم في غرفة مديرة المتحف أيضاً، ولاحظوا نوعية الخزنة التي لديها في غرفتها أو علامتها التجارية. كانت من تلك الخزائن القديمة، التي لا تحتوي على مجموعة أرقام. كانت مجرد خزنة يتم فتحها بالمفتاح. هذا تفسيري لرزمة المفاتيح التي وجدناها هناك.. كان لديها مفتاح واحد فقط، وكان معها. إننا نعرف ذلك جيداً. إنها امرأة موضع ثقة، وواحدة من أفضل علماء الكتابة المسمارية لدينا.

مجلـــة لاروش: إننـــي أتساءل: من الذين يمكنهم دخول غرفة المديرة؟ إنهم يقتصـــرون علـــى مـــن لهم علاقة بالآثار والفن. ربما الأشخاص المحيطون بهذه المجموعة من الجامعين اللصوص، المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية، الذي حددنا هويته في الولايات المتحدة؟

دوني جورج: ربما...

مجلـــة لاروش: ســـيكون مفيداً معرفة من سافر إلى العراق في فترة ما قبل الحرب.

دوني جورج: ربما...

لـــو لم نكن قد جمعنا المادة، ولو لم نكن قد أخرجنا المواد الثمينة من البناء، ووضعناها في المصرف المركزي؛ ولو لم نكن قد أبعدنا الأربعين ألف مخطوطة التـــي لديـــنا.. المخطوطـــات العربية القديمة، والإسلامية، والمسيحية التي لدينا.. ووضعناها في مكان أمين آخر، لأصبحت تلك خسارة كبيرة.

مجلـــة لاروش: كانت هناك تقارير بأن بعض المواد قد أعيدت، ربما تكون من مجموعة اللصوص الأولى.

دونـــي جـــورج: هذا صحيح. حين رجعنا إلى المتحف، عرفنا أن أشخاصاً كثيريـــن مـــن الجوار كانوا في المتحف أيضاً، يأخذون أشياء. اتصلنا بالجوامع، وبدأوا يعظون، ويدعون الناس لإعادة هذه الأشياء، لأنها ذات أهمية كبيرة للبلاد، ولـــتاريخ العراقيين. وعلى الفور، بدأت الأشياء تعود إلينا عبر الجوامع. كان ذلك

هاماً جداً.

بعد ذلك اتفقنا مع الأمريكيين بأن يتم الإعلان عن عفو عام في الإذاعة، وأن بإمكــان الناس أن يحضروا الأشياء إلى المتحف ولا يسألهم أحد، ولن تجري أي محاكمـــة أو أي نـــوع مـــن الإجراءات القضائية ضدهم. من جديد، بدأنا نستعيد الأشياء من الناس العاديين، وليس من المنطقة المجاورة للمتحف.

بعــد ذلك، تم تنفيذ إجراء هام جداً، مع بعض الشباب. حالما ذهبنا إلى مقر القــيادة الأمريكية، وحين جاءت الدبابات، حضر شابان إلى المتحف، وسألا عني وعــن الدكــتور جبار؛ وكانا يريدان تبادل حديث خاص معنا، قالا إنهما كانا في المتحف يوم [10 نيسان] حيث كان الناس ينهبون ويأخذون كل شيء. ولم يتمكنوا من إيقافهم، لأنهم كانوا كثيرين جداً، وكلهم تقريباً مسلحين بالرشاشات والمسدسات والســكاكين. لذلــك قررا أن يفعلا كما يفعل اللصوص تماماً، وأن يأخذا الأشياء، وكــأنهم أيضـــاً مـــن اللصوص. وأخذوا الأشياء إلى البيت، لحمايتها. وقالوا، إننا ســنعيدها حالما نرى أن منطقة المتحف قد أصبحت آمنة. أردت أن أتأكد من هذه الفكــرة، لذلك بدأت أسألهما عن القطع التي لديهما. وبدأا يصفان فعلاً القطع التي لاحظــت أنهـــا مفقــودة مـــن المتحف. لم نسألهما عن اسميهما، ولم نسألهما عن عنوانيهما، واعتمدنا فقط على كلمة شرف منهما. وبعد حوالي يومين أو ثلاثة من مجيء الدبابات الأمريكية إلى المنطقة، عاد هذان الشابان وأحضرا تسع قطع هامة جــداً. كان بينها تمثال الملك شلمنصر الثالث، وإحدى قطع النقش النافر البرونزية من تل العبيد في الجنوب، وقطعة من ذلك العمود المزين والمطعم، وجزء من باب مزين بشكل رائع.

إذاً هــذه هـــي نوعــية الأشخاص الذين أعادوا الأشياء. في آخر مساء قبل مجيئـــي إلـــى هنا، حضر صديق لي إلى منزلي، وقال إن لديه بعض المعلومات، وأن هــناك بعض الأشخاص الذين يريدون بيع قطع أثرية. أرسلته إلى المتحف، وأخــبرته أين يجب أن يذهب، وأن يستعمل اسمي، ويخبر الحرس بأنه ابن عمي. أعطيته أحد المحققين الأمريكيين، وطلبت منه أن يذهب إليه، ويقدم نفسه، ويخبره بالقصة الكاملة، وهو يعرف ماذا يجب أن يفعل.

بعد ذلك سمعت في الأخبار أن المحققين الأمريكيين هناك قد استردوا حوالي

300 قطعة. لذلك أعتقد أنها كانت تلك القصة.

مجلة لاروش: إذا كنت أفهمك جيداً، فإن المتاحف كلها آمنة الآن. وكذلك، ما تبقى من المكتبات العامة. ولكن ماذا عن مواقع التنقيب كلها؟

دونـــي جورج: هذه أيضاً مشكلة ضخمة أخرى. لأن هذا حدث عام 1991، بعـد الحرب مباشرة، حيث بدأ الناس في المناطق البعيدة، وبخاصة في الجنوب، يحفرون المواقع هناك. لقد أبعدوا حراسنا، ونشب بعض القتال بينهم وبين حراسنا. كان لدينا حارس أو اثنان في الموقع، لكنهم أتوا مع 300ـ 400 شخص، مسلحين تماماً كلهم، لذلك كان من المستحيل على حراسنا حماية المواقع. استطعنا أن نوقف ذلـك بـبعض الإجـراءات، كان الأخير والأكثر فعالية هو أننا بدأنا التنقيب في الجنوب. واستطعنا أن نحصل، في بادئ الأمر، على فريقين، ترأست أنا أحدهما؛ وترأسـت الآخر الدكتورة نار الله، مديرة المتحف، وقد أوقف ذلك النهب في هذه المواقع الهامة جداً. وفي السنة التالية، قام رجالنا بالتنقيب في ستة مواقع. ثم توقف ذلك بسبب هذه الحرب.

مجلة لاروش: متى ذهبت إلى هناك؟

دونـــي جـورج: بدأنـا عـام 1999. تلك كانت بداية عمليات التنقيب هذه. ودعوناها باسم "عمليات التنقيب الوقائية" أو "عمليات التنقيب للإنقاذ"، لمنع أي نوع من النهب في تلك المواقع. وعندما كنت هناك، استخدمت 15 حارساً مسلحاً، حيث اسـتطعنا أن نقـوم بواجباتنا وننفذ مناوبات لمدة 24 ساعة. وبهذه الطريقة تمت حمايـة هذه المواقع. ولكن، لسوء الحظ، لقد انتقل اللصوص من تلك المواقع إلى مواقع أخرى فحسب.

ولكن بعد هذه الحرب، عندما بدأت هذه الفوضى كلها، بلا حكومة، ولا أمن، ولا شـيء ـ عـادوا إلـى تلك المواقع. ونسمع الآن عن مئات الأشخاص الذين ينقـبون في مواقع سومرية وبابلية. إنهم يخرجون قطعاً ويبيعونها فقط، ويرتبون أمر عبورها الحدود إلى الكويت، والعربية السعودية، والأردن ـ أو، كما سمعت، كـان بعـض الأشـخاص يأتون من الشمال، ويشترونها، ويأخذونها إلى الشمال، ويعـبرون إلـى إيـران أو تركيا. لذلك، إن الأمر مأساة حقيقية الآن في المواقع الأثرية.

مجلـــة لاروش: لقد أرسل التلفزيون الألماني مؤخراً فريق عمل إلى هناك، وقـــام بتصـــويرهم وهـــم يحفرون. ألا توجد هناك أي حماية، من الأمريكيين، أو البريطانيين؟

دونـــي جـــورج: في البداية، حاولنا كثيراً ترتيب نوع من الدوريات للذهاب ومراقـــبة هـــذه المواقع. وأعطيت إحداثيات هذه المواقع للقوات الأمريكية، ونفذوا رحلـــة واحـــدة بالطائـــرات المروحية المسلحة. ورافقهم بعض الأشخاص؛ منهم البروفيسور ماغيري غيبسون من شيكاغو. انطلقوا، ورأوا الكثير من هذه المواقع، ولاحظـــوا أن الكثـــير من هذه المواقع فيها مئات من الأشخاص، يحفرون فعلاً. والتقطوا بعض الصور.

ثم نزلوا إلى بعض هذه المواقع، وطاردوا بعض اللصوص، لكن ذلك لم يكن هـــو الحـــل، لأنك إذا طاردتهم في النهار، فإنهم سيعودون في الليل. وقد أخبرني البروفيسور غيبسون، أن الموجودين في قسم الشؤون المدنية [بالجيش الأمريكي]، قـــرروا أن يرسلوا كل يوم تقريباً دوريات بالطائرات المروحية المسلحة إلى هذه المواقـــع، وسيحاولون أن تكون لهم دوريات على الأرض تذهب إلى هناك، حتى يصـــبح أغلب هذه المواقع الهامة في الجنوب سالماً وآمناً. أعني، إنهم يحاولون، وهذا حقيقي.

مجلة لاروش: كم عدد المواقع ذات القيمة الكبيرة هناك؟ لا بد أنها عشرات الآلاف؟

دوني جورج: نعم، المواقع المسجلة فقط، لدينا أكثر من 10000 موقع. وهذه هـــي المســـجلة فقـــط، وفي كل يوم، عندما نخرج ونتفحص المواقع، فإن رجالنا يكتشفون مواقع دائماً.

بيـــن هذه المواقع توجد مدن كبيرة، وهي مواقع سومرية وبابلية ضخمة في الجـــنوب. والناس الذين في تلك المناطق يعرفونها، وربما يكون بعضهم قد عمل لدينا، وبعضهم قد عمل لدى البعثة الألمانية مع البروفيسور رودا. إنهم يأتون الآن ويحفرون، ويخرجون الأشياء. لا توجد حكومة، ولا أمن، ولا أحد يوقفهم.

مجلة لاروش: كنت تتحدث عن مبيعات عبر الحدود. أعني، هل هذا حقيقي، أن الحدود ليست تحت سيطرة الأنكلو ـ أمريكيين من الجانب العراقي؟

دونـــي جــورج: هذا صحيح، لأنني رأيت هذا بنفسي، مرتين. حين عبرت للمرة الأولى، عندما ذهبت إلى لندن، وهذه المرة، عندما أتيت إلى ألمانيا. إنهم لا يدققــون أبــداً. إنهم ينظرون فقط، فإذا كان معك جواز سفر، ينتهي الأمر؛ وهم يفــتحون صندوق السيارة فقط، وينظرون إلى ا لمحرك، حسن، ويمكنك الذهاب. أما الصحفيون، فإنهم لا يدققون معهم.

مجلــة لاروش: فــي الحقــيقة، كــان لدى أحد الصحفيين الكثير من القطع المسلوبة، وهو صحفي ذاهب إلى الولايات المتحدة.

دونـــي جــورج: كــلا، إنه ليس واحداً فقط. في اليوم الأول، عندما عبرت الحــدود، في 26 أو 27 نيسان، ألقوا القبض على 12 حالة عند الحدود الأردنية. كانوا كلهم صحفيين، يهربون قطعاً أثرية، أو وثائق، وثائق حكومية.

مجلــة لاروش: كـيف هــذا؟ لأنه بعد اجتماع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلــوم والــثقافة (اليونسكو)، عُقد اجتماع للشرطة الدولية، كما أعتقد، وحضره المدعــي العام الأمريكي أشكروفت. إنها بلاد كبيرة، ويمكن للمرء أن يدخل بلاداً أخرى دون أن يعبر الحدود الحقيقية.

دوني جورج: هذا صحيح. لكنهم بعبور الحدود الحقيقية، كانوا يهربون قطعاً أثــرية عبر تلك الحدود الحقيقية! حين عدت من لندن، تحدثت إلى الحرس هناك، وقدمــت نفسي، وقلت لهم: "أرجوكم، هذا هام جداً. إنكم لا تفتشون الصحفيين. إن الصحفيين هم الذين يهربون القطع الأثرية. على بعد نصف كيلو متر فقط، هناك، يقوم الأردنيون بالقبض على صحفيين يهربون قطعاً أثرية".

مجلــة لاروش: هل يعني ذلك أن هذه المجموعات يعترضها الأردنيون على الجانب الآخر من الحدود؟

دونـــي جــورج: الأردنيون فعلاً! نحن لا نعرف في الحقيقة ما يحدث على حــدود تركيا وسوريا والكويت والعربية السعودية. لكن ما نعرفه هو أن الأردنيين فقط هم الذين يفتشون جيداً جداً.

مجلة لاروش: رأيت في عدد من التقارير، أن حلقات التهريب الدولية ممثلة جــيداً جــداً في الكويت والعربية السعودية. وأنه توجد هناك مجموعات. إنني لا

أقـــول إنهم سعوديون وكويتيون... لكن الطرق تمر عبر هذين البلدين. كذلك ورد ذكر إسرائيل.

دوني جورج: نعم. لقد عرفنا ذلك من قبل، منذ عام 1991، فقد ألقى رجال الشـــرطة العراقـــيون القـــبض علـــى بعض الأشخاص، وقالوا لهم: "إن أشخاصاً أوربييـــن، مقيميـــن فـــي العربـــية الســـعودية، يطلبون منا أن نحضر كذا وكذا، ويوجهوننا لنحفر كذا وكذا".

مجلـــة لاروش: هل يمكن أن توضح قليلاً من وجهة نظرك، كيف يعمل هذا الجهـــاز؟ لأنه، إذا أمعنت التفكير فيه، يتطلب شبكة ضخمة ومنتشرة عالمياً. يجب أن تعرف من هم الجامعون، ولكن يجب أيضاً أن تقوم باتصالاتك من أجل الحماية السياسية العسكرية. يبدو لي أنها تشبه إلى حد بعيد تجارة المخدرات.

دونـــي جـــورج: إنهـــا مافيا ضخمة لتهريب القطع الأثرية. لأنه حتى على الإنترنـــت، يمكنك الآن أن ترى عراقيين قد يقولون لك: "نحن لدينا هذه الأشياء، ويمكنـــنا أن نوصلها لك إلى عمان، ويمكنك أن تستلمها هناك، فنحن نأخذها عبر الحـــدود". ولـــيس ذلك فحسب، فنحن نسمع أنه يوجد الكثير من الأشخاص داخل العراق، قرب تلك المواقع، يشترون هذه الأشياء من أولئك اللصوص. إنهم ليسوا عراقيين، لكنهم أوربيون.

إنها حالة محزنة جداً، ما يحدث لهذه القطع الأثرية ولهذه التحف الفنية، التي هي ملك للبشرية. إنها تراث كل شخص في العالم. وهم يقومون بالتهريب والذبح هكـــذا. والأمـــر الرئيســـي هـــو أنك عندما تخرج هذه الأشياء من المواقع، فأنت تخرجها من بيئتها، وهذا أمر هام جداً بالنسبة لعالم الآثار.

إذا اقتطعـــت كلمـــة أو حرفاً من صفحة في كتاب، فإن هذه الكلمة لن تعني شـــيئاً بعد، إذا لم تكن في موضعها من هذا الكتاب. والموقع الأثري يشبه الكتاب. إنـــنا ننقب صفحة إثر صفحة، ونقرأ كل شيء صفحة إثر صفحة. وبهذه الطريقة نعرف التاريخ الكامل للموقع. وإذا تعرض للنهب على هذه الطريقة، بحفر فتحات هـــنا وهـــناك، وأنفاق بين هذه الفتحات، فالأمر لا يتعدى مجرد انتزاع أشياء من هناك، وأخذها، وهذا لا يحمل أي معنى.

مجلة لاروش: لقد قرأت في مكان ما أن العديد من المواقع قد اعتُبرت مواقع

يجب أن تعترف اليونسكو بأنها تراث عالمي؛ وأن موقع حترا فقط قد تم الاعتراف به في العراق، بينما بابل ونينوى وبغداد وأور وغيرها لم يتم الاعتراف بها. وفي حزيران عام 2003، ستعقد لجنة التراث العالمي اجتماعها، وسيناقشون إن كان بالإمكان فعلاً الاعتراف بهذه المواقع الأخرى. فماذا يمكن أن يعني ذلك؟

دوني جورج: هذا هام جداً. فكما ترى، بين هذه المواقع التي لدينا داخل العراق، لم يتم الاعتراف إلا بموقع حترا. أعتقد أن السبب هو الوضع السياسي.

منذ سنتين تقدمنا بطلب من أجل تضمين بعض المواقع. قدمنا الاستمارة الأولية، ولسوء الحظ لم نلق تشجيعاً كثيراً من اليونسكو. لكننا أصررنا على آشور، لأنها كانت في خطر. وقد أكملت بنفسي ملف آشور. ثم استقبلنا لجنة من اليونسكو في بغداد. ذهبنا ورأينا المواقع، وبعد ذلك ساعدونا في تحسين ذلك الملف. وقمنا بالإعداد، أنا، وسيدة من اليونسكو، وأرنولف هاوسلايتر من ألمانيا كما أعتقد، وأكملنا ملف آشور، وأرسلناه من جديد إلى اليونسكو. إذا تم الاعتراف بموقع آشور، فإننا سنتشجع كثيراً لتقديم طلبات تتعلق بالمواقع الأخرى، من أجل قائمة التراث العالمي.

مجلة لاروش: وماذا يعني ذلك بالتحديد فيما يتعلق بموضوع الأمن؟

دوني جورج: يجب أن يتوفر الأمن بواسطة العراقيين، لكنه يعني أننا سنحصل على مساعدة خبراء اليونسكو، وسنحصل على مساعدة الخبراء الدوليين، في الحفظ والتنقيب وإعداد هذه المواقع للسياحة. وهي لن تتعرض للضرب، إذا نشب أي نوع من الحروب ـ وأعتقد أن هذه هي الحرب النهائية، فنحن لا نريد أن تنشب لدينا حروب بعد.

من المهم أن نضمن دخول المواقع في قائمة التراث العالمي.

مجلة لاروش: هل سبق أن جرى أي نقاش بين المحترفين، وعلماء الآثار، وغيرهم، حول هذه التغييرات في القوانين، التي تدعمها جماعة ضغط المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية في الولايات المتحدة؟

دوني جورج: هذا شيء هام جداً. فالقوانين العراقية المتعلقة بالآثار قوانين قديمة؛ إن قوانين الآثار تعود إلى عام 1936. وقد قمنا ببعض التعديلات حتى عام

1974، أو 1973. هـل يحـق للـناس أن يذهبوا ويغيروا قوانين الآخرين؟ هذا مستحيل! حسن، الحكومة، نعم، هؤلاء هم الأشخاص الذين يحكمون الدول ــ لكن القوانين وجدت من أجل فائدة الناس أنفسهم، وهذا أمر مختلف!

مجلة لاروش: كانت هناك مناقشات في وزارة الدفاع الأمريكية...

دونـي جـورج: أعرف! إنهم [المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية] يريدون تخفـيف وطـأة أجزاء من القوانين العراقية بحيث يصبحون قادرين على تصدير بعض المواد خارج البلاد. أعتقد أن هذا مستحيل! لا أحد سيقبل بذلك. هل تعرف لمـاذا؟ سـأخبرك بنوعية الصدمة التي أحدثها نهب المتحف والقطع الأثرية على الشعب العراقي. كنت أقابل أنواعاً مختلفة من الناس، من اللحام إلى البقال إلى بائع الفاكهة، إلى أستاذ في الجامعة. وقد توصلوا جميعاً إلى نتيجة واحدة، وهي أن كل مـا حـدث للبلاد، يمكن أن يحدث، ولكن لا أحد يقبل ما حدث للمتحف. لأن هذا المـتحف يمـس قلـوب الناس. لذلك من المستحيل أن يتغير القانون! فهذا يتعلق بالشعب العراقي كله.

إذا قـال شـخص ما للعراقيين، "حسن، اسمعوا، إن الأمريكيين يريدون أن يغـيروا قانون الآثار ويريدون أن يقوموا بتصدير بعض آثاركم بشكل قانوني إلى الخارج. ما رأيكم؟" إنني أعتقد أنه ستقوم ثورة أخرى في العراق ضد الأمريكيين! لأن هذا مستحيل، ولا يحتمل أن يتم.

مجلة لاروش: كنت أقرأ أنه خلال اجتماع جرى في وزارة الدفاع الأمريكية بـتاريخ 24 كـانون الثانـي، كان واضحاً أنه تم استقبال أمين صندوق المجلس الأمريكـي للسياسـة الثقافية هذا في وزارة الدفاع الأمريكية؛ وكان قد تلقى دعم فيليـب دي مونتيبيلو من متحف متروبوليتان في نيويورك، من أجل فكرة مشاركة فرق دولية في عمليات التنقيب بالعراق.

دوني جورج: هذا طبيعي!

مجلـة لاروش: نعم، هذا طبيعي، ولكن مع فكرة أنهم، حالما يكتشفون شيئاً ما، يكون بإمكانهم أن يصدروه. أن يحصلوا على ترخيص للتصدير.

دوني جورج: كلا! أعرف، إن هذا مستحيل. إنهم لا يبحثون عن العلم، إنهم يبحثون عن الربح، وعن المال!

فـــي الســـابق، كـــان لدينا هذا التقسيم للقطع الأثرية، وكان 50% من القطع الأثـــرية يذهـــب للعراقييـــن، و50% للبعثة. وكانت تلك البعثات إما من المتحف البريطانـــي ـــ لديهـــم القطع في المتحف البريطاني ـــ أو من الجامعات ـــ ولديهم هذه القطع في جامعاتهم. إنهم لا يريدون ذلك! بل يريدون أن تباع تلك القطع. ولا توجد بعثة محترمة تنقب عن شيء ما، وتذهب لتبيعه لهم! فهذا نهب، وسرقة! إنهم يحـــاولون إضفاء طابع قانوني على سرقتهم، ويريدون الربح، والمال عن طريق هذا النوع من النهب. إن هذا مروع!

إننـــي متأكد من أنه لا يوجد عراقي واحد سيقبل بذلك. وأنا متأكد من أن لا أحـــد سيقبل بذلك في أي مكان من العالم. هنا في ألمانيا، إذا كنتم تقبلون أن تأتي بعـــثات غير ألمانية وتعمل هنا، حسن، إن هذا وفقاً للقانون. ولكن هل تقبلون أن يأخذوا القطع الأثرية خارج البلاد؟ لا أحد سيقبل بذلك...

إذا كـــان الأمـــر من أجل عرض هذه القطع، فنحن لدينا دائماً معارض في الخـــارج. ولدينا دائماً روائع فنية في متحفنا، ويمكن لأي شخص أن يأتي ويراها. لدينا معارض في الخارج، ويمكن للمئات والملايين من الناس أن يأتوا ويروا هذه الأشـــياء. كانـــت لدينا منشورات، ويمكنهم دراستها، ويمكنهم قراءتها. لكن الأمر ليس كذلك. إن المال هو الذي يبحثون عنه والذي يمكن أن يكسبوه من هذه القطع الأثرية. هذا عار!

مجلة لاروش: هل هناك أي شيء آخر قد تفكر بأنه يمكن عمله؟

دوني جورج: يمكن أن أقول، إن كل رجل في العالم يجب أن يبحث عن هذه القطـــع الأثـــرية ويقول "كلا" لهؤلاء اللصوص وهؤلاء المهربين. يجب أن ترجع القطـــع الأثرية إلى متحف العراق، لأنه مكانها الطبيعي. وسيكون المتحف مفتوحاً لكـــل شخص. إنها جريمة أن تكون هذه القطع الأثرية تحت وصاية رجل واحد، وأن يضـــعها في القبو، وأن يحرسها، ويمنع العالم كله من مشاهدة روائع البشرية هذه.

□□

شهود عيان أجانب وعرب
يؤرخون:
عمليات نهب الآثار العراقية

▪ إعداد: هدى أنتيبا ▪

آثار رفض مديرة متحف "بغداد" السابقة "سلمى نوالة متولي" كشف مكان كنوزه للمحتلين من حلفاء القوات الأمريكية والبريطانية دهشة وتقدير شريحة واسعة من الرأي العام العالمي لهذا الموقف الوطني..

وكان تصديها لناطق الحلفاء الرسمي: "بيتر كوردوني" الذي حاول الضغط عليها لمعرفة مخابئ تلك الكنوز -محط إعجاب وسائل الإعلام الأوروبية التي راحت تثني على مديرة متحف بغداد السابقة في صحفها المقروءة بشكل خاص.. وقد اتهم الإعلاميون الغربيون المحايدون تلك القوات الغازية للعراق بالتآمر مع المافيا المنظمة والمتخصصة بتهريب الآثار الفنية العراقية خارج موطنها الأم والاتجار بها..

"لم يجد الحلفاء أسلحة الدمار الشامل في العراق لكنهم عثروا على كنوز ثروة شاملة، سرقة تراثه الوطني وهي سوق رائجة أكثر من تهريب المخدرات".. بتلك الكلمات افتتحت مجلة "الباري ماتش" سلسلة تحقيقاتها الخاصة بتهريب الآثار وقام بتغطيتها الباحث والصحفي "هوغو رانكل"..

وتكلم شهود عيان

وتتابع "صحيفة الاندبندنت" البريطانية على لسان "روبير فيسك" قائلة:

"وطئـت أقدامـنا بقايا تماثيل من رخام عمرها خمسة آلاف سنة إلى جانب جرارٍ وقواريـر ولُقـى صـمدت أمام حصار بغداد عشرات المرات عبر التاريخ ليتم تحطيمها مع مجيء الأمريكيين للتحرير.

-كمـا ادعى هؤلاء.. "هكذا كتب "روبير فيسك" أثناء زيارته منتصف نيسان 2003 للعاصـمة العراقـية وتسجيله وقائع عبث أيادٍ خبيرة في القرصنة بمتحف بغداد لتنتقي من القطع الأثرية ما هو غالي الثمن ويمكن تصريفه لدى باعة التحف القديمـة فـي كل من جنيفٍ وفرانكفورت ولندن ونيويورك.. ويسأل "فيسك" لماذا وكـيف فعلـوا ذلك؟ لماذا تُحرق بغداد بالقنابل والصواريخ؟ فبعد ثلاثة أشهر من مناقشة البنتاغون وعلماء آثار عاملين لديه كيفية إدراج متحف بغداد الأثري ضمن قائمـة القواعد العسكرية الأمريكية، لماذا أصدرت واشنطن الأوامر بتدمير تراث بـلاد الرافديـن القديـم؟! جـرت تلك الأمور بينما كان وزير الدفاع الأمريكي "رامسـفيلد" يصـرح أمام الملأ في مؤتمر صحفي أن "الفوضى التي عمت بغداد انتهـت".. غادر لصوص متحف بغداد الوطني المكان قبل وصولنا -يتابع "فيسك" وهـو يـدوّن مشاهداته -بساعات معدودة - لنلمس بأيدينا القطع الأثرية المبعثرة والمحطمـة فـوق أرض المـتحف.. لست أدري كم كان عددها مع العلم أن هذا المـتحف يضـم آلاف القطع الفنية من روائع آثار حضارات بلاد الرافدين.. هنا قواعد لجرارٍ وتماثيل تعود للحضارة الآشورية.. عاش الآشوريون في تلك البقاع قـبل ألفي سنة من ميلاد المسيح.. وهناك جداريات وزخارف من الكتابات البابلية والسومرية وحتى تماثيل فارسية ويونانية ملقاة كيفما اتفق تروي قصة ثقافات أمم ذات صـولة وجولـة.. لـم أشاهد -يقول "فيسك"- منذ تدمير تماثيل بوذا بانيام ومـتحف كابول وربما منذ الحرب العالمية الثانية ثروات فنية تصاب بمثل الأذى الـذي تعرضت له مقتنيات متحف بغداد.. أذكر أن قوات "ماونت باتن" البريطانية قامـت فـي جنوب شرقي آسيا وخلال محاولاتها المسيطرة على شوارع سايغون بعملـيات شـبيهة بـتلك التي نفذتها القوات الأمريكية في متحف بغداد الوطني.. يضـيف "روبـير فيسـك" -رأيت لوحات من النقوش الحجرية يعود تاريخها إلى 2700 سنة ق.م مقطعة الأوصال وأقنعة عمرها 700 سنة ق.م وتماثيل صلصالية تعود لألفي سنة ق.م ومزهريات تعود لأكثر 5000 سنة ق.م.. ومجسمات رخامية محطمـة تعود لـ800 سنة ق،م ورؤوس ملوك آشور وبابل تعود لـ 2250 سنة

ق.م تم تحطيمها بعد سرقة ما خفّ حمله وارتفع ثمنه من مجوهرات مرافقة وقطع ذهبـية عملت عشرات البعثات الأثرية على استخراجها ودراستها منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن..

وهـا هناك كانت تنتصب خزانة زجاجية ضخمة تحتوي لُقى تعود لأربعين ألـف سـنة خلت تحطمت وأفرغت من محتوياتها.. وما من أحد يعلم أين اختفت المجسـمات الآشورية التي تعود للقصر الملكي الموجود في "خورسباد" والأختام المعدنـية والحجرية والصلصالية التي ترجع لأربعة آلاف سنة أو الأقراط الذهبية التـي دفنـت مـع أميرات سومر وعمرها 4500 سنة.. كل تلك الكنوز وسواها اسـتغرقت عقـوداً لاكتشـافها وإخراجها إلى النور مجدداً من المقابر والمغاور المنتشـرة فـي بلاد الرافدين على أيدي علماء آثار من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا -ساهم هؤلاء في تصنيف تلك الآثار التي يحتفظ بها متحف بغداد- وأعاد تشييد مبانيه الحديثة الألمان -يطل على نهر دجلة- قبل افتتاح أبوابه أمام الجمهور في مطلع الألفية الثالثة منذ ثلاث سنوات.

لم تحل التنديدات الدولية لحماية كنوز العراق التراثية دون تعرض متاحفه في كل من الموصل والبصرة بعد بغداد للسرقة والنهب دون وازع أو رادع.. وذلك بعد أن تـم قصـف تلك المدينة وإحراقها من قبل قوات الحلفاء المحتلة للعراق ومن ثم تعرضها للنهب والسرقة أمام لا مبالاة المنظمات الدولية وفي مقدمتها الأمم المتحدة.. فمـتحف بغداد على سبيل المثال ويضم أكثر من 150 ألف قطعة أثرية -عبثت بها أيـدي لصوص محترفين- كما صرح "دوني جورج" -مدير البحوث والدراسات في المتحف المذكور والذي أضاف في حديثه لوكالة الصحافة الفرنسية: لم يمسوا النسخ وإنما سرقوا القطع الأصلية مما يؤكد أنها عملية قرصنة منظمة.. ويتابع "مؤيد سعيد الدامرجي" مستشار وزير الثقافة العراقية السابق قائلاً: "وقفت الدبابات الأمريكية أمام البوابة الرئيسة لمتحف بغداد الوطني في الوقت الذي قام به اللصوص بنهب محتوياته تحـت أنظار تلك القوات وبمباركتها.. ومن بين أشهر القطع الفنية التي اختفت تقول الفـيغارو: "قيـثارة أور" المصنوعة من الفضة وتعود لأربعة آلاف سنة خلت وهي فريدة نوعها.. وتماثيل من النحاس ترجع للحقبة الأكادية.. وتسأل اللموند: أين اتفاقية لاهاي لعام 1954؟ ومن يلتزم ببنودها؟

حضارة الرافدين: عنقاء الحضارات

يسـرد المؤرخ والمهندس الفرنسي = "هنري سيترلين" وهو صحفي وأديب وباحث وفنان تشكيلي وصاحب كتاب "الرافدين" الذي صدر عن دار غاليمار -في مؤلفـه المذكور- مسيرة حضارات بلاد ما بين النهرين لصناعة ما يسمى معجزة التراث الإنساني فيقول: "من ينابيع دجلة والفرات نهلت الحضارة الغربية ثقافاتها.. فعلـى ضفافها ابتدع السومريون الخط والبابليون القانون المدون وذلك قبل 5200 سـنة مـن الآن إلى جانب الرياضيات وعلم الفلك والزراعة- وظهرت في الألف العاشـر ق.م".. ثـم يسـتطرد المؤرخ الفرنسي فيضيف: "ولدت صناعة التماثيل الصلصالية منذ 3300 سنة ق.م ومعها صياغة المجوهرات والحلي لتواكب تعاقب الـثقافات فـي منطقة الرافدين، ليعمل القصف الأمريكي الهمجي للمناطق الأثرية العراقـية علـى إبادتها شكلاً ومضموناً-وتأتي- يتابع "هنري ستيرلين"- عمليات السرقة المنظمة لتترجم تهديدات جورج بوش الابن ومبادراته التخريبية في العراق علـى أرض الواقع.. فمنذ مطلع 2003 قامت مجموعة من الجامعيين والحقوقيين والمؤرخيـن الأخصـائيين في تاريخ الحضارات بإنذار البنتاغون حول ضرورة حمايـة الآثـار العراقية وثمرات الرافدين لكن ما من مجيب.. فمن يتذكر اليوم - يقول الباحث المؤرخ ستيرلين- أن بغداد التي أسست عام 762م كانت تدعى مدينة السـلام؟! وأنها ساهمت في صناعة أمجاد الحضارة العربية المنفتحة على الشرق والغرب معاً..

وفـي ملف خاص بالباري ماتش أشرف عليه "فيليب فلاندران" يتناول كنوز العـراق المسروقة افتتح هذا الباحث والصحفي الفرنسي دراسته تلك بقوله: "للمرة الثالـثة علـى التوالـي أزور بغداد لمعاينة الآثار التي عادت إلى حضن متحفها الوطنـي.. إذ لم ينقض ثلاثة أشهر على سرقة هذا المتحف وبسحر ساحر ظهرت قطع أثرية غاية في الإبداع في صالاته وكانت وكالات الأنباء العالمية قد أكدت أنه علـى بعد ألف كم من بغداد وفي مطار عمان عثر رجال الجمارك الأردنية داخل حقيـبة مسـؤول أمريكي قادم من العاصمة العراقية على متن طائرة تابعة للأمم المـتحدة على 24 قطعة فنية مسروقة من متحف بغداد.. وقد تم حجز تلك الآثار ومصـادرتها..وأطلـق سراح المسافر الذي لم يُكشف النقاب عن اسمه.. لتضيف

"الديلي تلغراف": ليست تلك العملية سوى نقطة في بحر السرقات المبرمجة التي تم اليوم تسويقها وبيع بضائعها في أسواق أوروبا وأمريكا "لتهدد كما يقول "فيليب": ذاكرة العالم بالقحط والجفاف".. فخلال زيارتي الأولى يتابع "فلاندران" -شاهدت بأم عيني بين يومي الأربعاء والجمعة التاسع والحادي عشر من نيسان 2003 قرابة ثلاثة آلاف قطعة أثرية فنية مفقودة من متحف بغداد الوطني.. اختفت تلك الآثار تحت سمع وبصر القوات الأمريكية التي احتلت المدينة.. وبعد مضي ثلاثة أشهر على تلك الحادثة تجولت مجدداً في ردهات المتحف المذكور لأشاهد قطعاً مبعثرة ترقد فوق قارعة إحدى ردهاته تمثل أقدم مزهرية في تاريخ الإنسانية صُنعت من المرمر الأبيض -يبلغ عمرها حوالي 5100 سنة-وتحمل نقوشاً ابتدعها فنانو مدينة الورقاء (الوركاء) تمثل "عشتار" نجمة الصبح وآلهة الخصب والحرب -ونظراً لشهرة هذه المزهرية الضخمة التي يعرفها مؤرخو الفن لم يستطع المهربون الذين اشتركوا في سرقتها بيعها.. فعادت إلى متحف بغداد دون أن يُكشف اسم سارقها الحقيقي.. وإضافة لتلك المزهرية أعاد مدير الجمارك الأردنية "محمد قطيش" القطع الأثرية العراقية التي تمت مصادرتها في مطار عمان لتحط في المتحف المذكور خلال شهر حزيران الماضي.. وتشمل ألواحاً من العاج المطعم بالذهب -اكتشفها عالم الآثار البريطاني "ماكس مالوان" زوج الأديبة "أغاثا كريستي" في إحدى غرف القصر الملكي في "نمرود" -عاصمة الآشوريين بين القرن التاسع والقرن الثامن ق.م- وذلك خلال عمل "مالوان" في المنطقة بين عامي 1954-1955.. صاغ تلك القطع فنانون سوريون من سورية العليا، كتب ماكس مالوان، تكريماً لآلهتهم "هاثور".

ويتميز تمثالها بقرنين ذهبيين وللإله "هوروث" ويتخذ جسمه شكل أبي الهول -وقد اكتست تلك التماثيل العاجية بأوراق الذهب.. وصيغت تلك الأعمال تلبية لطلب "عاشور نازيرباك الثاني" حاكم ما بين النهرين والفرات الأوسط وشمال سورية في القرن التاسع ق.م.. وعلى مقربة من "الموصل" يتابع "فيليب فلاندران" -وتبعد 400كم شمال بغداد- تقع مدينة "نمرود" وتطل على سهول خصبة ترويها مياه دجلة ورافده الزاب الأكبر.. وعلى غرار "نيبور" -250كم جنوب بغداد- حاصر الجنود الأمريكيون- أفاد "فيليب فلاندر" -وتعرف على لهجتهم التابعة لولاية تينيسي -مدينة "نمرود" منذ وصولهم إليها منتصف حزيران 2003 وأطبقوا

بدباباتهم على مداخل قصورها الملكية وقاموا بتفتيش كل بقعة فيها ولا أحد يدري ماذا وجدوا وعلى أية آثار استولوا؟!

ويلتقـي الباحـث والكاتب الفرنسي "فلاندران" بعالم الآثار العراقي: "مزاحم محمـود" وهو من مواليد الموصل وقد تابع مهمة "مالوان" واكتشف 1988 بوابة حفر اسم "عاشور نازيربال" فوقها تقع تحت القصر المذكور عثر -"مزاحم" خلف تلـك البوابة- كما أخبر "فلاندران" -على مقبرة امرأة يرقد رأسها فوق طبق من الفضـة وقـد زين تمثالها بأقراط وعقد ذهبيين إلى جانب أساور وخواتم مطعمة بالأحجـار الكـريمة.. وتـم استخراج تلك المكتشفات وأرسلت إلى متحف بغداد لتـتعرض للسـرقة خلال شهر نيسان الماضي 2003 على غرار كنوز "فالاسار" واكتشـفها "مزاحم حمود" في آذار 1989 داخل بئر تؤدي إلى صالة مغلقة بحجر كبـير كتـب فوقـه "تـنذركم الملكة إياباً وابنتها أتاليا بألا تلمسوها وألا تسرقوا مجوهـراتها وإلا لـن تروا الجنة وستصيبكم الأمراض القاتلة ".. واستلقت الملكة وابنـتها الأميرة" جنباً إلى جنب على طريقة الفراعنة في تابوت حجري (ناووس) وكلل رأس كل منهما بتاج مذهب صنع مرقدهما الرخامي فنانون فينيقيون وختمت المصوغات التي في غرفتهما باسم "تغرات فلاسار" وخليفته سرجون الثاني" الذي أخضع "بابل" لسلطته وانتصر على الفراعنة في القرن الثامن ق.م.

وتعرضـت تلك الكنوز هي الأخرى للنهب والاختفاء خلال سرقة المصرف المركزي العراقي حيث نقلت مع قطع أثرية أخرى تعود لزوجة "آشور غاسيربال" كالمجوهـرات واللآلئ و.. وكاد "مزاحم محمود، كما يقول: "فيليب فلاندران، يفقد صوابه حين رأى الصواريخ الأمريكية تدمر مصرف بغداد المركزي حتى علم أن قوات البنتاغون عثرت في خزائن المصرف المذكور على 650 قطعة أثرية و70 كـيلو غـرام مـن الذهـب وأحجار كريمة تزن أطناناً تم عرضها أمام كاميرات الصحفيين لفترة لا تتجاوز الثلاث ساعات فقط في متحف بغداد الذي تحول يومها إلى حصن شبيه "بفور نوكس" الأمريكي الذائع الصيت.. وينتقل الباحث "فلاندران" إلى مدينة "بابل" ليسجل ما يلي:

"تحولـت الحاضرة الأثرية بابل العريقة إلى قاعدة أمريكية عسكرية بعد أن دُمـر جزء من متحفها الخالي من محتوياته اليوم.. وفي محافظة الناصرية يدون

"فيليب" استعاد مدير آثارها أواخر أيار الماضي -وهو لغوي مختص بالكتابة المسمارية ويدعى "عبد الأمير الحمداني" حفنة من القطع الأثرية المسروقة من متحفها.. وتنسب تلك الكنوز لـ "لاغاش" العاصمة القديمة لـ "غوديا" حاسم المنطقة في نهاية الألفية الثالثة -وكانت محتويات معبد "نينكرشو" المدينة المجاورة لـ "فيرسو" قد تعرضت هي أيضاً للنهب والسرقة ولم يتبقَ سوى بضعة ألواح في متحفها تعود للعصر الذهبي لسومر (قبل 42 قرنا) وصل إليها لصوص الآثار على غرار قصر "نور قداد" في "لارسا" ومعبد "شمش" في "سيبار" و"معبد" "إنليل" شقيقة "عشتار" ويقع في "نيبور"..

أما الموناليزا السومرية -وتبلغ من العمر 5000 سنة وهي أقدم منحوتة لوجه بشري معروف حتى الآن فقد عادت من رحلتها الطويلة إلى نيويورك بعد سرقتها على أيدي مافيا الآثار لتحط في متحف بغداد.. كما ذكرت الديلي ستار.. وكانت سيدة الرقاء، الموناليزا السومرية، قد اختفت في التاسع من نيسان الماضي.. وهناك اليوم أكثر من 7000 قطعة أثرية فنية عراقية لا تزال مفقودة رغم العثور على حفنة منها خلال تنقلها على أيدي رجال المافيا بين بريطانيا وإيطاليا والولايات المتحدة و.. وتفيد تحقيقات أجراها الباحث الفرنسي "هو غورانغ" لمجلة الباري ماتش ونشرها في هذه المجلة ثم في كتاب صدر حديثاً تحت عنوان "تهريب الآثار" بما يلي:

"أجمع علماء آثار ومؤرخون ومدراء متاحف غربيون وجامعو التحف الأوربيون على أن أسواق تهريب القطع الأثرية والفنية مزدهرة اليوم أكثر من أي يوم مضى.. وخاصة بعد غزو القوات الأمريكية للعراق.. فبينما استعرت حمى المعارك في العراق - يقول الباحث "هوغو" إلى نهاية آذار ومطلع نيسان 2003- ملأت فضائح سرقة متاحف بغداد والمدن العراقية الأخرى كالبصرة والموصل- مانشيتات الصحف والمجلات.. هذا في حين نشطت صالات "كريستيس" وسوتسبي" و"بونبها مس" في بيع التحف القادمة من الشرق الأوسط بالمزاد العلني.. وراحت تعمل تلك الصالات بأقصى طاقتها -منتصف نيسان- لتطرح عشرات الأعمال الفنية المسروقة من العراق في مزاداتها المشبوهة تلك على غرار "روط" يعود للقرن الرابع للميلاد وصل ثمنه يومئذٍ إلى [462296 يورو] ومحبرة يرجع تاريخ صنعها للقرن الثالث عشر للميلاد تجاوز ثمنها [1623871

يورو] إضافة لقطع من الآجر المنحوت والمرصع بالذهب انتزعت من قبب عدة جوامع عراقية بلغ سعر القطعة الواحدة من الآجر تلك [12179 يورو] هذا باستثناء العمولة التي تتقاضاها الصالات المذكورة.. ومن الواضح أن تلك القطع- والتي لا تحمل وثيقة تثبت مصدرها- عمدت المافيا إلى تهريبها من الشرق الأوسط إلى أوروبا دون التقييد بالقوانين الدولية أو بمواثيقها واتفاقياتها الرسمية.

يقول الملياردير السويسري "جورج آورتيز" أبرز جامع تحف أثرية مصرية وسومرية وصينية -وهو اسم معروف في صالات البيع بالمزاد العلني: "إن ما ينقذ الفن هو انتشاره أما الاتفاقيات الدولية فلا أهمية لها" حسبما علق هذا العارف بخفايا الأمور -ويعلق فلاندران-.. ويعتبر "جورج آورتيز" القطع الفنية المسروقة التي خرجت من موطنها الأصلي لتتحول إلى بضاعة تباع في المزادات العلنية شبيهة باللاجئين من المثقفين ليس إلا.. ويشاطر "آوريتز" نظيره الملياردير النرويجي "مارتن شويان" المثل الشعبي القائل: "بين البائع والشاري يفتح الله"- وكان "شويان" قد اشترى من بائع القطع الفنية في لندن ويدعى "سام فوك" الشهير [140] مخطوطة بوذية تعود للقرن السابع للميلاد بمبلغ قدره [7] مليون دولار أمريكي.. باعها بستين مليون دولار لاحقاً مع احتمال وصول سعرها اليوم إلى 150 مليون دولار بهذا المنطق التجاري تتم صفقات تسويق كنوز العراق المسروقة والتي لا تقدر بثمن، علق "فلاندران" في كتابه.

أما "جورج آورتيز" فيقول: "لأن كنوز العراق لا تقدر بثمن كان همنا إنقاذ هذا التراث الثقافي أولاً من خلال استثمارات الأسواق الدولية مع العلم أن تهريب القطع الفنية مهما كان مصدرها ليس من اختصاصنا".

ويكفي أن يشارك أساتذة من الأكاديميين في كتابة مقال علمي واحد حول أية قطعة أثرية مسروقة من كنوز الشعوب -العراق اليوم- ليتضاعف سعرها وقيمتها عشرات المرات بعد أن اكتسبت مصداقية تحتاجها المافيا أو لصوص الآثار للترويج لبضاعتهم المسروقة..

□

المراجع:

- مجلة الباري ماتش العدد 2834 تاريخ 2003/9/17.
- مجلة الباري ماتش تاريخ العدد 2003/8/15.
- مجلة النوفيل أو بسرفاتور تاريخ 2003/4/16.
- صحيفة اللموند الفرنسية تاريخ 2003/3/26.
- صحيفة الفيغارو الفرنسية تاريخ 2003/4/1.
- صحيفة الفيغارو الفرنسية تاريخ 2003/4/15.
- الديلي ستار الناطقة بالإنكليزية تاريخ 2003/9/24.
- الديلي تلغراف البريطانية تاريخ 2003/4/8.
- الأندبندنت أون ساندي تاريخ 2003/4/13.

□□

Foreign Literature Quarterly, no.116

Autumn 2003, Twenty Eighth year

Contents

1- Editorial: By Executive Editor Dr. Nadia Khost: Civilization of Iraq.
2- A Call from the General Secretary of the Arab Authors & Writers Union about plundering and destroying the civilizational heritage in Iraq.
3- Significances of the Aggression on the civilizational Roots of Iraq, by Dr. Khaled Al – Nashef.
4- The Ruler & the Pauper of Naibour – Babylonian Tale from the 2nd millennium B.C., by Farouq Ismael.
5- The Social & Cultural Structure of Woman in Gilgamesh Epic, by Dr. Widad Al- Jourani.
6- L' Archéologie Islamique en Iraq, by Marie – Odile Rousset, tr. By Dr. Noura Arissian.
7- An Interpretation of the Palace of the Caliph at Samarra (Dar Al- Khilafa or Jawsaq Al – Khaqani), by Alastair Northedge, tr. By Khaled Haddad.
8- Mossad & Iraqi Jews, tr. & Ed. By Jawdat Al – Saad.

9- The 49th International Annual Conference for Assyrian Studies, by Dr. Farouq Ismael.
10- Juste Avant la Guerre? Comment Protége L' Archéologie en Iraq, by: Jonne Farchakh, tr. By Abboud Kassuha.
11- Archaeologists Charge US with "Crime of the Century", from "Larouche" Electronic Magazine, tr. By Rasha Haddad.
12- Foreign & Arab Eyewitnesses Writing the History of Plundering the Iraqi Monuments, Ed. By Huda Antiba.

□□

الآداب الأجنبية، العدد 116،خريف 2003

السنة الثامنة والعشرون

المحتويات :

ر.م	العنوان	اسم الكاتب	اسم المترجم	ص
1.	الافتتاحية: حضارة العراق	أمينة التحرير : د.ناديا خوست		7
2.	حول نهب التراث الحضاري في العراق وتدميره	نداء من الأمين العام للأدباء والكتاب العرب		15
3.	دلالات العدوان على الجذور الحضارية للعراق	د.خالد الناشف		17
4.	الحاكم وفقير نيبور	د.فاروق اسماعيل		24
5.	البنية الاجتماعية والثقافية للمرأة في ملحمة جلجامش	د.وداد الجوراني	د.خير الله سعيد	36
6.	الآثار الإسلامية في العراق	ماري أوديل روسيه	د.نور أريسيان	60
7.	وصف قصر الخليفة في سامراء (دار الخلافة أو الجوسق الخاقاني)	ألاستير نورثيدج	خالد حداد	95

ر.م	العنوان	اسم الكاتب	اسم المترجم	ص
8.	الموساد ويهود العراق	جودت السعد		124
9.	المؤتمر الدولي السنوي التاسع والاربعون للدراسات الآشورية	د.فاروق اسماعيل		135
10.	العراق بين الآثار واللصوص	جوان فارشاك	عبود كاسوحة	156
11.	علماء الآثار يتهمون الولايات المتحدة بجريمة القرن	مجلة (لاروش) الالكترونية للدراسات السياسية	رشا حداد	166
12.	شهود عيان أجانب وعرب يؤرخون: عمليات نهب الآثار العراقية	هدى أنتيبا		184

□□□

AL – ADAB AL – AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

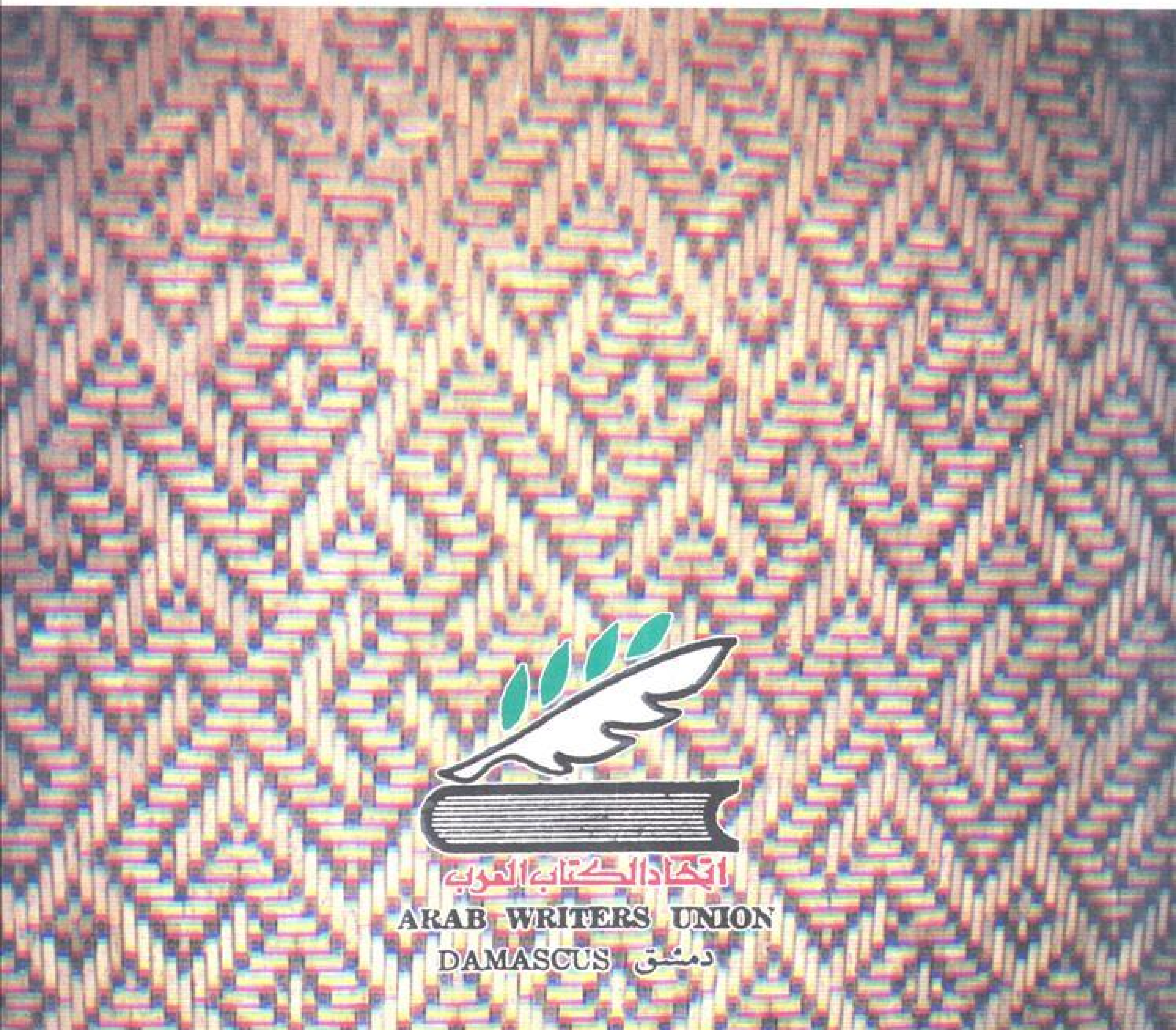
العـــدد 116 خـــريف 2003 الســـنة الثامـــنة و العشـــرون

ARAB WRITERS UNION – DAMASCUS, SYRIA

AL - ADAB AL - AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

NO.116



اتحاد الكتاب العرب

ARAB WRITERS UNION

DAMASCUS دمشق

السعر ٢٥ ل.س

وفي البلاد العربية ٣٥ ل.س أو مايعادلها

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

دمشق